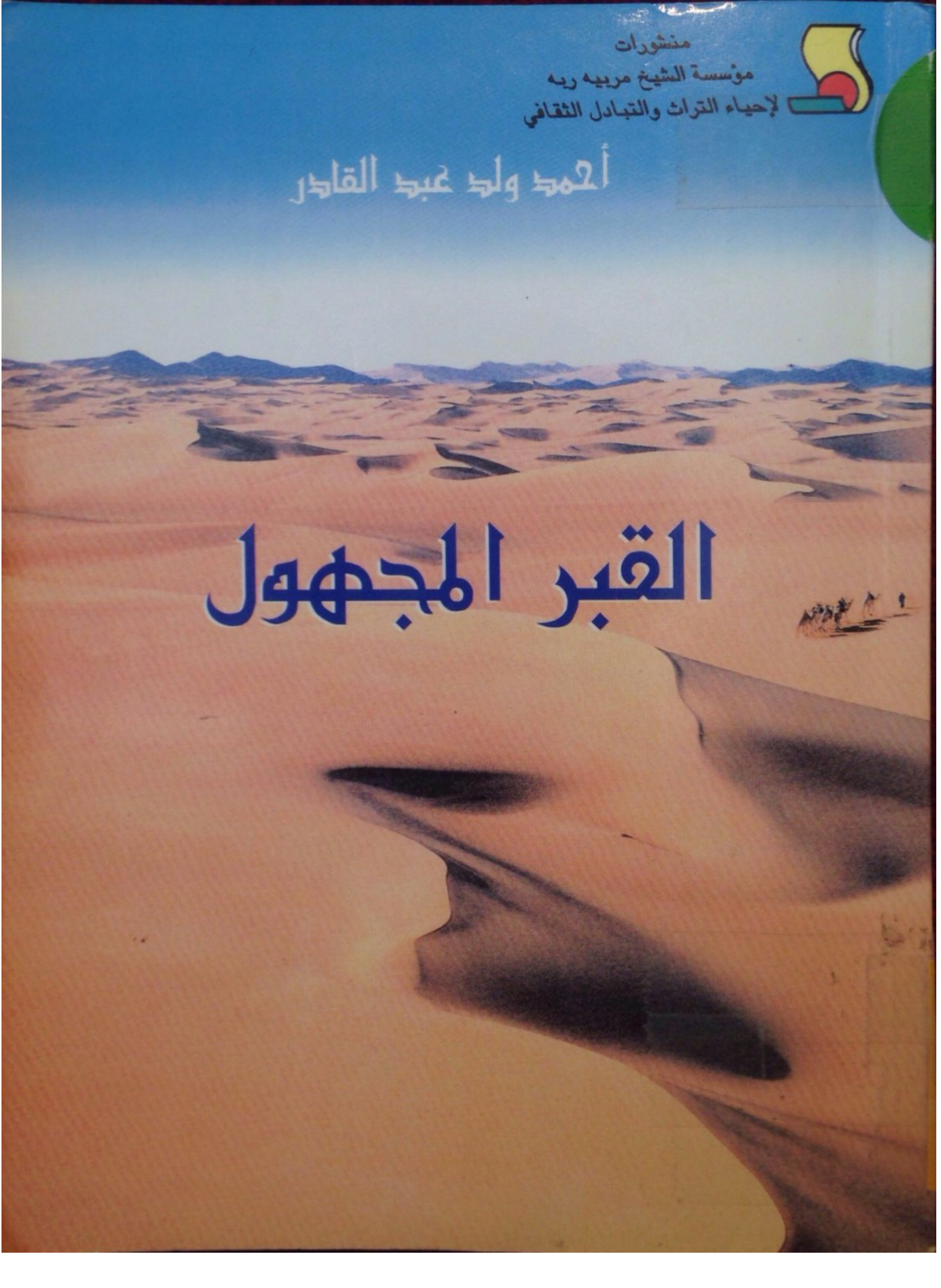

منشورات
مؤسسة الشيخ مربيه ربه
لإحياء التراث والتبادل الثقافي
أحمد ولد عبد القادر
القبر المجهول

أحمد ولد عبد القادر

القبـــــر المجهـــول

روايــــــة

2002

عنوان الكتاب : القبر المجهول

الكاتب : أحمد ولد عبد القادر

الناشر : مؤسسة الشيخ مربيه ربه لإحياء الثرات

المطبعة : بني ازناسن – سلا –

الهاتف : 037.81.02.42/037.81.02.79

الإيداع القانوني : 1148/2002

ردمك : 3/2104/0/9954

القبر المجهول

رواية

- 1 -

ظهر ذلك الضريح الكبير مسنما بالرمل، وبشكل يبدو أكبر من حجم القبور العادي، طويلا يغطي امتداده ثلاثين ذراعاً أو يزيد :

هل هذا القبر لأحد عمالقة العصور الماضية البعيدة والقرون الغابرة؟! أم هو لأحد المسلمين من الجان شهر على هذا النحو ليزوره أصدقاؤه من الإنس تبركا منه ووفاء للعهد؟!

ولو كان لأحد الأولياء والصالحين المعروفين من الإنس لما بقي وحيدا لا وجود لقبر آخر بجانبه. والناس مجبولون على الرغبة في دفن موتاهم بقرب مدافن الأولياء والصالحين، ليكونوا ضيوفا عليهم، يشفعون لهم، أو ينالون من بركتهم ونور أرواحهم في دار البرزخ. وإذا كان شأنه عائدا للأوائل الأقدمين، فلماذا آثار أقدام الزوار بحافتي هذا الضريح الغريب؟!

ولماذا الأخشاب مكدسة على طوله تجديدا له حتى لا تطمسه عواصف الرمال؟! إن له لشأنا، وإن حول أخشابه لحكاية نجهلها.

هكذا كان يفكر المشاهدون البداة، المارون مرورهم الأول وهم يرون أكداس الخشب المستطيلة فوق التراب المسنم، مرسلين العنان لمخيلاتهم الخصبة.

ولكن ماذا كانت تقول المرأة المختبئة بين شجيرات طلح ملتفة حول بعضها البعض؟ «رباه! هذي أنا وهذا..! يا الله..؟» وهمت بالنهوض والسير إلى ناحية الضريح، وشاهدت رعاة الإبل والأغنام القادمين من أحياء قريبة، حاملين الأخشاب متجهين إلى المكان، فعادت إلى مخبئها وهي ترتجف خوفا وخجلا!

وضع كل واحد ما جلب من خشب وأخذ قبضة من تراب القبر، وراح يمررها ويحككها على وجهه وبطنه تبركا منها..!

- 2 -

في الزمن الموريتاني القديم جدا بالنظر إلى مدى اختلاف ظروف حياة أهله عن عادات وظروف حياتنا نحن أبناء اليوم، والقريب جدا بالنظر إلى درجة ابتعاده في الماضي، وهو العقدان الرابع والخامس من القرن التاسع عشر ميلادي؛ شاءت الأقدار أن تتواجد ثلاثة أحياء بدوية في أماكن متقاربة، يجمعها حلف تاريخي قائم على مصالح غير متوازنة.

وكان الزمن صيفا، ولا يفصل أحد الأحياء عن الآخرين أكثر من مسافة يقطعها راكب الجمل خلال أربع ساعات.

وأول تلك الأحياء من قبيلة أولاد اسويلم: حسانيون محاربون أشداء، كسبهم من المواشي قليل. إلا أنهم مسلحون بالبنادق ولديهم بعض الخيول المسومة العربية العتيقة. أما الحي الثاني فقبيلة أولاد عبد الرحمن: عشيرة زوايا من قبائل العلم المتخصصة أصلا في تدريسه والعمل بمقتضاه، مجردة من السلاح، ولكن لديها مواش كثيرة. والثالثة حي قبيلة أولاد احميدان: زناقة عزل تقريبا من السلاح والعلم. ولكن مواشيهم أكثر من حيوانات الحيين الآخرين مجتمعين. على أن في أموالهم حقا لأولاد اسويلم أهل السلاح والسلطة، وآخر لأولاد عبد الرحمن بحكم النفوذ الثقافي الروحي. وكانت رياح السموم الصيفية التي توافق

طلوع نجم الدبران والمعروفة بـ "ردم النجوم"، تهب من الشمال بحرارتها الخارقة المألوفة. وقد توقفت فجأة منذ يومين عن أرض (الرقيطة) حيث تتجاور الأحياء الثلاثة، بين منطقتي (تقانت) و(آدرار).

وتجمع لفيف من رجال أولاد احميدان، في ليلة مقمرة، أمام إحدى خيامهم الصغيرة، تحيطها مئات من الإبل والأغنام العجاف، مستلقين على ظهورهم أو مضجعين، متمرفقين، متعبين كحيواناتهم التي يكلف رعيها وحفظها في فصل الصيف مجهودا فوق العادة.

وقال أحدهم وهم ساهرون:

- يبدو أن أمطار الخريف ستنزل هذا العام في وقت مبكر!

- كيف عرفت ذلك؟! أأصبحت عرافا أنت الآخر؟! أم وليا؟! لم نسمع قط بزناقي "ولي"!

- لست عرافا ولا أدعي الولاية و...

- ولكن ما هذه البشارة التي أردت أن تحملها إلينا يا ديلول؟! سماك الناس على ديلول الحكيم! ولا أخالك مثله...

- نعم... ولكنها تجارب أجدادنا، أخذناها عنهم وأرتنا تجارب الحياة صدقها.

- لا مانع. ولكن... المهم أن تقول لنا بماذا تستدل على سرعة نزول الأمطار هذا العام كما تدعي؟ إن وقت الخريف لم يحن بعد، قبح الله وجهك!

- اخسأ! قبح الله وجهك أنت وقفاك. ألا تلاحظ أن "رياح القبلة" (الريح الجنوبية الغربية القادمة من جهة المحيط الأطلسي) هبت هذه السنة

بنداها البليل في وقت مبكر؟ وأرواح السموم الشمالية قد توقفت قبل إبان توقفها العام الماضي؟!

– صحيح. ولكنني أظن فقط أنك تفكر كثيرا في نوقك الكريمة العجاف، فتحلم وأنت فاتح عينيك!

هكذا تشاتم راعيان من رجال الحي، بوقاحة مألوفة بينهما وهما يتجادلان. وهذا لا يناقض روح المودة العميقة بينهما. بل إن العبارات البذيئة والكلمات النابئة تحتد بين المتكلمين في هذا الحي كلما كانت روح الصداقة بينهم أعمق، وشكليات التحفظ أبعد. وتتخلل حوارهما ضحكات مجعجعة، تطلقها محدودية همومهما النفسية ومرحهما، وتقيدها متاعبهما البدنية في أعمالهما اليومية.

وقاطع الرجلين المتحاورين رجل آخر يضطجع أمام خيمة مجاورة:

– آه! بشرى لك يا ديلول! إني أرى "بُريقا أعمش" يخفق في الشرق البعيد!

ونظر الجميع جهة الشرق فلم يروا شيئا مما ذكر المبشر وقالوا في وقت واحد:

– لا شيء يبدو هناك يا كذاب! وأردف أحدهم:

– كان الملعون نائما، واختلطت وساوسه في النوم وما سمع من كلامنا، فظن أنه يرى بروقا!

– والحقيقة أن ليس هناك غير نجوم النعائم تشع في صحو تام.

وعاد الكلام إلى الرجل الأول الذي كان يمازح ديلول ويشاتمه، ونادى بصوت مرتفع:

- يا فاطمة! يا عرافة! يا فاطمة!

- ياه..! يوه..! من الذي يناديني؟

- نريد أن نعرف رأيك في دعوى ديلول أن الأمطار ستنزل مبكرة؟

- روعت قلبي: ما هكذا يجب أن ينبه النائم!

- اسمحي لي يا مرابطتي. ما ظننتك نائمة، لأننا ما نزال في أول الليل!

وجلست المرأة الجسيمة وحيدة في خيمتها القريبة من تجمع الساهرين وفكرت مليا - محملقة بعينيها البارزتين إلى السماء من تحت طنب خيمتها - حريصة بقدر ما يساعدها الحظ، على أن تكون إجابتها مقنعة وصحيحة، وكلها أمل أن يزداد حسن ظن القوم بها. مع أنهم في المدة الأخيرة، لا يخلو بعض أفرادهم من السخرية منها والتندر بأقوالها. وربما نشأ ذلك بتحريض من ضيوف أولاد عبد الرحمن الناظرين إلى تلك "المتنبئة" الغريبة التي لا يعرف أحد شيئا عن أصلها وفرعها، بشيء من عدم الارتياح، بل السخط. خاصة أنها تطمح على ما يبدو من سلوكها في مشاركتهم في بسط النفوذ الروحي على أفراد أولاد احميدان السريعي التصديق لما يصدر من الزوايا بدون تمييز.

* * *

وتكلمت فاطمة العرافة بعد أن تأكدت أن السماء خالية من الغيوم والبروق، فقالت:

– ثلاثة أشياء، لا يعرفها إلا الله: الجنين في بطن أمه، هل هو ذكر أو أنثى؟ المطر متى سينزل؟ ومتى وأين سيموت الإنسان؟

– هل رأيت يا ديلول كيف يوضح جواب العرافة مدى جهلك؟!.. المطر... الخريف سيأتي هذا العام قبل أوانه! لعنك الله من ثرثار جاهل.

– نحن في الجهل سواء، إن لم تكن أجهل مني يا حمار النار... ها ها ها..!

– ولكن استمع إلى ما تقوله فاطمة العرافة.

– تابعي يا مرابطتنا.

– قلت كلامي وأجبتكم، ألا يكفي؟

– ... ولكن هل ضربت اليوم "قزانتك" على الرمل؟

وأضاف آخر:

– وهل رأيت من خلالها بشائر متعلقة بالمطر؟! إن قحط الصيف يرهقنا جدا؟

– فعلت ذلك بطلب من النساء كعادتي كل يوم. وما أشارت إليه "قزانتي" عكس ما قال ديلول...

– وماذا رأيت؟!

– رأيت ريحا دكناء ورديفا شرٍّ على مركوب أسود، في ليل حالك الظلام! وأمرت الناس بالتصدق و«الصدقة تدفح البلاء».

وذكر جميع المستمعين اسم الله، ونووا في نفوسهم دفع صدقات في الصباح القادم، إما بتقديمها إلى العرافة أو بإرسالها إلى بعض أسر أولاد عبد الرحمن.

وفيما استعاذ الجميع من شر ما ذكرت المرأة، وخفت روح المرح التي طبعت أحاديثهم، ترنم أحد الرجال مستلقيا على قفاه، بكلمات مألوفة لدى الرعاة في هذا الفصل من السنة: «إننا حقا مساكين مثل الضفادع التي نضب الماء من حولها فبقيت محشورة لا تدري متى تموت عطشا».
ثم رفع المترنم صوته ليسمعه الآخرون:

- قبل أعوام رأيت أولاد عبد الرحمن يحفرون غارا ضيقا حتى وازى عمقه طول الذراع، وقد حفظوا ترابه في وعاء، ثم ردوها إليه. ويقولون إن تراب الغار إذا ملأته أو فاضت عنه، كان هذا دليلا على كثرة ماء المطر، وإن لم يمتلئ رأوه دليلا على استقبال سنة جافة.

- وأنا حضرت لديهم كذلك مرة. ويسمون اليوم الذي يفعلون فيه هذا يوم العنصرة!

- وهل جربت يا فاطمة العرافة طريقة غار العنصرة هذا؟

- أبدا. وتبدو لي فكرته غير معقولة... اعلموا أن الغيوم الصيفية الخفيفة: "آمريق"، تسير شرقا إلى أن تصل بحول الله وقوته بحر النيل في مصر، فتشرب منه، ويسوقها الملائكة بعد ذلك إلى حيث يشاء الله أن تمطر! وأبدى الساهرون تعجبهم مما قالت العرافة، هازين رؤوسهم. وأحست ردة فعلهم، وتحمست للكلام، وتابعت:

- إن جدي الرابع كان رحمه الله وليا من إولياء الله أصحاب الخوارق. وحج بيت الله الحرام مرة، وفي طريق عودته رأى مزنا تشرب من النيل، وسأل إحداها عن اتجاهها، فأجابته إنها ذاهبة إلى أرض القبلة، قريبا من نهر السنغال، وركبها وسارت به حتى نزل منها، مع المطر، بين حقول أهله ومواشيهم!

وتكلم ديلول من جديد، وقد أحس خدر النعاس يسري في عينيه:

- وهم أيضا: أولاد عبد الرحمن عندما ينتصف شهر (أغشت) ولم تنزل أمطار الخريف، يدأبون على أداء صلاة الاستسقاء كل يوم.

- وأنتَ لماذا أصررت الليلة على أن تتمسك بزعمك القائل إن الغيث سيأتينا قبل إبانه؟!

- سمعنا فقط ممن سبقونا للحياة، يروون بدورهم عمن سبقوهم، أن الرياح الندية عندما تحمل الحصى - طاردة ريح الشمال، في فصل الصيف - دلائل المطر... وتجاربنا مع الحياة تبرر صدق دعواهم.

* * *

قارب الليل انتصافه، وشعر السامرون بالتعب، واستعدوا جميعا للخلود للراحة والنوم، وأصرت العرافة على أنها قرأت في "قزانتها"، أمارات أنّ العام لن يكون مخصبا، وإن كانت لا تميل في أحكامها إلى التحديد. وتفضل إصدار الأحكام العامة؛ تشير إليها تلميحا وتشغل المستمع بأشياء لها علاقة بالموضوع وليست هي جوهره. وأصر ديلول بدوره خلافا... على أن موعد الخريف قد حان وقته. وعلى غرة من أبناء الحي نادت امرأة من داخل إحدى الخيام:

- لا تناموا أيها الرجال! هناك بروق نوء في الشرق، وأخرى في الشمال، ويمطر غير بعيد منا!

جلس الجميع كل في خيمته. وقال السيد ديلول:

ـ البوارق الشرقية "الصلوانية" (في جهة الصلاة) تقوي أملي. أما الشمالية، ففي مزن تمطر حالا، بدليل أن بروقها لا تتخافق تخافق النوء المتمخض.

ـ وهل ترى أن النوء الشمالي ينزل بالفعل قريبا من هنا؟

ـ لا. إنه بعيد جدا. ربما ينزل الآن في شمال (لمرية) وهضاب (الحنك) و(آركشاش)؟...

ـ لا بد أنها أقرب من ذلك يا ديلول. هل توافق؟

ـ كيف أدعي قربها والبروق لا تضيء ظهور الجمال الباركة هنا؟

ـ حقا، ويقال قديما: «إن البروق إذا لمعت في نوء يهطل حالا، وأضاءت ظهور النوق الجاثمة في مكان آخر بعيد من موقع المطر، فإنها إذا سارت إليه بمحض إرادتها، تصل عين المكان بعد يوم كامل من السير».

* * *

واقترب البروق الصلوانية شيئا فشيئا، ونهض الجميع مستعدين لاستقبال النوء. وتعالت الصيحات:

ـ باعدوا بين ركائز الخيم، وشدوا أطنابها! ـ قربوا الفصلان والخرفان والجدي المهزولة التي لا تستطيع تحمل الماء البارد لضعفها! واحتد اللغط والهرج المصاحب لتحركات أبناء الحي في استعدادهم لنزول مطر مفاجئ. ونادى أحدهم منبها محذراً:

ـ خذوا حذركم! البروق تقترب مع الغيوم بسرعة مذهلة! ربما هناك عاصفة أو رياح قوية!

وما هي إلا لحظات حتى غطى الغمام الأسود كل الآفاق. وانهمرت المزن مدرارة بماء منبجس. ودوت منها الرعود والصواعق، وهدرت الرياح عاتية، وخطفت البوارق القريبة أبصار الناظرين خطفا.

قبعت الأسر في خيامها، وأمسك البعض بالركائز بما أوتي من قوة، مصارعا محاولا تثبيتها أمام الرياح التي تهزها هزا. وتعالى صياح الأغنام المفزعة، وسقط بعض الخيم. واستمع بعض القوم، والرعود تصك أذنيه إلى المرابطة فاطمة العرافة، تنادي وتصرخ. وقال بعضهم:

– ما لهذه الكهلة وكأنها العنز الجرباء أفزعها عويل الرياح وتساقط الماء البارد على جلدها؟!

– ... أن... يا قوم ... اذكروا الله يا ناس وتصدقوا..! تذكروا ما قلت لكم: «ريح دكناء ورديفا شر على مركوب أسود في ليل حالك السواد». اذكروا الله يا قوم وتصدقوا!

وعلق والد إحدى الأسر قابضا بيديه على ركيزة بيته الأمامية، في كفاح مستميت ضد الرياح، ولم يرفع صوته إذ لا يريد أن تسمع العرافة كلامه:

– ديلول هو العراف! أما أنتِ ف... لن نذكر الله ما دام المطر منسكبا. لقد رأينا أبناء الزوايا عند ما تكثر الأمطار، "يربطونها" عنهم، ويؤذنون: «الله أكبر! الله أكبر..!» لهدف إيقاف انسكاب الوبل، إن الغيث يصلح ما يفسده ويعوض ما يتلفه.

* * *

ومرت بقية الليل، والمطر يتضاعف انهماره، مع قصف الرعود، والعواصف مستمرة في هبوبها، مهددة بكنس كل ما يعترض سبيلها. وسقطت شحنتان من صاعقة انفجرت في غيوم دانية من الأرض على مكانين من الحي: أولاهما حيث تجثم إبل ديلول، والثانية على خيمة فاطمة العرافة. وعند الفجر الأول بدأت السماء تصحو بعد توقف المطر والرياح. وشوهد أبناء الحي الكبير يقفون أمام بيوتهم الممزقة وحيواناتهم المتعبة من المطر، يشعلون النيران قريبا منها لتستعيد حياتها بدفئها في انتظار نبات أعشاب الخريف الخضراء.

وعند طلوع الشمس تجمع حشد من الناس يقرب من ربع أبناء الحي، في موقع خيمة العرافة في مشهد مأساوي محزن حقا. وقالت السيدة سراحة بنت العوكاي زوجة ديلول:

– أه لها! مسكينة هذه المرابطة! كم يؤلم قلبي حالها! وسألها رجل قادم إلى المكان من طرف الحي الآخر:

– هل ما زالت حية؟

– لعلها! ربما معها بقية من حياتها!

– نعم. صدرها ما زال يعلو ويهبط. ولكنها تتنفس بصعوبة.

– هذه الصواعق كانت جبارة! لقد عاثت فسادا أيضا في إبلنا.

– تعنين إبل ديلول يا سراحة؟

– نعم.

– وكم أهلكت منها؟

– حوالي عشرة...

- خسارة! ولكنها :تحمل عنه البأس" .

- وهذه المسكينة لا مال عندها يتولى عنها البأس والمصائب!

- وقيل إنها باتت تنادي الناس آمرة لهم بالتصدق!

- أف للفقر! فليس لديها ما تتصدق به!

- هل تتذكرون البارحة: كيف شرحت لنا أن البروق والرعود ناشئة عن سياط الملائكة إذ يضربون بها المزن بعدما ترتوي من بحر النيل، ويسوقونها إلى حيث يشاء ربنا؟!

- لا . . . كنت نائمة وأيقظني كلامكم، ولكن لم أضبط منه شيئا.

- ولكن ديلول أقوى منها فراسة؟!

- لا أدري! إنما هي فقط بائسة، وغريبة عن وطنها وأهلها الذين لا يعرفهم أحد منا.

* * *

وبينما وقف ديلول قرب العرافة يروح على وجهها وصدرها المكشوفين برداء في يده، وامرأتان مرضعتان تتناوبان حلب اللبان من ثُدُيهما في فتحتي أنف المرأة المصعوقة في غيبوبة تامة؛ رأى القوم راكبا قادما إليهم من جهة الشمال الغربي، يسير بسرعة جنونية: مبلل الثياب، والماء يتقاطر من خصلات شعر رأسه الطويل، ويشير بيديه بحركات عصبية، مطلقا صراخا متواصلا:

- تجمعوا، بسرعة! تعالوا هنا جميعا، تجمعوا لأقول لكم! هيا لتسمعوا الأمر!

ونطق عدة أشخاص متعجبين مرتبكين:

– هذا راكب يطلق "نداء الخوف" يا لطيف الطف بعبادك الضعاف! وعقب ديلول – وجيه الزناقة وزعيمهم المحنك – قائلا:

– لن يكون ذلك إلا خيرا. بعد نزول المطر، يصبح كل شيء خيرا وبركة ورحمة. قال هذا ويداه مستمرتان في الترويح على وجه وصدر المرابطة الصريعة.

وتوقف الراكب القادم في ساحة قريبة من مكان خيمة العرافة وأبرك جمله. ونظر مشدوها إلى التجمع الهائل وسأل القريبين منه:

– ما هذا؟ خير إن شاء الله!

– مرابطتنا العرافة في سكرات موتها، بسبب صاعقة ضربتها!

– هاه! «مرابطتكم وصاعقة!» شيء ما نقص الدنيا. وذلك جزاء من يعصي الله! تعالوا جميعا يا أولاد احميدان، اقتربوا مني هنا.

– نعم ولكن ستبقى معها النساء؟

– إن شئتم. ولكن تعالوا جميعا. «الحقوق العامة مقدمة على الحقوق الخاصة». إن لدي أمرا هاما وخطيرا.

* * *

خطا ديلول خطوات بطيئة مطأطأً الرأس إلى حيث يتجه الآخرون للتحلق بالمنادي المستعجل. ورفع عينيه إلى الجمل البارك وتأمل سمة أولاد عبد الرحمن على الإبل، وعرف وجه الراكب الذي نزل واقفا

لاستقبال الناس. وأعاد ديلول نظرة إلى أسفل، وهو سائر فتأمل حصير العرافة متسخا تدوسه الأقدام المبللة وقطع خيمتها الممزقة، وشظايا الركيزتين اللتين انكسرتا وارتمى كل جزء منهما بعيدا عن الآخر. وفكر الراعي:

- صحيح فعلا ما يقال عن أبناء قبائل الزوايا، من أنهم أهل تحاقد فيما بينهم وكراهية للآخرين! يعلمون غيرهم الدين والعلم ويملأون الدنيا مواعظ. ورغم ذلك، لا يرق قلب هذا الزاوي إلى مثل هذه المخلوقة وفي حالة كحالها!

- ديلول...

- لبيك يا مرابطنا.

- هل صحيح أن النوق الميتة هنا من إبلك؟

- منها...

- حملت عنك البأس ولو كانت...

- حملته لله الحمد... والمطر يعوض دائما ما يتلف.

- لو كنت ...؟

- تعرف يا مرابطي أنني أزكي في العام والشهر والأسبوع وتعرف...

- الزكاة تطهر المال و...

- تطهره نعم. ولكن لماذا ناديتنا الآن؟ ألم تظهر العجلة والفزع وأنت قادم؟!

- صحيح والأمر مهم جدا... وإنما انتظرت تواجد الرجال، اسمع يا ديلول، واستمعوا إلي جميعا: إن جماعة مسجدنا أرسلتني إليكم؛ فقد

علمنا أن جيش العربان الذي مر شمالنا في الشهر الماضي غازيا إحدى القبائل في منطقة (إجبيتن) . . .

- يعني جيش السواكر؟

- لا . جيش العويسيات!

- لا تقاطعوا كلامي . ليست معرفة الانتماء القبلي لذلك الجيش أمرا مهما . المهم أن الجيش المذكور قد اشتبك مع أعدائه قبل أسبوعين في معارك ضارية . . .

- شبعت النسور والغربان والرخم وحق الله!

- ويتم أطفال و . . .

- استمعوا إلي أولاً . أناشدكم الله! فالقضية تتطلب الإسراع .

- وما هي إذن؟

- الحاصل أن تلك القوات الحسانية ينتظر مرورها من هنا في المستقبل القريب . وإذا كانت قد انتصرت وساقت غنائمها التي استولت عليها من أعدائها، فلا خطر فيها نخشاه . وأما إذا كانت منهزمة . . .

- آه . . ! فسيحاولون تعويض ما فاتهم من أموالنا نحن الزناقة، وربما أنتم الزوايا أيضا لن تسلموا منهم؟

- ويحتفظ أفراد ذلك الجيش بماء وجوههم أمام نسائهم وجيرانهم من القبائل المنافسة لهم في شرقي (تقانت) و(أفلة) و(الركيز)!

- بالضبط :! هذه هي المسألة . وعليه فيجب أن تخبروا اليوم، وفي أول هذا النهار عرباننا أولاد اسويلم وبأسرع وقت، ليعبئوا رجالهم ويحتاطوا لحمايتنا .

وأجاب ديلول:

– الأمر سهل. إذ بإمكان أي راكب منا الوصول إلى حي أولاد اسويلم في أقل من أربع ساعات ولكن...

– هل هناك مشكلة في إبلاغهم؟

– حسبما حدثنا قادمون من ناحيتهم البارحة، إنهم منهمكون في تجهيز رجالهم للغزو جنوبا، إلى شمال (اقان)، حيث توجد مضارب قبيلة أولاد اعميرة: أعدائهم الألداء الذين ساقَوْهم كأس الموت منذ ما يقارب مائة سنة.

وتكلم الرجل النذير منزعجا:

– لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم! هذا ما يؤكد ضرورة الإسراع، قبل أن ينفر جيشهم إلى الجنوب! ورد ديلول، وقد فكر فيما سيقول:

– أنا أتطوع بنفسي وأحد جمالي، وسأصل إلى خيام أولاد اسويلم في ثلاث ساعات على الأكثر إذا ركبت جملي "لغزيل"، بل إذا كان الجيش قد ذهب فبإمكاني اللحاق به هذا اليوم ليرى رئيسه بنفسه ماذا سيفعل أمام هذا الوضع الجديد الذي حدثتنا عنه.

– حسنا قلت يا ديلول! شدوا له رحله سريعا على الجمل الذي يريد الذهاب به.

– نعم حسن يا مرابطي. ولكن أطلب منك البقاء هنا مكاني طيلة اليوم وغدا، أو حتى أعود...

– لماذا أبقى عندكم؟

- لكي تجهز هذه المرابطة، في حالة وفاتها، وتشرف على غسلها وتكفينها والصلاة عليها ودفنها.

- ليس هذا بإمكاني على الإطلاق. لكنا سنموت: «الموت حق والله إنها لحق!» اذهب فقط يا ديلول. وإذا قضى الله ما قضى فليدبر الباقون هنا الأمر كما يعرفون.

ورفع رئيس الزناقة يده مشيرا إلى الحاضرين منهم، وعلى وجهه مظاهر الجد والانفعال:

- إنهم زناقة لا يعرفون أحكام الموتى ولا الأحياء، كما قلتم وتقولون على الدوام، لن أذهب إلا إذا قبلت شرطي.

- سأجد نفسي إذن مضطرا لقبول رأيك لأن ذهابك بالسرعة المطلوبة أمر فائق الأهمية. ولكن هل سأجد رجلا آخر...؟

- لماذا تريده؟

- ليسافر حالا إلى بعض رعاة مواشينا الموجودين على مسافة نصف يوم من هنا جهة الشرق، ليبلغهم أمرنا لهم بسوق المواشي إلى هنا أو بمجاورة حي أولاد اسويلم... وقاطعه أحدهم قائلا:

- موجود!

- نعم... ولكن... اتفقنا. ليذهب ديلول. سأبقى حتى يعود... انظروا هل ماتت المرأة؟ أم لا تزال على قيد الحياة؟! لله كم أتعبني هذا المطر المبارك إن شاء الله.

* * *

جلس الرجل وقد شعر بمرارة بالحكم عليه بالبقاء لدى أولاد احميدان على غير ما كان ينوي، إلا أنه أحس بالارتياح، وهو يشاهد ديلول الرجل الأبيض البشرة ذا القامة النحيفة الطويلة، يركب جمله "الغزيل" . وقد انطلق به إلى الجنوب انطلاق السهم أرسلته من قوسه كف نابل خبير. وتحرك جالسا ليقترب من نار موقدة تحيط بها عشرات الفصلان والجدي المقرورة والخرفان التي تحتت صوفها من الهزال. ثم نفض بمسواك في يده خصلات شعره، منزلا عنه الماء وهو يصطلي على النار. وبعد سويعة صمت واستمتاع بالدفء حدث نفسه كالحالم:

- ليت هذا الرسول وصل إلى أولاد اسويلم قبل ذهاب جيشهم! ليت رعاتنا سارعوا بمواشينا إلى هذه الناحية! ليت هذه الدجالة التي يسمونها عرافة ماتت وأراحتنا منها! إنها خطر على أتباعنا الزناقة، تريد الاستبداد بصدقاتهم وزكاتهم وهداياهم، مقابل شغلهم بالضرب على الرمل بأصابعها، والتحدث بأباطيل وأراجيف ما أنزل الله بها من سلطان... ولكن ديلول قد أصاب إذ رفض لي السفر من هنا اليوم! لو ماتت وشاع في الناس أنني كنت الزاوي الوحيد الذي حضر وفاتها ورفض تجهيز الجنازة لحقني وأهلي عار شنيع وفضيحة تبقى وصمة سوداء لقبيلتنا قرونا وقرونا..! يا لأهله إذ سموه على ديلول الحكيم! إن في رأيه لصوابا، والحمد لله على أنني وافقت عليه!

وتذكر الرجل صرة من تراب في طرف ردائه، كان قد أرسلها معه والده طالبنا ولد العتيق إلى ديلول. وهي مهمة لأنها منفوث فيها "حجاب" لدفع كل الأخطار والمخاوف. ومع الصرة وصية أن يذرذر ترابها، حول الحي كل ليلة ليحفظ الله أبناءه من كل مكروه.

وتابع الرجل تفكيره والناس منشغلون عنه لحالة العرافة، واستعادة تنظيم خيمهم:

- قد يعود ديلول في المساء فأقول له الوصية، وإلا فسأتركها مع الصرة عند زوجته... ولكن... ولكن إذا ماتت هذه المرأة الآن ماذا سأفعل بالضبط؟ إنني لم أدرس قط أحكام الجنائز وتجهيزها! إنني جاهل! لأن والدي لم يسمح لي بالتغرب لطب العلم! ولو ظهر لا قدر الله أنني أجهل بعض الأحكام... فليس هذا بلائق بسمعة أسرة أهل العتيق العريقة في العلم والمعرفة!

- 3 -

خيم الليل على سماء تلبدت بالغيوم. وتجمع لفيف من رجال أولاد عبد الرحمن في مسجدهم المتمثل في شجرة سرح طويلة، تسورها زريبة من الغصون المقتطعة، وتحيط به من كل النواحي خيام صوف الضأن الكبيرة السوداء.

وطلع البدر ليلة تمامه، أو بالأصح حاول الظهور فمنعته الغيوم، وأضفى عليها نورا باهتا، جعل الظلمة والنور ممتزجين في الأفق، بدرجة تجعل من الصعب نعته بإحدى الصفتين. وتربع السيد طالبنا ولد العتيق في جلسته وهو إمام المسجد في الغالب، والرئيس التقليدي للعشيرة: رجل في نهاية الخمسين من عمره، له وجه مدور ضارب إلى السمرة وعينان صغيرتان غير ثابتتي النظرات، خلافا لما تفرضه التقاليد على من يكون في منزلته، من وقار وهيبة ورزانة. ومعروف عنه أنه إذا سار أسرع الخطو بساقين يسمهما فجج واضح.

وكان قد لاحظ فور قدومه إلى المسجد أن أهله يتناقشون في موضوع فقهي. فقد احتج أحدهم على تداول الأحاديث التي لا تكتسي مواضيعها صبغة دينية خالصة، وزجر الآخرين قائلا:

- ﴿وأن المساجد لله...﴾ أتركوا أمور الدنيا وشأنها إن كنتم منتهين! حتى تعودوا إلى بيوتكم. هذا بيت الله وقد خصصه في شرعه الحكيم للعبادة والصلاة والذكر.

- بأي حق تحرمون علينا بحث شؤون عبيد الله المسلمين في بيته؟

- حديثكم مستثنى من ذلك، وخارج عن نطاقه. لا ناقة ولا جمل للإسلام في حروب بني حسان وانتصاراتهم وهزائمهم و... أستغفر الله العظيم!

- وهذا رأيي أنا أيضا. ولا يخفى عليكم أن بعض الفقهاء الأجلاء، طعنوا في إسلام بني حسان، أو بعضهم على الأقل.

- ولكنهم مسلمون كما هو معروف! تدبر معاني كلامك، وزنه قبل التلفظ به يا أخانا!

- وأولاد اسويلم ما رأيك فيهم؟

- نعم مسلمون. ربما لأنهم حلفاؤنا؟ هل هذا ما تريد الإشارة إليه؟ ليسوا في ذهني أبدا... هم ولا غيرهم. إنما أريد قول الحق كما أراه حقا.

- حلفاؤنا أو أعداؤنا ليس هذا محور الخلاف. كل بني حسان سيئون، ظلمة وشرسو الطباع...

- إن المساجد لله! حان وقت الصلاة يا جماعة! وعندها انضم الإمام طالبنا ولد العتيق إلى زحمة الجدال فقال:

- «من لم يهتم بأمور المسلمين فليس منهم»! ناقشوا كل شيء وابحثوا كل مسألة.

- الأمر كذلك. عين الصواب ما قاله طالبنا.

- لا وكلا... لنا نظر مغاير لما...

- لا بأس بما لديكم من نظرات تختلف عن رأيي. ولكن خذوا هذه الأمثلة، لعلها تحسم المشكلة، إذا سلمنا من التعصب؟

- قلها لنرى... إيه يا طالبنا...

- في الحروب التي تجري بين بني حسان؛ أليس انتصار أهل العدل منهم وهزيمة المتسلطين انتصارا ونفعا للمسلمين المسالمين الضعاف؟

- والعكس صحيح. لله درك! سبحان من ألهمك الحجة الناصعة!

- كلهم بلا عدل، نهابون، جاهليون... واستمع بدورك إلى هذه الأمثلة المغايرة لما جئت به...

* * *

وانقطع الجدل المحتد على حين غرة، إذ دخل المسجد شاب في الثالثة والعشرين من عمره، يخيل لمن يراه أن سنه تزيد على هذا بعشر سنوات. وانشدت أنظار الجالسين إلى القادم المهرول الذي يلبس دراعة متخرقة، ويفتح فمه بشكل دائم عن أسنان بارزة. ومع أنه لا يلبس سروالا، يبدو أنه غير مبال بما إذا كانت دراعته تستر أجزاء بدنه الداخلية أم تكشفها؟!

وقال أحد الجماعة:

- هذا حمدان المجذوب دخل عليكم أرض المسجد! وأضاف متمتما، وكان الجدل ما زال مرتفعا بالدرجة التي تمكنه من إخفاء بقية قوله عن أسماع الحاضرين وعن الإمام على الخصوص:

- اللهم اكفنا شره بما شئت، ولا تحرمنا من بركة جدوده! وأما هو وأبوه فأستغفر الله العظيم من ذنوبي ومن غيبتهما!

وقال آخر:

- انتبهوا: هل المجذوب يحمل قاذورات إلى المسجد كعادته؟

وسار المجذوب مسرعا يخترق الصفوف. وكلما دنا من بعض الرجال أفسحوا له الطريق، حتى وصل إلى الإمام طالبنا ولد العتيق وأمسك بيديه عارضي لحية الرجل الكثة، وقال وهو يلهث متعبا من الجري:

- اسمع يا أبي... طالبنا ها ها هي هي...! عائشة تريدك أن تأتي إلى خيمتنا سريعا، عندنا ضيوف جاؤوا الآن... ها ها هي هي! وتململ الإمام في جلسته. وصعد الدم مندفعا إلى رقبته ورأسه، بفعل الغضب والألم الناشئ عن شد سبلتي عارضيه. ودمعت عيناه وحملقتا يمنة ويسرة، ثم حرك جبهته إلى الوراء واضعا قبضته اليسرى على صدر الشاب، رافعا يده اليمنى مبسوطة إلى أعلى: - تاب! تاب! صفع الوالد ولده على خده الأيسر صفعتين قويتين متتاليتين. فتهاوى الأخير إلى الأرض، ثم نهض هاربا إلى خارج المسجد. وجعجع بأصوات غريبة، لا يدري إلا الله هل هي بكاء أم ضحك؟! أم أنها مزيج منهما؟ أم لا تعني شيئا بتاتا من لدن باعثها.

والذين عايشوا المجذوب حمدان وتضرروا من نزواته البلهاء زمنا طويلا لا يستطيعون التمييز بعد بين ضحكه وبكائه كلما جعجع حولهم بأصواته الغريبة: ها هي ها ها هي هي!

بل يأخذون بالتعجب، وربما التقزز منها ومن أسنان فكه العلوي الناتئة، بحيث يستحيل على شفتيه الانضمام عليها إن أرادتا ذلك!

* * *

وقال الإمام طالبنا، وهو يتبع ولده الواقف في طرف حظيرة المسجد:

- استمع يا حمدان! إذا لم تترك غيك وتعدل سلوكك سأردك للقيد. تذكر جيدا سلسلة الحديد، وجذع الشجرة في مربعنا السابق! هل نسيت؟

ورد الابن على أبيه:

- قالت لي زوجتك أن أناجيك بوصيتها في أذنك، وألاّ يسمعها غيرك. ولكن رفضت..! وضربتني على وجهي! ها ها ها هي هي هي هي..!

- سترى غدا في الصباح.

- إنني أعرف يا أبي أنها تريدك لشيء غير الضيوف... شيء لا يعرفه إلا أنتما! وأراد طالبنا اللحاق بالمجذوب لتأديبه، وفر هذا دائرا بزريبة المسجد. ورفع رأسه فوقها، وأطل على بعض الشيوخ الصامتين، يستغفرون الله بقلوبهم، وقال:

- أنتم أيضا تريدكم نساؤكم! عندكم ضيوف... ها ها هي هي هو هو هي..!

وهرول الإمام طالبنا جاريا إلى خارج المسجد محاولا إمساك المجذوب. إلا أنه سرعان ما نهض فجأة أحد الرجال تاليا عبارات إقامة الصلاة.

واستوت الصفوف. قصدوا بذلك سدل الستار على المهارشة والضجة التي أثارها دخول المجذوب إلى المسجد.

* * *

وعقب انتهاء الصلاة، رجع طالبنا إلى خيمته مهموما يحرق نفسه انفعال شديد، بل كان في قمة تعكر مزاجه، التي تعذبه وقتا طويلا كلما ثارت في نفسه التي حدثته وهو يمشي باتجاه بيته:

– يا لسوء حظي! «ليت أمي لم تلدني!» هذه المرأة اللامبالية البعيدة من الحكمة والذكاء والفراهة... وابنتها الغريبة على نفسي وروحي المزعجة لهما! والضيوف؟! يا إلهي كم سيكون عددهم؟ وبماذا سنملأ بطونهم الواسعة؟ ونحن في "الكَرَّة" الأخيرة من الصيف؟! ضروع الإبل شبه جافة، والمطر نزل منذ يومين فقط! الأغنام التي تعود ملكيتها لنا بعيدة! لن نستطيع إذن أن نذبح لهم شاة منها! وعندما تذكر الغنم خطر بباله سفر ولده العتيق قبل يومين، حين أرسله والسحاب ما زال يمطر، لإعلام أولاد احميدان بضرورة إشعار أولاد اسويلم بخطر الجيش المنتظر قدومه من الغرب. وأحس الرجل جزعا في نفسه، وقلقا على ابنه العزيز الذي يأمل شغله لمنصب رئيس القبيلة مستقبلا: – لماذا تأخرت عودته إلينا؟ ولا خبر قد سمع عنه! فلتحفظه يا ربنا من كل مكروه.

ووصل طالبنا ولد العتيق قُدَّام خيمته وجلس مواصلا حديثه الذاتي المتوتر ممسكا صدغيه.

ونادته عائشة من الداخل:

– هل ذاك أنت يا طالبنا؟ فتصامم عمدا ولم يجبها. سيما أن صوتها ذكره بالحادثة التي جرت له في المسجد مع المجذوب حمدان. وزاد غضبه غليانا، خاصة ضد جماعة المسجد. وواصل مفكرا:

– آه! انتهزوا فرصة شجاري مع هذا المعتوه الذي ابتلاني به الله، ليقيموا الصلاة خلف إمام غيري! إنهم أهل حقد وحسد! وحك إحدى راحتيه بالأخرى، متشنج الأصابع:

– يا لهم من حقودين سود القلوب! أو كلما وجدوا أضعف عذر وذريعة أسندوا الإمامة لغيري؟! ويصرون باستمرار على التلميح إليَّ والإشارة إلى أنني لست عالما! بيد أنهم ليسوا أحسن مني حظا... كل أبناء هذه القبيلة هجروا العلم والتعلم منذ أمد بعيد، مؤثرين التجوال بمواشيهم إلى حيث المنتجعات الخصبة، الفرق الوحيد بيني وهؤلاء الحقودين، أن جدودي كانوا كلهم علماء وأصحاب "محضرة" علمية عريقة. بينما كان أجداد أولئك الأنذال الغيورين تلامذة لنا صاغرا عن كابر! وكنا أهل الرئاسة وما زلنا... يا إلهي إنك قادر على حفظ العتيق: ولدي البار! وأنت أدرى بمدى حاجة أسرتنا إلى سلامته وتوفيقه لما فيه رشادنا!

وكررت الزوجة عائشة نداءها للمرة الخامسة، بصوت منخفض حسب ما تفرض التقاليد على نساء الزوايا في الظروف العادية:

– طالبنا يا أنت! ألم تسمع ندائي لك؟!

– نعم! نعم! يا عائشتنا! ماذا؟ سمعتك! قولي ما تريدين قوله...

– الضيوف يا أخانا!

– أين يوجدون؟ وكم عددهم؟ ولماذا أرسلت إليَّ هذا الأحمق في المسجد؟!

– لم أجد سواه... الضيوف أربعة...

- وأين هم؟

- خفض صوتك حتى لا يسمعوا كلامنا عنهم.

وهدأ الرجل المنفعل نبرة كلامه، مخاطبا زوجته سائلا لها:

- أين يوجدون الآن، وهل حلب العبيد النوق؟

- أبرك الضيوف جمالهم أمام خيمتنا. وجلسوا سويعة حيث أنت الآن. وأمرت ميمونة والزهرة أن تبسطا لهم حصيرا في خيمة العبيد احتياطا لنزول المطر.

- حسنا. وهل...؟

- نعم النوق حلبت، ومجمل لبنها مغطى أمامك في الجفنة التي ترى هنا.

ورفع طالبنا الغطاء عن اللبن وسأل عائشة:

- وما هذه الجفان الأخرى؟

- إنها أقداح "التوالة"[1] بعثت بها إلينا الأسر التي يأتي دورها الليلة في تحمل عبء الأضياف.

- حسنا فعلوا! ربما لن يتعشى أفراد تلك الأسر في هذه الليلة. هذا لبن كثير! سنعشي الضيوف، ويبقى ما يكفي عيالنا وعبيدنا.

- الضيوف مقدمون على غيرهم... بعد أسبوعين ستنبت أعشاب الخريف ويعم الخير...

---

1 - التوالة: نظام للضيافة اتبعته بعض قبائل الزوايا. يقضي بأن تقدم كل أسرة قرى لضيف أو أكثر، بالدوران على جميع خيام الحي، بغض النظر عن المكان الذي نزل عنده الضيوف من الحي. لا يطبق هذا النظام على الضيوف الذين هم من نفس القبيلة، أو لهم بالحي المضيف صلات أو معرفة خاصة لبعض أفراده.

– حقا. ولكن أرى أن عليَ الآن الذهاب إليهم أولاً، لتبادل التحايا، والسؤال عن أسماء قبائلهم، والتأدب معهم قبل أن نحمل إليهم عشاءهم؟

– وهذا أكمل يا أخي بدون شك.

* * *

وسلم طالبنا على ضيوفه، المضطجعين على حصير في خيمة العبيد، وغمر أسماعهم بعبارات الأريحية السمحاء، والترحيب الحار. وأثنى ثناء عطرا على القبيلة التي ادعوا الانتساب إليها، وهي عشيرة زوايا تسكن أرض (تيرس)، كما قالوا إنهم من منشدى ضوال الإبل.

وبعد أداء التحية وتعاطي أخبار التعارف، عاد الرجل إلى خيمته مناديا بعض عبيده لمساعدته في حمل أقداح اللبن الكبيرة إلى الضيوف.

وفي نفس اللحظة كان رجل من الحي يحمل سوطا في يده، ويطارد المجذوب مطاردة عنيفة، وكلما اقترب منه جلده بالسوط. وقطع الاثنان طنب بعض الخيام، وأجفلا قطعان الإبل الجاثمة، ومرا من بيت إلى بيت، ومن مراح إلى مراح.

وفي النهاية التجأ المجذوب إلى خيمة أبيه، أو ألجأته المطاردة إلى المرور بداخلها، وكنست رجلاه الهوجاوان جفان اللبن كلها، وانكفأت متناثرة حول الركيزة الأمامية. وسال اللبن بلونه الناصع فوق الرمل المطير، أمام الخيمة، في مواجهة بدر باهت، يضفي على الغيوم لونا شبيها بالصبغ

الذي تركه اللبن على الرمل الأصفر.

وتنبهت من النوم الفتاتان الرائعتان: ميمونة والزهرة، مفزعتين تسألان عما حدث. وأصغتا إلى وقع أقدام الطريد وغريمه غرب المكان تبتعدان عنهما.

وأما الوالدة عائشة فقالت في أسف عميق، مفكرة في الضيوف:

ـ ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن! لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم!

- 4 -

تجاورت بين التلال والسهول خيام العربان المهيبة. تلمع فيها البنادق البارودية القديمة، ذات المأسورات الطويلة، والبرود المخططة المستجلبة من بلاد السودان الغربي. وحول كل خيمة تراءت هوادج النساء معرضة للشمس بعد توقف المطر، تعلوها مختلف الأغطية المزركشة بالألوان المختلفة، ويكلل أسفلها المَلْف الأحمر ذو اللون المثير الأخاذ.

كان الوقت ضحى والنفوس مرتاحة للغيث العميم، الذي نزل مبكرا. وفي وسط الحي دمدمت الطبول بضربات متقطعة، وبجانبها بعض الشبان على ظهور خيول تراض وتجري شاردة بأعنتها وركابها هنا وهناك، طالقة في الهواء حمحمات متواصلة، تختلط في الأسماع بطبطبة الطبول، وصخب أطفال الحي اللاعبين المخضخضين في أضاة صغيرة في طرف الخيام.

* * *

سمع ديلول أول ما سمع ضربات الطبل الكبير، وهو قادم من بعيد، لم تظهر له بعد خيام الحي، وجذب زمام جمله "الغزيل" إليه، مهدئا سرعته. فمنذ غادر حيه قبل ساعتين والجمل يسابق الريح، وصاحبه يضربه

من حين لحين حذو كتفيه. واستمع الراكب إلى ضربات الطبل من جديد وأخذ يعدها على أصابع يده. إذ من المعروف لدى الجميع أن طبول الأحياء الحسانية لها لغات اصطلاحية تتفق كل قبيلة على صيغة منها لها. وهذا ما جعل منها على مر العصور أداة إعلامية فعالة. فلكل من حالات الخوف والتعبئة، والغزو وعودة الجيش، والرحيل والنزول، والفرح، أو فقد شخص أو دابة وغير ذا، ضربات معدودة تختلف عن غيرها.

وقال ديلول مفكرا: إن الطبل الكبير - وكان لم يسمع بعد أصوات الطبول الصغيرة - يضرب لمناسبة فرح! معنى ذلك أن الجيش لم يذهب بعد؟ أو ذهب بالفعل وإنما هنالك حادثة سارة استدعت تنظيم فرح في "الحلة". وهوى بالسوط على كتف "الغزيل" الأيمن، فاشتبكت أرجله الأربعة من شدة الجري. وبعد ساعة واحدة وقف به أمام خيمة رئيس أولاد اسويلم. وقفز من فوقه قبل أن يبركه، واتجه إلى حيث يوجد زعيم القبيلة!

- السلام عليكم أيها المغافرة!

- وعليك السلام يا ثور الزناقة؟ هكذا رد بوبكر ولد عثمان مبتسما قليلا. وضحك ديلول، وهو يتدبر في ذهنه بعمق المعنى المزدوج للكلمة والنعت الذي وصفه به رئيسه: فهي في مدلولها الظاهري المقصود في هذه اللحظة مزاح، أو نوع من التقريب والتودد للمخاطب القادم. وفي مغزاها الباطني اللامقصود في هذا الحين: حقيقة راسخة وتصنيف ثابت في ذهن رجل حساني أصيل، سلطوي يحتقر الزناقة ويراهم مجرد حيوانات ناطقة، ومصدرا للحلائب والذبائح والصوف...

- ما هذه الأفراح؟ هل لديكم اليوم حفلة زواج؟

- ربما...

- لكأنني جئت "صائلا" لحضور الولائم والألعاب!

- وفي هذه الحالة يجدر بك أن تصطحب معك ناقة سمينة تهديها إلينا لننحرها اليوم.

- لقد نحرت الصواعق من إبلي حتى ثلت سكاكينها! وبعض شبانكم أيضا نحروا جملا لي قبل أسبوعين. كنت أتمنى لو استشاروني فيكون هدية لا...

- كم قتلت الصواعق من إبلك؟

- عشرة.

- من مئتين..! لا شيء! والجمل الذي نحره الشبان، هل تأسف عليه؟!

- لا... ولكن...

- آخ..! ولكن قبل أن تفتح فمك مرة أخرى: هل تنسى أو تتناسى أنهم كانوا عائدين من غارة شنوها للدفاع عن أموالكم يا لؤماء! دماؤنا أثمن من دماء جمالكم، ولكم أرقناها دفاعا عنكم وعن مواشيكم!

- دماؤكم أثمن طبعا ولكن...

- اسكت يا ديلول. قل لي فقط لماذا جئت الآن؟ وماذا وراءك من الأخبار؟

- هناك احتمال قدوم جيش من أهالي شرقي (تقانت)، كان يغزو أعداءه إلى الغرب. وينتظر الآن أن...

- من أنبأك هذا الخبر؟

- العتيق ولد طالبنا ولد العتيق: جاءنا صباح اليوم بعد توقف المطر مباشرة، ينادي نداء الخوف، زائغ العينين، يقطر ماء وقال لنا...

فكر الرئيس وحك إحدى راحيته بالأخرى على مهل، وقطب حاجبيه: ويلي من هذه المتزاحمات! النساء والشبان مصرون على أن ننظم اليوم وغدا حفلة "حلق القرن"[2] لولدي: شكرود الذي تجاوز العشرين من عمره! وجماعة القبيلة مصرة على أن نغزو أعداءنا: أولاد اعميرة. وذلك هو عين الصواب، لأننا إذا لم نغزهم قبل الخريف غزونا. ويجب إقناعهم أننا مستعدون للقتال مهما طال أمده. وهؤلاء الزوايا والزناقة يريدون تأمين الحماية لهم من جيش غريب، لا يعرف أحد بعد، ما إذا كان سيعتدي عليهم أم لا؟!

* * *

وجه ديلول نظرة دهاء وفطنة إلى وجه الرئيس، محاولا قراءة أفكاره من عينيه المحمرتين الناظرتين بثبات أمامه، يراقب بهما كل ما يدور حوله، حتى لا يعرف الآخرون أنه مشغول بالتفكير في مشكلة معقدة، يبحث عن حل لها ومخرج لنفسه منها. ورد الزناقي طرفه إلى أسفل إذ تلاقى مع نظرات الرئيس فوقع على يدي الرجل الخاليتين من الأصابع تماما، باستثناء خنصر اليسرى وسبابة اليد اليمنى مبتورة. وهذا كل ما أسأر له الرصاص

2 - حلق القرن: عادة عرفت قديما عند القبائل الحسانية، وفي بعض قبائل الزوايا أيضا: وتتمثل في تنظيم احتفالات يعظم شأنها أو يصغر تبعا لمكانة الأسرة الاجتماعية في أهلها. ووقتها عندما يبلغ الولد سن الرشد، وتحلق خصلة الشعر "القرن" التي كانت متروكة في أعلى شق رأسه، وكان شعر الرأس يحلق من حولها، وتبقى على عنق الولد. وتلك مناسبة ورمز لدخول الولد عالم الرجولة.

بعد المعارك الطويلة وحالات "غدرات" البنادق، من أصابع. لقد زاد الآن على الستين من عمره، وأنفق أزيد من أربعين سنة منها في الحروب. يروى عنه أنه قال يوما: «لا حاجة لي في الأصابع، تكفيني بقية سبابتي لسحب زناد بندقيتي» وقبل شهر واحد تمكن بشجاعته النادرة من صد غارة شعواء شنها أولاد اعميرة، وفقد فيها توأمه العزيز: الفائز ولد عثمان، فارس قومه المغوار، كما قُتل في نفس المعركة ولدُه الخامس من أولاده الذين ماتوا في الحرب التي قادها بجدارة لصالح قبيلته في كثير من الوقائع. ويحكى عن زوجة بوبكر هذا أنها لما علمت بمصرع فقيدها الأخير قالت: «أحمدك ربي على كونه لم يمت موت الحمير مضطجعا في خيمة أهله واضعا رأسه على الوسادة، فيكون جيفة!»

* * *

وتذكر ديلول الابن الوحيد: شكرود وهو الأصغر الذي شاهده في نفس الوقت يركب جوادا جامحا، يحاول ترويضه. وارتفعت زغاريد النساء في خيمة قريبة من الشاب والجواد. لفت المنظر انتباه ديلول. ثم رأى عبيدا يذبحون شياها من الغنم، وينحرون ناقة عظيمة السنام. وأحس رغبة في نفسه للاقتراب من الناقة المنحورة ليرى سمتها قبل سلخ جلدها، وليعرف ما إذا كانت من إبل عشيرة أولاد احميدان؟ ولكن الرئيس قطع أفكار ضيفه إذ قال:

– اسمع يا ديلول!

– نعم يا بوبكر!

ـ سأطلب منك القيام بمهمة مستعجلة.

ـ حاضر.

ـ قيدت جملك أو أطلقته؟ لا ها هو...

ـ نعم هو جاثم هناك وما زال مشدودا عليه رحله.

ـ طيب سأقول لك المهمة.

نظر ديلول مرة ثانية إلى وجه محدثه الصارم، ذي الأنف الأقنى، وإلى ساعديه الغليظين المكسوين بالشعر الأشيب، وفهم أنه وضع خطة ما، وأن منها ما يتعلق إنجازه بديلول نفسه وجمله.

وتابع الرئيس:

ـ اذهب حالا إلى أهلك، وإلى أولاد عبد الرحمن بعد ذلك. وبلغهم جميعا أمري لهم بالرحيل في أسرع وقت ولينزلوا قريبا من هنا. نحن اليوم منشغلون بهذه الحفلة. وغدا لا أدري... ماذا سيقع؟ على كل حال ستبقى هنا حامية من رجالنا.

ـ تعني أنكم ستغزون إلى جهة الجنوب؟

ـ ممكن ولكن ذلك أمر لا يعنيك... الجيش الذي تنتظرون مروره من تلك الناحية من أهل (تقانت) أو شرقها، لا يهمنا شأنه. كل قبائل تلك الجهة أصدقاء لنا. أو على الأقل لا حزازة ولا بغضاء بيننا معهم. ولن يمسوكم بسوء ـ لو قرروا ذلك ـ ما دمتم في حرمنا، لا أنتم ولا طلبتنا.

* * *

نهض ديلول مودعا، يسير ناحية جمله، فيما لعلع الرصاص وانفجارات البارود، وتضاعفت الزغاريد، والراقصون بالبنادق يناورون ويتضاربون تضاربا شكليا. وطبطبت الطبول من جديد في وقت واحد، تصحبها أناشيد "فاقو" الحماسية، يوقعها بعض المطربين:

«نحن أبناء الملوك والحرب قد نزل

لا بأس بالموت إذا حان الأجل!»

وتكلم ديلول قبل أن يركب جمله مخاطبا رجلين من الحي يقفان إزاءه:

– سأذهب إلى أهلي. وإذا كان العتيق ما زال هناك يتولى إبلاغ أهله، وإلا فسأذهب إليهم غدا، أنا أو أحد غيري من أولاد احميدان.

– الرئيس بوبكر أكد لك ضرورة الإسراع بالأمر، المهم أن لا تنسى ما قال لك، وأن ينفذ...

– سينفذ. أستودعكم الله.

– وأنت وديعته.

* * *

نظر بوبكر ولد عثمان وزوجته إلى ولدهما السادس الوحيد الذي ما زال على قيد الحياة، يناور ويجيد حركات الفروسية التي ورثها عن أجداده المغاوير: ينتصب على ظهر الفرس الشموس يمسك عنانه في يديه مع بندقيته. ويتنقل بجسمه، على جسم الجواد في تحركات بهلوانية

جريئة: من ظهره إلى كفله ومن كفله إلى بطنه ممسكا بعض حبال السرج. أو من جنبه الأيسر إلى الأيمن، أو ينضم ببطنه إلى تحت عنق الجواد وهكذا... وعجب أبناء الحي المتفرجين حين رأوه ينتزع إحدى رجليه من نعل السرج، مبقيا الأخرى عند كل حركة، ويطلق الرصاص كل ما غير وضعه. وفي الأخير قام بحركة مثيرة إذ التحم بجسمه المرن على بطن الفرس الجامح، تاركا إحدى رجليه مسمرة في مكانها، وأطلق الرصاص ورأسه قريب من الأضلاع الخلفية اليمنى للجواد، كأنما اتخذ من جسمه متراسا في حالة معركة واقعية! وراقبت السالمة حركات الشاب شكرود بعينين شبه ذاهلتين وخاطبت أباه:

- لولا الموت لحقق أبناء آدم متعة بوجودهم للأبناء!

ورد الأب مدركا ما جال في خواطرها من هواجس:

- ولكن لولا الموت لكان آدم نفسه وحواء جالسين الآن بيننا! ولضاقت الأرض بما رحبت وتعفنت من كثرة الخلق!

- عين الصواب! سمعت مرة بعض أبناء قبائل الزوايا يقولون: «إن الموت مظهر من مظاهر لطف الله بعباده!»

- لا داعي لتصديق أقوال الطلبة الزوايا عن الموت! فهم لا يعرفونها في الغالب ألا طبيعية، ويخافونها أشد الخوف، ولو قالوا إنها لطف ورحمة من الله! يا لها من رحمة..!

- مساكين! يقولون كل ما يريدون، ولا يفكرون في مدلول أقوالهم! وهكذا الطلبة الدراويش!

- بل هم حمقاء، ضعيفو الفهم لما سوى مسائل العلم والدين.

وتذكرت السالمة، طلبتها أولاد عبد الرحمن، وما تناقلته الألسن وتداولته منذ سنة منْ اعتزام ولدها شكرود الزواج - بعد حلق قرنه - بالزهرة بنت طالبنا ولد العتيق...

- ما رأيك يا بوبكر في زواج ولدنا ببنت زاوية؟!

- لا مانع عندي من ذلك. عمره الآن يكاد يزيد على العشرين. ولا أريد أن أكبت فيه أية رغبة من رغباته، فذلك يضعف عزائم الشباب...

- الناس متواترون على أن تلك الفتاة هي أجمل بنات الدنيا! وكذلك أختها من الأم ميمونة، إن لم تكن الثانية أروع منها! ولكنهما ليستا أحسن صورة من بنت أخيك منمانة بنت الفائز التي شاركت أنا شخصيا في تسمينها وإعدادها لتكون زوجة لابني شكرود!

- ليس المهم جمال هذه ولا تلك. المهم والمقدم رغبة الفتى نفسه.

- ألا تخشى مثلي يا بوبكر أن ينجب أبناء يتربون في حضن مرابطة، فتأتي طباعهم ودماؤهم باردة كأخوالهم؟!

- صحيح أنه ليس من المألوف تزوج العربي الحساني بزاوية. والعكس هو المعروف. وقد رأينا رجالا من الزوايا لهم خؤولة حسانية، فاقوا أبناء عمهم علما ودينا ومروءة، واختصوا عنهم بالرجولة والحيوية، وأما زواج الحساني بالزاوية فلم يكن قط مرغوبا فيه و...

- وهذا يا ابن عمي ما ينبغي أن ينفرنا من هذا الزواج الذي فكر فيه شاب غرير في أمور الحياة، يجب أن ننصحه ونقنعه بالإقلاع عن تلك الفكرة...

- لا وكلا... يكفي يا ابنة عمي! لن نكبت تطلعات شكرود.

لندعه يفكر ويقرر بنفسه، ويدخل تجارب الحياة رجلا مستقلا. «المرأة على دين زوجها» وطبعه أيضا.

- لن أرجع لهذا الموضوع ما دام طرقه لا يروق لك.

- يكفي! يا سالمة. أنا أيضا أحب منمانة بنت أخي. ولكن الأهم من كل شيء ألا يشعر ابني بالإهانة أو التقييد من الخارج، وهو في بداية مسيرة حياته كفارس نعلق عليه آمالا كبيرة. هل تفهمين ما أردت..؟

- نعم أفهم.

- يكفي إذن.

* * *

قبلت المرأة زجر زوجها لها، وغيرت مجرى الحديث سائلة إياه:

- هل تنوي الذهاب بشكرود معك غدا، على رأس جيشنا النافر إلى (آقان)؟

- لا. خطتي لا تقضي بذلك... سأتركه هنا على رأس الحامية التي ستخلفنا في "الحلة" مكونة من عشرين رجلا، قصد حماية الأحياء الثلاثة التي ستتجاور في هذا الحريم، قبل عودة الجيش من غزوه جنوبا.

- وهذا أقرب لسلامته يا بوبكر! طبعا إذا لم يفرض عليه القتال والدخول في معركة يخوضها - على قلة تجاربه - ورجاله لا يتجاوزون العشرين..!

- لا تقلقي يا سالمة - كالزوايا والزناقة - من خطر الجيش المنتظر مروره من هذه الناحية، فاحتمال قيام معركة ضده ضعيف جدًا، بل لن تقوم إطلاقا. إنه من عربان "تقانت"، ولا وجود لأي عداء بيننا معهم.

- ولكن إذا كان جيشهم منهزما وجائعا وخارجا من مطاردات عنيفة: أخشى أن... أو أن يرفض شكرود ضيافة مسلحين، يبدون رغبة في الاعتداء!

- شكرود لن يخالف أوامري وتوجيهاتي له. لقد اتفقت معه منذ كان طفلا على ألأ أكبح له رغبة من رغباته، ولا نزعة من تطلعاته، وألا يخالف هو آرائي واقتراحاتي العملية.

- ولكن هذا الجيش.. إنني أفضل أن تذهب بابنك معك، وأن تترك على رأس الحامية رجلا سواه..!

- هذا الجيش المنتظر لا يستحق أمره كلاما زائدا على ما قلت. إما أن يكون منتصرا غانما، أو منهزما؛ وفي الإحتمال الأخير يجب أن يستضاف من أموال الزناقة: أولاد احميدان، أو يترك لقبيلة أولاد عبد الرحمن شأن مداراته فقط...

- وإذا..؟

- وإذا فرض القتال على شكرود فليقاتل. وخير له أن يحقق بطولات مرموقة في عام حلق قرنه، فتحسن سمعته بين القبائل. نحن عرب حسانيون وما هابنا الناس إلا لأننا نفضل شرفنا على حياتنا. يكفي.

* * *

وأدار الرئيس وزوجته وجهيهما إلى حيث يقوم ولدهما شكرود بعملية فروسية مدهشة توج بها تدريباته الرائعة. فقد ركب الشاب فرسا لأسرته تسمى "الدهيمة"، سبق أن مات على ظهرها في ساحات القتال ثلاثة من أشقائه المفقودين في المعارك الماضية. وما في خيول الحي الأخرى فرس تشبهها، أو تقرب منها حسنا، أو تستطيع اللحاق بها إذا جرت. وسار شكرود بالدهيمة بعيدا عن الحي، إلى نهاية الشوط الذي أراد أن يجريها فيه، على مسافة ميل. ووضعت أمامه ثلاثة أشياء في طريق شأوه:

أولها: محلاب إبل على مسافة مائتي ذراع من الحي قريبا من نهاية الشوط.

وثانيها: خروف صغير مكتوف الذراعين جاثم في وسط الشأو.

وثالثها: شكوة مليئة بالماء قريبة من بداية الشوط. والمراد من وضع هذه الأشياء في الشوط أن يحاول الفتى التقاطها بيديه، بدون إيقاف للفرس وهي تعدو، أو تهدئة لسرعتها.

وأطلق شكرود عنانها للدهيمة، وزجرها عائدة إلى الحي سابحة في جريها كالغزال المفزع. على أنه نجح في جمع الأشياء الثلاثة، في طريق العودة، ولم يجذب قيد أنملة عنان الفرس، حال أخذه لتلك الأشياء.

يستدل من هذا على استقامة الفرس في شأوها أثناء جريها إلى نهايته، وعلى اقتراب بطنها من الأرض، أكثر فأكثر، كلما تضاعف عدوها، وأخيرا على أن الفتى ماهر وذو مواهب فروسية نادرة!

وابتسم الشيخ بوبكر ولد عثمان عن أنيابه، وتغضن خداه المهيبان. وقال:

- لقد التقط كل الأشياء والفرس تجري بأقصى سرعتها! والله إنه لابن أبي وجدي!

ودوت طلقات البارود بشكل مكثف والزغاريد وأناشيد "فاقو" الحماسية. وهنا بدأت نهاية الحفل تقترب، في يومه الأول. وظهرت في غربي "الحلة" حركة أخرى: فقد أصدر الرئيس أوامره بذهاب ركاب الإبل من جيشه، حالا، على أن تتبعهم الفرسان فجر اليوم القادم.

- 5 -

وكان ديلول قد عاد إلى حيه في مساء نفس اليوم، ولم يدرك عندهم العتيق ولد طالبنا ولد العتيق. وانشغل القادم في تنظيم وأداء مهامه المتشتته، كالعناية بضعاف حيواناته والنظر قدر المستطاع في الأمور العامة لقبيلته، خصوصا منها ما يتعلق بالتنمية وشروطها. ولم تقصر قريباته وزوجته في عون فاطمة العرافة وتعهدها بالقيام لها بكل ما تحتاجه، لا في غيابه ولا بعد حضوره. وقد أفاقت من صرعتها بعد يوم وليلة، ثم عادت إليها، وعاودتها مرات بعد ذلك متباعدة. وتعاونت نساء الحي على ترقيع وإعادة بناء خيمتها.

وفي صباح اليوم الثاني تذكر ديلول أنه لم يبلغ بعد وصية رئيس أولاد اسويلم إلى حي أولاد عبد الرحمن، كما لم يجد من ينوب عنه في القيام بتلك المهمة. وقرب جمله وشده بالرحل، وغادر أهله مسرعا. وبعد ساعتين لمح من بعيد أربعة ركاب جادين في السير يمرون أمامه، جانحين إلى جهة الجنوب الغربي، وثنى عنق جمله إلى اتجاههم وضربه، راغبا في سؤالهم عن ضوال إبله، والوقوف على حقيقتهم، بدافع من غريزة حب التطلع الراسخة في أذهان رجال البادية، لا سيما أصحاب النباهة والفطنة منهم.

– السلام عليكم أيها المباركون!

– وعليك السلام يا مبارك الطريق!

– من أين جئتم وأين أصبحتم اليوم؟

– نحن قادمون من الساحل: (تيرس) ننشد ضوال الإبل، وقضينا ليلة البارحة عند حي أولاد عبد الرحمن.

وفكر ديلول وكان قد دار بالركبان قبل أن يلقي عليهم السلام، ليرى سمة جمالهم، متظاهرا بأن سبب دورته بهم راجع إلى جموح جمله الذي لم يقف إلا بعد عناد لصاحبه الذي ضربه بقسوة آلمته ليؤدي به هذا الهدف عند ما عرج إلى جهة الركبان: – منشدون لضوال الإبل؟!.. قادمون من جهة تيرس؟!.. لماذا؟ يصعب على إذن تصديق هذه الدعوى! إن إبل تيرس والساحل عموما تشم رائحة أشجار وسباخ بلادها قبل بداية هذا الفصل من السنة، وتهاجر إليها "شائمة" مهما كان بعدها عنها. ثم إنهم رأوا راكبا مثلي ولم يبدوا رغبة في السؤال عن ضوالهم المزعومة!

– من أية قبيلة أنتم «قوم الله طريقنا وطريقكم»؟

وانتسب الرجال الأربعة – كما فعلوا عند أولاد عبد الرحمن – إلى قبيلة زوايا معروفة في أراضي الساحل البعيد. وفي هذا الحين سدد أسنهم بعينه اليسرى نظرة فاحصة – وبانت عينه اليمنى عوراء – إلى ديلول، وتقابلت مع عيني هذا الأخير المتطلع بدقة إلى كل ما أمامهما.

– ومن أية قبيلة أنت «بيض الله طريقك»؟

– يا إخوتي أنا من قبيلة أولاد عبد الرحمن. أو بالتحديد زناقي مؤجر لرعي مواشيهم.

- نعم القبيلة! تعبوا البارحة وغالوا في إكرامنا. ولن ننسى مروءتهم التي لفتت انتباهنا خاصة من بين جميع الأحياء الكثيرة التي زرناها في سفرنا الطويل وتجوالنا بعيدا عن ديارنا وذوينا!

* * *

ودع ديلول الركب، مواصلا تعجبه وتفكيره واستنتاجاته: - هذا الأعور..؟ الأعور..! رأيته يوما ما... متى؟ متى وأين؟ ولكنهم على أي حال كاذبون. إن السمة التي على أفخاذ جمالهم لقبيلة زوايا تسكن أرض (اقان). وتلك العشيرة زوايا حلفاء لأولاد اعميرة. حلت الكارثة علينا إن كان هذا الأعور والشبان المرافقون له جواسيس من أولاد اعميرة، وقوة استطلاع من جيشهم الذي لا يرسل مثل هذه العيون إلا إذا كان قريبا من هذه الناحية!

رجال أولاد اسويلم غزوا قبل يومين إلى (اقان) حلت الكارثة والدمار "وسرة أبي" إن هوجمنا في غياب المدافعين من رجال الحلة!

* * *

وعرضت للرجل فكرة تقضي بأن يرجع حالا إلى أهله ليرحلوا هاربين إلى الشمال، فالأرض أخصبت، وغدران الماء موجودة في كل مكان، لتأمين أنفسهم وأموالهم من خطر جيش أولاد اعميرة. ثم تذكر

الجيش المنتظر مروره قادما من الغرب عائدا إلى (تقانت) ووسوس له التلاقي به بعيدا من حرم أولاد اسويلم، كما أدرك وهو يقلب الأمر على مختلف أوجهه واحتمالاته الممكنة، أنهم لو هربوا وسلموا، فإن بوبكر ولد عثمان ورجاله المحتقرون للزناقة سيعتبرون ذلك التصرف خيانة لهم وغدرا بالعهود. وبالتالي سيدفع أولاد احميدان الثمن غاليا من غرامات وأشكال أخرى من العقاب المتعودين عليه من عربانهم.

* * *

وهكذا رجح الراكب نبذ فكرة الهروب بحيه، التي شغلت ذهنه بعض الوقت، وصمم بدلها على إبلاغ أولاد عبد الرحمن أوامر رئيس الحلة لهم بالرحيل إلى جوار حيه، ومن ثم يعود راجعا إلى أولاد اسويلم لإشعار الحامية التي تبقى عادة بعد الغزو في خيامهم، بشأن الركبان المشبوهين.

وعادت لرأس ديلول صورة الأعور المسن: - لا شك أنني أعرفه، ولكنني لم أتذكر بعد..! وفي الحال دخل خيام أولاد عبد الرحمن ووقف به الجمل أمام خيمة طالبنا ولد العتيق:

- السلام عليكم أيها الطلبة الأعزاء.

وأجابته عائشة التي كانت واقفة أمام خيمتها:

- وعليكم السلام ورحمة الله. أبرك جملك وتفضل عندنا.

- لن أبركه لأنني عائد حالا.

- خير أعجلك، إن شاء الله؟

ـ الخير... ولكن أين طالبنا ولد العتيق؟ واقترب رجال من الحي من الجمل لاستخبار ديلول عن سبب قدومه. وكانت عائشة مسترسلة في إجابة السؤال المتعلق بزوجها:

ـ ...لقد ذهب العتيق صباح اليوم مع أبيه يبحثان عن المجذوب حمدان الذي اختفى كعادته البارحة بعد أن طافته أزمة حادة من الأحوال التي تنتابه. وكثيرا ما بقي أياما متواصلة خارج الحي بدون أكل أو شراب! ويقول الرعاة إنهم يرونه يصلي ويتهجد تحت شجرة! وهكذا يفعل بعض أولياء الله الصالحين: يخفون أمرهم عن الناس ببعض التصرفات الطائشة في الظاهر! وانشغل ديلول عن المرأة بتداول الحديث مع الرجال الواقفين جنب جمله:

ـ ... نعم سنرحل إذن هذا المساء إلى حيث يشير الرئيس بوبكر ولد عثمان.

ـ نحن أيضا بدأنا الارتحال إلى هناك صباح اليوم.

ـ ولكن هل أنت جازم بأن ضيوفنا عيون استطلاع من أولاد اعميرة؟

ـ أكاد أجزم بذلك اعتمادا على الدلائل التي قلتها لكم.

قال هذا وأدار وجهه إلى حيث تقف عائشة، تتحدث بإسهاب عن المجذوب وأخيه ووالده:

ـ نعم أستمع إليك يا مرابطتي... وتابعت المرأة بصوت منخفض النبرات كما يفترض في سلوك نساء الزوايا:

ـ لقد أرهقنا المجذوب البارحة! وكدنا نقع في فضيحة أمام ضيوفنا، لولا أن عاد العتيق بحمد الله في منتصف الليل قادما من ناحيتكم...

- لم يكن عندنا أمس ولا قبل أمس! تركنا مساء يوم المطر!

- نعم كان مع رعاة أغنامنا.. ولما جاء بدأ البحث عن شاة غنم، فعثر عليها بعد جهد وذبحناها للضيوف، وأيقظناهم على اللحم وهناً من الليل.

- لأية قبيلة انتسبوا يا عائشة؟

- قالوا لطالبنا إنهم من زوايا أهل الساحل...

- ولماذا لم تلاحظوا أنهم من أولاد اعميرة؟!

- يا الله! هل هم...؟ جاؤوا ليلا قبل صلاة العشاء وانصرفوا قبل الصبح... ولم نعرف..!

- هل صلوا في مسجدكم؟

- لا أظن...

- وهل هكذا يفعل ضيوف الزوايا، ومبيتهم قريب جدا من شجرة المسجد؟!

- لا أدري! لا حول ولا قوة إلا بالله!

وعقب رجل من أولاد عبد الرحمن:

- إنني أميل إلى صحة افتراضك. يبدو لي أن الضيوف كما استنتجت من أولاد اعميرة، ومعنى ذلك أن جيشهم قريب! وهنا أردف ديلول:

- كانوا طبعا يتجسسون على رجالكم في المسجد. وفكر في نفسه:

(هكذا أبناء الزوايا سذج فيما سوى قضايا العلم والدين). ثم وضع ديلول يديه فجأة على رأسه صارخا:

- آه..! آه...! الأعور! نعم هو حرق الله أباه! لم تخنِي ذاكرتي في النهاية!

- ومن هو؟

- فارس شرير من أولاد اعميرة. حاول قبل عشر سنوات السطو على جزء من إبلنا في معارك "الخط". هل تذكرون يوم قتل عمران ولد بوبكر ولد عثمان على ظهر الدهيمة الكبيرة؟

- نتذكر ذلك اليوم، وهو أجل وأقرب مما ينسى!

- نعم هو الأعور الملعون... تذكرته. ولا ينبغي لي أن أنسى الأشياء بهذه السرعة. كان عمري آنذاك ثلاثين سنة، وكان أبي ما زال على قيد الحياة، رحمه الله!

- ولا تنس أيضا المطاردة التي قاموا بها لأخذ الفرس بعد قتل راكبها، وكيف راوغتهم حتى عادت إلى فلوها في "الحلة"!

- والحقيقة أن الفارس الأعور لا ينسى: ثعلب مراوغ، وفتاك والغ في الدماء!

- الوضع إذن جد خطير! وهل سألوك عن قبيلتك؟

- نعم. وأجبتهم أنني زناقي مؤجر لرعي مواشيكم!

- ها ها..! هذا النوع من الكذب لا يخالف الشرع!

* * *

وقفل رئيس أولاد احميدان راجعا، إلى مضارب أولاد اسويلم. ولم تنسه حالة الخوف في هذا الوضع صورة الفتاتين الجميلتين: الزهرة بنت طالبنا، وأختها لأم ميمونة بنت الهادي. وكان قد ألقى بصره عليهما ورأى وجهيهما المشرقين، تتطلعان للاستماع إلى حديثه مع والدتهما عائشة. وقال لنفسه: - صدق شبان هذه الأحياء إذ سموهما: القمرين! صحيح أن الدنيا لم تنجب ولن يوجد فيها أجمل منهما! ويا ليت شعري أية درجة من الغيرة ستنتاب نساء أولاد اسويلم، فتحرق قلوبهن عندما يتزوج شكرود ولد بوبكر بهذه المرابطة الحسناء! أما أختها فستأتي إلينا هذه الأيام كدأبها كل خريف، لنغدق عليها اللبن الكافي لتسمينها بعيدا من زوج أمها الحاقد عليها، الشحيح بألبانه ومواشيه الكثيرة. ويمكن أن يمر علينا مرة أخرى ابن عمها العالم فتلقاه بحرية، مسكينة تلك المرابطة الجميلة!

- 6 -

عرف الناس السيد طالبنا ولد العتيق إماما لمسجد حيه في غالب الأوقات، ورئيسا سياسيا للعشيرة: منصبان موروثان من أسرة آل العتيق ذات الصيت الطيب قديما في أوساط قبائل الزوايا. مع أن تلك القبيلة كثرت مواشيها من الإبل والغنم خلال العقود الأولى من القرن التاسع عشر الميلادي. وتبعا لذلك انهمكت في التنمية، وتضاءلت فيها روح العناية بالعلم الذي هو تخصصها الأصلي. وشيئا فشيئا، فضل القوم التنقل بمواشيهم في الصحاري إلى حيث المنتجعات الخصبة.

وزاد المشكلة ووضعية القبيلة سوءا انتقال الزعامة فيها إلى شخص مثل طالبنا. وهو شبه أمي اندرست معالم محضرة جدوده وهو صبي. واكتسب بالسماع لا بالدراسة مستوى ثقافيا دينيا متوسطا، يساعده على خوض المجادلات والمشاحنات، أو ممارسة الوعظ وادعاء التحلي بالبركة والأسرار أمام من هم مثل أولاد احميدان وغيرهم من الزناقة، وذلك بهدف تحصيل الهدايا المألوف تقديمها من قبلهم إلى أسرة آل العتيق.

وتذمرت في السنوات الأخيرة بعض الأسر من قبيلة أولاد عبد الرحمن فآل أمرها إلى الرحيل عن أهلها والانضمام إلى قبائل زوايا أخرى، حرصا منها على حفظ هويتها الدينية العلمية. السيد طالبنا ليس الآن

موضع تقدير ولا ثقة من جانب أبناء عمه كلهم. وقد حاول باستمرار بذل جهود معينة لإخفاء طباعه الغريبة إن لم نقل الشرسة، وإن أخفق دائما في طمس جانبين منها. أولهما: حبه اللامحدود للمال ورفضه للتضحية لصالح الأمور العامة، وثانيهما: كراهيته المسعورة لربيبته ميمونة بنت الهادي.

* * *

تزوج طالبنا في شبابه بامرأة من عشيرته أنجبت له العتيق، وطلقها ليتزوج أخرى توفيت بعد إنجابها لحمدان المجذوب، ثم بعائشة التي أنجبت له الزهرة، وكانت بدورها قد تزوجت قبله برجل من غير القبيلة توفي مباشرة بعد ميلاد ميمونة بنت الهادي.

وتمشى الرئيس الإمام ضحوة مع ابنه العتيق على التلال القريبة من حيهم، يحاولان بصعوبة قص آثار قدمي المجذوب التي أخفاها الطل جزئيا. وكلم العتيق والده وهما سائران:

- أبتاه! اسمح لي... أريد أن أحدثك في أمر مهم...

- تكلم، قل ما تريد يا بُنيّ...

- إنه أمر طالما شغل فكري وعذب وجداني...

- قله يا عتيق. لماذا لم تبح لي بكل ما في نفسك؟!

- فاتحتك مرة قبل هذا ولكن...!

- ولكني لا أتذكر طلبا لك رفض من جانبي! أبدا.

- إنني أرجو . . .

وسكت كأن غصة ملأت حلقه وسدت فمه.

- ما الذي ترجو؟ إنني رهن إشارتك وطوع رغباتك يا ولدي. ما هي المسألة؟

- . . . أحب . . . أريد السماح لي بالتغرب عنكم عدة سنوات في طلب العلم.

- تتغرب؟ لا. ماذا تقول؟ وماذا جرى لك. يا إلهي؟!

- إن أسرتنا بحاجة إلى ذلك. الناس يتغامزون علينا ويقولون...

- ما عليك من كلام الناس إنهم أهل حسد وقال وقيل.

- ولكن يا أبي أسرة آل العتيق لم تعد كسالف عهدها! وانحدرت دموع الشاب - الذي قارب الثلاثين من عمره وهو لا يستطيع قراءة ولا كتابة رسالة عادية بصورة جيدة - على خديه. وتابع بصوت متهدج:

- إنني أريد إذنك لي بالذهاب . . .

- كيف؟ كلا! أريدك رئيسا لهذه العشيرة بعدي! أنا الآن ضعيف . . .

- فلأتعلمْ إذن لأصبح رئيسا محترما في قبيلة الزوايا.

- لا . . . لا. هل تريد أن تتركني وحدي مع أولئك الحاقدين؟ ومع عائشة البلهاء التي لا يهمها شيء غير العناية بابنتها ميمونة؟ تعرف أن شكرود ولد بوبكر ولد عثمان سيصاهرنا هذا العام. وستمنع لي التقاليد بعد ذلك الذهاب بنفسي إلى حلة أولاد اسويلم. ومن الذي سيلزمه غيرك

الذهاب لزياراتهم والتباحث معهم في المسائل السياسية التي تجمعنا معهم؟!

ـ أعرف كل هذا يا والدي. ولكن رغبتي التي لا تتزعزع هي... هي أن تأذن لي بالسفر للتعلم.

ـ لا. أبدا يا عتيق. أنت الآن متزوج ولديك ولدان. والشرع والعلم نفسه يحرم عليك نبذهما. صرخ طالبنا بالجملة الأخيرة في وجه ابنه الباكي الحزين.

ـ أرجوك يا أبي، أناشدك الله أن تقبل. هذا خير لنا لو فكرت مليا في الأمر وآثرت المصالح الأساسية البعيدة المدى على الفوائد الآنية.

وسكت الاثنان عن الكلام، ثم تابع الابن وصوته يصطبغ بتأثر شديد:

ـ عندما وافيت حي أولاد احميدان يوم نزول المطر، وطلبوا مني البقاء عندهم لتجهيز تلك الدجالة إذا ماتت واحتجوا ـ لما رفضت طلبهم ـ بأنهم زناقة لا يعرفون أحكام الصلاة على الجنائز ولا طريقة تجهيزها؛ أحسست وخزة مؤلمة في ضميري لأنني أيضا لا أعرف الأحكام الفقهية! إنني زناقي مثلهم! وبكى بكاء مرا. ولكن والده زجره صارخا:

ـ لا تتعب نفسك بالتعلق بالمحال. فكرتك هذه مرفوضة من أساسها.

ـ ولكنني يا أبي كذلك، البارحة عندما قال لنا ضيوفنا إنهم من قبيلة زوايا خشيت أن يطلبوا مني المباحثة في أمور الدين والأدب أو السيرة! فهربت عنهم هروبا ولم آكل معهم كما طلبوا مني! إنني أخاف..!

في هذا الوقت وجد طالبنا فرصة لتغيير مجرى الحديث:

- ها هو! انظر ها هو المجذوب هل تراه يتسلق تلك الشجرة الطويلة؟!!

- نعم أراه يا والدي! نسميه المجذوب تفاؤلا. وهو في الحقيقة مولود على هذه الصورة!

- رباه كيف سنتمكن من إنزاله. لكم أتعبنا هذا المعتوه!

* * *

ترامت خيام أولاد احميدان في وهدة فيحاء، تزينها أعشاب الخريف الغضة الخضراء، وأزهارها الفواحة البيضاء. وسطع القمر قبل منتصف الليل بساعة. ونامت فاطمة العرافة منذ بداية الليل نوما عميقا في وسط خيمتها. وقد تحسنت صحتها بإطراد وتباعدت عليها نوبات الصرع. وأمام الخيمة بسط حصير كبير في الهواء الطلق، فوقه بعض الوسائد. وجلس في طرفيه شخصان متباعدان، ساهران يتبادلان أحاديثهما الشيقة:

- قل لي يا سلامي: متى تنتهي دراستك وتغربك عن أهلك في المحاضر؟

- هذا العام إن شاء الله. بل بعد شهر واحد. إنني هذه المرة متوجه إلى مرابطي لتوديعه وحمل كتبي بعد ذلك للعودة إلى أهلي في (تقانت).

- أظن أن أبناء عشيرتنا ليسوا مثل غيرهم في بعض المسائل!

- في أي مجال، ماذا تعنين؟

- مثلا: لا يتركون التعلم إلا إذا صاروا شيوخا معمرين! وابتسمت ميمونة في وجه ابن عمها الذي فهم ما تعنيه. إن كلا منهما لا يزال غريبا على الآخر. ولكنهما تعارفا الآن بالقدر الذي يسمح لهما بالمزاح، خصوصا أن شعور الفتاة بوشيجة القرابة بينهما يفتح لها آفاق طيبة، وهي التي تربت في حضن رجل حاقد عليها أشعرها سلوكه بالغربة على الدوام، والاشمئزاز من مساكنته.

- من الأفضل للمرء أن «يطلب العلم من المهد إلى اللحد»! لولا شؤون الحياة ومتطلباتها...

- مع الأسف الشديد: أخوالي لم يعد شبابهم يذهبون إلى التعلم!

- والغريب حقا: أن حيهم الكبير لا توجد فيه محضرة واحدة! رغم أنهم زوايا وأوائلهم معروفون بالعلم.

- ولكن كل واحد منهم يبقى سعيدا مسرورا بقرب أهله وأترابه. ويتزوجون في وقت مبكر! وضحكت مضيفة: - عكسا لطريقة الذين "يتزوجون" فقط بمحاضرهم وعلمهم، وتعلمهم، وتغربهم! وقهقهت لدى تلفظها بالعبارة الأخيرة بسخرية ودلال، كاتمة صوتها حتى لا يسمعه الجيران. وهي وإن كانت تأمن شر نقدهم وتشنيعهم عليها، إلاّ أن تربيتها في أسرة من الزوايا وبأخلاقهم ألهمتها كبت ضحكها هكذا.

وابتسم سلامي ولد الهادي سعيدا بمزاح ابنة عمه له:

- لولا تغربي في المحضرة، بعيدا عن أهلي، ما مررت من هنا، ولا تعرفت على أولاد احميدان ولا شاربي ألبانهم في فصل الخريف!

وضحكت الفتاة مرة آخرى قائلة:

- آه...! ذكرتني بلبني، ومدت يديها إلى جفنة كبيرة كانت قد نسيتها في غمرة الحوار مع ضيفها، وهي مليئة بِرِسْلِ الإبل، ووضعتها على ركبتها اليمنى وبدأت تشرب منها بتأن مخللة ذلك بالحديث مع سلامي الذي سألها:

- قولي لي يا ميمونة: لماذا حكم عليك بالبقاء كل خريف مع هذا الحي من الزناقة؟!

- رأي والدتي عائشة...

- لأنها تبحث لك عن لبن كثير؟ أليست لزوجها ثروة كبيرة من الإبل والغنم كما حدثني بعض أولاد احميدان؟

- نعم لديه... ولكنه ليس أبي... وتلعثمت عن إتمام الفكرة التي أرادت أن تبديها. وتابعت مغيرة الموضوع:

- والأحسن قضاء الخريف معهم، ما داموا في طريق أبناء المحاضر العائدين إليها من (تقانت) المتوجهين إلى (آمساقة) و(إينشيري)! أليس ما أقول حقا يا سلامي؟

- أجل أحسن! وأحسن من كل شيء أن يكتب لي أستاذي إجازة التخرج من محضرته إذا وافيته في الأسابيع القادمة، لأعود إليكم في الخريف القادم قصد إنجاز الفكرة التي طرحت عليك العام الماضي!

- أية فكرة؟ وأي طرح؟ الرجال: وما أدراك ما الرجال؟ يقولون ما يشاؤون قوله، ويفعلون دائما غير ما يقولون!

- أما أنا فسأفعل وأنفذ بمشيئة ربي ما أقوله.

- هذا كلامك...

- وأين كلامك أنت يا ميمونة؟ لم تجيبيني حتى الآن لا بالرفض الصريح ولا بالموافقة!

- ولكن ألم تقل عام أول أنك وكيلي الشرعي - بحكم القرابة - وأنك بالتالي تستطيع إجباري على الزواج بمن تريد أنت؟

- بالتأكيد لم أقل ذلك مزاحا كما تفعلين أنت الآن. أنت يتيمة، ولا إخوة لك. وأنا ابن عمك بإمكاني شرعا أن أفعل ما أريد وما أشاء بك.

- وأخشى ألا تفعل شيئا في النهاية... ها ها ها! إنني لست لقمة سائغة لكل من يريد التصرف بي...

- ليت هذه الخشية كانت موافقة صريحة منك على الأمر؟!

- تتعجل كثيرا يا سلامي مسألة لا أدري هل سيكتب لها أن ترى النور؟

وعادت ميمونة إلى شرب لبنها بتوأدة. والخريف موسم تسمين البنات والفتيات. والوالدة عائشة، لن ترضى عن ابنتها الجميلة إذا لم تعد إليها وجمالها الفتان يزدان بالنعومة. تذكرت هذا الواجب وهي تجرع نفسها استهلاك كمية من الحليب ليست بحاجة إليها. وسكت سلامي مفكرا هنيهة، ثم قال:

- لماذا أخوالك هذا العام يجاورون هذين الحيين خلافا للعام السابق؟

- ظروف الخوف...

- الخوف من ماذا؟

- يتوقعون غارة من أولاد اعميرة، وجيشا آخر يأتي من الغرب ورجال حلة أولاد اسويلم غائبون... لهذا أفضل يا سلامي أن تذهب الليلة. القمر جميل، وأخشى أن يلحقك ضرر إذا وقعت غارة في الصباح القادم، أو ينهب مركوبك...

- بالضبط! هذا ما كنت أفكر فيه، ولم أكن على علم من حالة الخوف التي ذكرتها. بل لأنني متعود على الأسفار في الليل.

- أين جملك؟

- ها هو جاثم هناك. سلمي لي على ديلول.

- مسكين! هل تعلم أنه طيب معي جدا؟!

- وأنا أيضا لن أنسى قبل سنة لما كنت ضيفا لديه للمرة الأولى، وسألني عن قبيلتي، وقال لما ذكرت له اسمها: «أهلك فضلاء... وهذه "الجذعة" - يعنيك - بنت عم لك» لولاه ما تعرفت عليك. وكنت طبعا على علم أن والدك رحمه الله خلف بنتا رضيعة. ولكن لم نسمع عنها خبرا بعد ذهاب أمها بها إلى أهلها.

- الزناقة أناس طيبون وبسطاء...

- ولكن لا يليق بأبناء قبائل الزوايا إطالة مساكنتهم.

- تظن؟!

- أظن... بل أتيقن. وأريد الآن أن أكرر لك آخر وصية وتحذير، قبل لقائنا في الخريف القادم، إن شاء الله.

- أي تحذير تعني: (ضاحكة) يا محذر ويا محذور ويا..

- إياك! ثم إياك..! ولا تقبلي الزواج من أي كائن من كان. وإلا

فسأفسخه بحكم الشرع والفقه، وبوصفي وكيلك الأقرب إليك عمومة.
ونهض سلامي منصرفا:

- أستودعك الله يا ميمونة.

- وأنت وديعته. كم بقي من الليل؟ ونظر إلى السماء عادا منازل النجوم ثم مجيبا:

- أربع ساعات.

- فقط! وتمتمت الفتاة: - ويلي من هذا اللبن البارد!

- 7 -

تيقظ ديلول من نومه بحيوية ونشاط معروفين عنه. وترامت إلى سمعه حال انتصابه واقفا، أصداء نداء الأذان لصلاة الصبح صادرا من مسجد أولاد عبد الرحمن، الموجودين على مسافة ميل غربا، بينما تبعد عنه خيام أولاد اسويلم بنفس البعد جنوبا. وانهمك جميع أفراد أولاد احميدان على غرار رئيسهم في حلب الحلائب من الإبل و"تشميلها" وتفقد مواليدها ومن الأغنام، وفي سؤال الركبان الضيوف وغيرهم من المارين بإزائهم عن الضوال من الإبل.

وفي غمرة مهام الصباح تلك المختلطة بثغاء الأغنام، وحنين اللقاح، دخل مجاثم الإبل فارس مسلح وتكلم بدون إلقاء عبارات التحية:

- ديلول... يريدك شكرود أن تأتي إليه حالا... حالا أقول لك..

فكر المدعو وهو يجري على قدميه خلف الفارس إلى حيث دعي: لماذا يستدعيني هذا المراهق؟! لقد استجوبني حتى الآن خمس مرات بطريقة مطولة حول إخباري له وللآخرين بكون الفارس الأعور ليس هو إلا ذلك الرجل الذي رأيته راكبا مع ثلاثة شبان يدَّعون أنهم من قبيلة زوايا من أهل الساحل! هل سيتهمني شكرود بالكذب والتلفيق، لأن الأيام لم تصدق دعواي؟! وهل يريد من وراء كل ذلك أن أدفع غرامة بتهمة أنني

خلقت جوا من الرعب والخوف في أحيائنا الثلاثة؟! هل سيبرر بتوبيخي نهب رجاله لأموال حينا؟ لقد عهدنا منهم تلك الأساليب على مر السنين! إلى متى يا إلهي سنبقى قريبا منهم؟ ليت حالة الخوف زالت، فنرحل بعيدا عن تلك السباع المفترسة التي تجرعنا مضض الاضطهاد تحت مبررات حمايتنا والدفاع عنا! ليتنا وجدنا فرصا مواتية لننعم بهذا الخريف الجيد وبمواشينا!

وفي هذا الحين ظهر له شكرود ولد بوبكر ولد عثمان يمتطي فرس أهله "الدهيمة"، لابسا لأمته الحربية، وقد بدا حليق الرأس لينبت شعر رأسه كالرجال، بعد حلق قرنه. وعلى خاصرته اليمنى تدلت كنانة الرصاص وقصبة البارود، يتنكب بندقيته ويمسك العنان بيده اليسرى في مظهر فروسي أصيل. وظهرت "الدهيمة" تحته متوثبة للانطلاق والعدو. ولكنها مع ذلك ساكنة تصغي إلى المجهول بأذنين صغيرتين دقيقتي الإحساس. وقد علمتها المعارك وهي من أصل الحرائر الكريمات، أن تتعبأ كل شعرة من جلدها بمجرد ما يوضع عليها السرج أو يمسك أحد بناصيتها لإلجامها.

– قل لي يا ديلول، مرة أخرى: ما هي صفات الأعور والشبان المرافقين له؟

– لا حاجة للزيادة على ما أوضحت وكررت لكم مرات متتالية!

– هل أنت مقتنع حقا أنهم من الأعداء؟

– إنه هو الفارس الأعور. والدلائل في صالح افتراضي.

– هل تعلم أنك خلقت جوا نفسيا لا يطاق في جميع أبناء هذه الأحياء؟

- لا عن قصد مني!

- فكر في المسألة يا ديلول! اليوم هو الخامس بعد رؤيتك لهم. والمفروض - إن كانوا قوة استطلاع - أن يكون جيشهم قريبا!

- قد يقررون العودة في أي لحظة يشاؤون؟ لا أدري!

- ويتركون فرصتهم الذهبية تضيع سدى، في حال غياب رجالنا؟! فكر فيما قلت وتذكر بالضبط صفات من رأيتهم.

- أتمنى يا شكرود أن أكون كاذبا، وتختفي حالة الخوف، فنرحل بمواشينا إلى حيث المراعي أخصب.

- هاه! تتمنى أن تكون كاذبا وتصر في نفس الوقت على روايتك! تكلم بجد، ولا تتصور أنني أدعوك إلى لهو أو ممازحة! تكلم...

ولم يجب ديلول كلام محدثه لأن عينيه شدتا فجأة إلى منظر آخر في وسط "الحلة". ثم قال:

- ... البعيران اللذان يساقان أحدهما لأختي والآخر لزوجها..! هناك انظر يا شكرود!

- تحقق من صحة ما تقول. أنت دائما متسرع في إصدار أحكامك. انتظر...

- ولكن هذا الخبر صحيح! يا إلهي ها قد أخذ أحدهم مدية لينحر بعير أختي! وجرى بأقصى سرعته إلى عين المكان وبادر بإمساك ساعد الرجل الذي غاصت مديته في لبة البعير: - لا تفعل! حرام عليكم! إنه بعير أختي، لماذا لا تستأذنونا فنعطيكم؟! واشتد غضب الرجل الناحر، إذ وجد يده تبتعد - رغم إرادته - عن لبة البعير الذي لم يتم نحره بعد، بسحب ديلول لها بيديه القابضتين بقوة على ساعده، ونفض الرجل ذراعه

عبثا طالبا التخلص من ديلول. وترنح البحير قبل سقوطه أرضا، والدماء تشخب من محل طعنة المدية في لبته، فتطايرت على وجه وصدر ذيلول، وعلى رأس وكتفي مصارعه الممسك بالمدية في يده.

واستجمع الناحر قوته، ممسكا بيده اليسرى منكب ديلول الأيمن ونفض يده اليمنى بكل ما أوتي من طاقة إلى الخلف، فتخلصت من قبضة ديلول بعد أن انغرزت المدية في كفه، فتطاير منها الدم البشري ليختلط على جسمه وجسم غريمه بدم البعير الذي سقط وعاد إليه صاحب المدية لإتمام عملية نحره. وفي الحين ضرب رجل آخر قادم من الخلف عنق ديلول بدبوس غليظة، وسقط على الأرض مصفر الوجه، وأخذ الرجل في تكتيف يديه وراء ظهره بحبل من القد، وما زال الدم ينزف من راحته بغزارة.

* * *

والتحق الشاب شكرود ولد بوبكر، رئيس الحامية، بالمشهد بعد تأخر متعمد وزجر الرجال قائلا:

– أوه! ماذا تفعلون؟ لماذا جرح ديلول؟ فكوا عنه الكتاف، وأحضروا بسرعة من يوقف نزيف جرحه ويضمده!

– إنه عدواني يا شكرود! وأحمق بدرجة لا يمكن وصفها! وهذان البعيران هدية قدمت إلينا أمس من زوج أخته.

– ولكن لا ينبغي أن تستخدموا سكاكينكم ضد الأصدقاء. لو كان بوبكر حاضرا لسمعتم منه ورأيتم ما يسوؤكم!

* * *

ونزل قائد الحامية عن ظهر الدهيمة، مسندا ديلول بيديه مساعدا له على الوقوف بعد فترة غيبوبة فقد فيها إدراكه تماما: وأول ما نطق به حين عاد إليه وعيه:

- إن رجالكم يا شكرود يتحرشون بنا كما لو كنا بعض أعدائهم! وهذا شيء لا يطاق! إف على هذه الحياة!

- ما عليك! حادثة بسيطة سننساها جميعا... ولكنك ظالم في تصرفك، إنهم غير مغتصبين للبعيرين. وهذه الغلطة لن نسمح بتكرر مثلها. ثم أضاف شكرود مناديا:

- أيوه! بسرعة. عجلوا الدواء فالجرح ما زال ينزف!

* * *

تيقظت ميمونة من نومة عميقة هادئة، تخللتها أحلام سعيدة، ولاحظت ضجة تدور وقت الضحى في خيمة ديلول القريبة من خيمة العرافة حيث تسكن هي. ونظرت إلى العرافة مضطجعة على الحصير غربيها ساهمة بعينيها البارزتي الحدقتين وسألتها:

- ما هي هذه الأصوات يا فاطمة؟

- لا أدري بالضبط. ولكن يبدو أن ديلول قد أصيب بجرح ما!

- مسكين! هل حدثت معركة؟

- لا أظن... إنما لحقه قد أصيب به في حي أولاد اسويلم ... وما تستمعين إليه هو صوت أخته وزوجته تبكيان وتنتحبان...

- وما نوع الجرح الذي أصابه؟ هل هو رصاصة؟

ـ لست أدري، إنما سمعته الآن ـ قبل تيقظك ـ أصواتهن يطمئن أهله أن الإصابة بسيطة ولا تدعو للقلق.

* * *

ونهضت الفتاة قائمة مذعورة، تنوي المرور على خيمة ديلول لتحيته ومواساته، لتتجه بعد ذلك إلى خيمة أمها في حي أولاد عبد الرحمن، عازمة على قضاء المقيل معها ومع الأخت العزيزة: الزهرة بنت طالبنا، على أن ترجع عشية إلى أولاد احميدان. وفي طريقها بين الحيين، عادت إلى شاشة ذاكرتها أحلامها اللذيذة، وتذكرت ابن عمها العزيز: سلامي. وقالت لنفسها: - هو سلامي ولد محمد ولد الهادي. وأنا ميمونة بنت المصطفى ولد الهادي! يجمعنا إذن الأب الثاني. إنه في واقع الأمر قريبي عمومة ووكيلي... لامني على عدم تصريحي له بالموافقة على الزواج به..! خانتني شجاعتي، وقيد الخجل لساني، غير أنه ليس أحمق، وسيفهم ولا شك من خلال حديثي معه أنني أحبه، واستعجل الزواج، وأتمنى الذهاب إلى قبيلة أبي. ليته عاد بسرعة ليجذبني بعيدا عن زوج أمي الحاقد علي، وعلى كل شيء! كم عذبني كلام هذا الرجل وشتمه لي ولأمي على مسمع من الناس! يقولون إن سبب كرهه لي عائد لروح الغيرة المتأصلة في نفسه بشدة تقرب من الجنون، وأنني أمثل في عينه زواج أمي قبله وارتباطها برجل غيره! والدي رحمه الله مات قبل أن أرى النور. لماذا يحقد طالبنا علي؟! ووالدتي المسكينة الساذجة لا تعارضه في شيء، وترسلني إلى الزناقة كل خريف! آه! أين أهلي؟ متى آتيك يا قبيلتي؟!

ومتى ستعود إلي يا سلامي لأقول لك إنني موافقة على الزواج منك، وأتوق إلى الابتعاد عن زوج أمي وحيه وأرضه!

* * *

وواصلت ميمونة أفكارها وأحلام يقظتها، حتى تذكرت رؤيتها للجرح الكالح في يد ديلول تعكر مزاجها: - إن قلوب الحسانيين قاسية وسلوكهم غريب علينا نحن أبناء الزوايا! ليت شعري كيف ستعيش الزهرة في بيت ابن رئيسهم؟! ولكنها ستأسره بجمالها الفذ وأخلاقها العذبة، فيعبدها كما سأمتلك أنا قلب سلامي ولد الهادي، ويحسن معاشرتي والتودد إلي، بعد مرارة جواري لطالبنا ولد العتيق وشتائمه المبتذلة وأقواله الجارحة، وطباعه القاسية!

وقطع تفكير الفتاة وصولها لحي أخوالها. وها هي الزهرة تستقبلها ضاحكة مستبشرة. وجلست الفتاتان في الخيمة في حالة غيبة من الأب والأم داخل الحي.

وأخذتا حينا من الوقت في حديثهما الودي العفوي:

- هل أتعبك السير إلى هنا يا ميمونة؟

- بعض الشيء ونومي ليلة البارحة كان قليلا.

- لماذا؟ أبسبب اللبن الكثير تجرعين نفسك على استهلاكه؟

- ربما... يجوز.

- لم تدعني الوالدة عائشة أنام الليلة الماضية، وباتت "تبلحني" لأشرب فوق طاقتي!

ـ أنا أيضا فرضت على نفسي شرب الكثير... كانت عندي جفنة مليئة، ولم يصبح منها إلا القليل!

ـ والليلة ستبيتين معنا لتستريحي.

ـ من الأحسن لي أن أعود مساء إلى أولاد احميدان!

ـ لا! لا! لن أوافق يجب أن تبيتي هنا!

ـ سامحيني لأرجع عشية.

ـ أبدا... تقبلي... واصبري يا ميمونة على لوم الوالد طالبنا وعباراته... إنه مجذوب هو الآخر...!

ـ ها ها ها... ها.

ـ ها ها ها... ها هو فقط يوجه تلك الأقوال لجميع الناس!

وغرقت الآختان في الضحك. وقد أحست ميمونة وقعا قويا في نفسها لقول أختها: إن أباها مجذوب هو الآخر. فهذه أول مرة تسمع فيها توجيه نقد - وإن كان غير مباشر - إلى هذا الرجل من جانب أحد من أسرته.

وكان المجذوب الحقيقي أخوهما الذي يهتمان كثيرا بالتفكير في مشكلته، يبدو حولهما مربوطا في جذع شجرة بسلسلته العادية، يولول ويصرخ ويجعجع: «هسـ هيـ ها ها هيـ هو هو...!».

- 8 -

وحثَّت قوة بوبكر ولد عثمان، المكونة من مائة وخمسين من رُكاب الإبل وأربعين فارسا، سيرها إلى الجنوب، باتجاه (اقان) وحي أولاد اعميرة، الأعداء التاريخيين، مؤملا إلحاق ضربة قوية بمسلحيهم. وقد اقتضت خطة الرئيس، أن يجنح الجيش شرقا في طريق متعرج، لتجنب المرور بالأحياء الموجودة أمامه، وليضمن عدم اكتشاف أمره قبل الاقتراب من المحل المقصود.

وفي مساء اليوم الخامس بعد المغادرة، انتصب بوبكر على ظهر جواده، بين رجاله، قبل غروب الشمس بقليل، ينصتون إلى فارسين عائدين من مهمة الاستطلاع:

- الحي... الأعداء غير بعيد من هنا: ثلاث ساعات فقط للجمال وساعتان للفرسان. ولكن...

- ولكن ماذا؟

- غزوا إلينا...! «ما تعرف في نفسك يعرف غيرك مثله في نفسه»!

- هل تأكدتما من ذلك؟

- بالطبع.

- وهل عرفتما تاريخ ذهاب جيشهم إلى أرض (الرقيطة)؟

- لا، لم نعرفه. ولكن الذي تأكد لدينا أنهم ذهبوا قبل حين، لغزو أحيائنا. ربما يكونون الآن مشتبكين مع حاميتنا بفرسانهم بينما يسوق ركبان الجمال من جيشهم حيوانات الأحياء الثلاثة! خسارة! ضاع كل شيء!

وقطب بوبكر وجهه وحاجبيه المهيبين، ونظر بعينيه المحمرتي المآقي، في صمت وتفكير معمق قصد تعديل خطته على ضوء المعطيات الجديدة.

وقال رجل يقف بعيدا من الرئيس:

- فشل زحفنا هذه المرة ولم يساعدنا الحظ.

وعند ذاك صاح الرئيس الذي ثارت في نفسه، بكل اندفاعها، غريزة القتال الذي هو سلوك من عاداته اليومية. وفكر في أن ولده شكرود يواجه الآن أو غدا بقوة صغيرة جيشا كبيرا وضاريا، في الوقت الذي يبعد مكان هذا القتال عن بوبكر ورجاله مسافة ستة أيام من السير الجاد، وزجر المتكلم المتشائم:

- لم يخب زحفنا ولم يخنا الحظ. لماذا تتكلم على هذا النحو؟

- ولكن علينا أن نعود بسرعة إلى أهلنا وحرمنا لحماية أمننا، أو لتدارك ما يمكن تداركه. أليس كذلك يا بوبكر؟!

- هيهات! لا أبدا. لا وكلا! لن نعود الآن إلى أهلنا في هذا الوقت، لا... قلت لكم لا...

- ومن سيحميهم؟

- يحمون أنفسهم أو...

- وماذا سنفعل الآن إذن يا بوبكر؟

هل تريدون أن نرهق أنفسنا ونتعب مراكيبنا عائدين، وألا نحصل على شيء محقق!

- قل لنا فقط" ما سنفعله الآن بعد ظهور هذا الوضع الجديد؟

- ابقوا بأماكنكم. لا تطلقوا الخيول ولا تقيدوا الجمال.

- وإلى متى أيها الرئيس؟

- في الساعة الثامنة من الليل، قبل الصباح بأربع ساعات، سنرى ماذا سنفعل.

- والحامية وشكرود والأهل والأموال...؟

- لا تفكروا على هذا النوع. شكرود ولدي أنا وأحب إلي منكم بلا ريب! أريده أن يبدأ حياة الرجولة بالدخول في تجارب صعبة، ليخرج منها ظافرا، أو يكون لا شيء! ففي هذه الحياة الدنيا لا قيمة لغير الأبطال الحقيقيين!.. والأموال؟ لا نملك الكثير منها ولدينا القدرة على تعويض ما نفقده منها! وأموال أولاد عبد الرحمن؟ لن تمس بسوء لأنهم زوايا محترمون، وحيوانات أولاد احميدان؟ (لعنهم الله) فهؤلاء زناقة متخصصون في التنمية، ينبتون المواشي كما تنبت أمطار الخريف الأعشاب! ولا قيمة ولا أهمية إطلاقا لما لديهم الآن من حيوانات. وتابع الرئيس خطابه بحماسة وإيمان واضح في نبرات صوته:

- والحامية تفكرون فيها أيضا؟ إنهم عشرون رجلا فقط. وهم رجال! «ما خلقهم الله إلا للتعب والموت».

* * *

وسكت بوبكر مفكرا في أجزاء خطته الجديدة، وقد نزل عن ظهر جواده: - سنغير على الأعداء صباحا، ونقتل كل من سنصادفه من رجالهم. لا شك أنهم تركوا هناك حامية تضم عشرات الرجال، تلك عادتهم طوال حربنا معهم. نعم. سنسوق كل حيواناتهم من الإبل خاصة، وعبيدهم. على أن نرسلها مع اثنين أو ثلاثة من رجالنا الركبان، فينحرفون بها إلى الشرق، ومنه إلى الشمال الشرقي. حتى يوافوا حينا في النهاية من جهة الجنوب الشرقي. وأما نحن في الجيش: فسنعود شمالا مع الطريق القويم، لنتعرض جيش الأعداء راجعا إلى أهله. لن يفلتوا منا، أبدا، وسنرسل فرسان الاستطلاع أمامنا، وعن شمالنا ويميننا، وستدور المعركة وقتذاك حول ما غنموا من أحيائنا، أما ما غنمنا نحن فلن يكون موضع نزاع.

* * *

كان الغروب الخريفي يصبغ جهة الأفق الغربي بألوان وردية وحمراء، ممتزجة بأخرى بنفسجية مائلة إلى الزرقة. ونظر القائد إلى تلك الألوان، ثم وقع بصره على مجموعات رجاله، متجاورين مندسين بين حشائش السبط يأكلون قديد لحم الإبل، مخلوطا بالودك الأبيض، والتمر الأسود. وكانت الخيول تنصب آذانها مصغية في الأجواء الصحراوية اللامتناهية الخرساء لأصداء لا يسمعها غيرها، بينما كانت الجمال باركة تجتر ما في كروشها.

وانهمك بوبكر ولد عثمان - قبل حلول الظلام - في تنظيف بندقيته، متفقدا محقنها ومدوكها. وعد ذخيرته المكدسة في الكنانة المخصصة للرصاص وقصبة البارود.

ورفع الرئيس وجهه من جديد، لتقع عيناه على الفارس الشاب اللامع: شكار ولد الفائز، ابن أخيه الذي قتل قبل سنة، وشقيق منمانة الحسناء الناشئة التي فضل عليها شكرود تلك المرابطة الرائعة التي سارت الركبان بذكر أوصافها ومحاسنها. وشكار هذا بالإضافة إلى ذلك صديق حميم لشكرود وحبيب يفضله على كل الأصدقاء والأتراب.

وعادت إلى مخيلة بوبكر - ربما بسبب رؤيته لشكار - صورة ولده شكرود، يوم رآه يتدرب على ظهر الدهيمة، حين التقط المحلاب والشكوة والخروف بدون أن يهدئ سرعة جري الفرس. كما تذكر والدة الشاب وقلقها عليه الذي لا تصارح به غير والده، حياء منها وخجلا وخشية أن يصدر منها قول لا يليق بهيبة العربان وشجاعتهم التي تلهمهم الاستخفاف بالموت في سبيل حماية الشرف. وقطب بوبكر حاجبيه من جديد. وانطبق ظلام الليل على الأفق... ونظر إلى ناحية الشرق لأنه سيعُد ساعات الليل من خلال النجوم في انتظار الساعة الثامنة، قبل الصبح بأربع ساعات.

* * *

و«ما تعرف في نفسك يعرف غيرك مثله في نفسه»: هكذا فكر قادة جيش أولاد اعميرة بدورهم وقد علموا الآن بذهاب جيش أعدائهم إلى الجنوب، للإغارة على أهلهم. ولم يتأكدوا من هذا الخبر حتى اليوم الخامس بعد انطلاق قوات بوبكر ولد عثمان غازية.

عسكر أولاد اعميرة قبل أسبوعين على بعد يومين للراكب غرب مضارب أولاد اسويلم في أرض (الرقيطة). وبعثوا يوميا أفرادا منهم للاستكشاف، مر أكثرهم بحي أولاد عبد الرحمن قبل أن يؤمروا بالرحيل إلى جوار الحلة.

ويزيد جيش أولاد اعميرة على قوة أولاد اسويلم التي ذهبت إلى (اقان) بحوالي عشرين من ركاب الجمال وعشرة فرسان، ولا يقلون عن أعدائهم دهاء ولا شراسة واستبسالا في القتال. والحرب بينهما شاب فيها الولدان سجالا: يوم لهذا على ذاك، ويوم لذاك ضد هذا.

ونجح مستطلعوا أولاد اعميرة للوهلة الأولى في تسريب بعض الإشاعات المضللة – عن طريق أولاد عبد الرحمن – بهدف ذر الرماد في عيون أعدائهم اليقظين. ومن ذلك جاءت الحكايات المضخمة لخطر جيش (تقانت) المنتظر رجوعه من منطقة (إجبِّيتَن). ويعي مسربو الإشاعات ما يربط عربان (تقانت) وأولاد اسويلم من صداقة عميقة مع بعضهم، وروح مسالمة مع عمومهم. وبالتالي لن يعلن بوبكر ولد عثمان تعبئة جادة لرجاله. وبهذا يضمن أولاد اعميرة مغالطة الركبان والرعاة إذا رأوهم قادمين من الغرب فلا يعرفونهم. أما الخطة المبيتة، فهي المرور في وضح النهار ببعض الرجال، قريبا من أولاد اسويلم، الذين سيرونهم عابري سبيل من أهل (تقانت)، حتى يتجاوزوا حيهم إلى ناحية الشرق، يبدأ تطويق الحلة من كل النواحي.

* * *

تكلم قائد أولاد اعميرة طالبا الرأي من رجاله وهو: جرفون ولد جلفون شاب في الخامسة والعشرين من عمره، تولى زعامة قبيلته، منذ قُتل أبوه الرئيس السابق، قبل سنتين على يد بوبكر ولد عثمان في مبارزة شهيرة، طالما لاكتها ألسن الشعراء، وحناجر المغنين، وأحاديث السامرين في حي أولاد اسويلم، وأجاب الفارس الأعور تساؤلات الرئيس:

- وما الرأي عندك وما الحيلة، والحالة هذه؟

- الرأي عندي هو اقتراحك الذي قلته البارحة، أي أن نضرب ضربة خاطفة، ونسحق حاميتهم سحقا، ونغنم المواشي ويرافقها بعض ركباننا بعيدا إلى الغرب. ونعترض نحن طريق جيش بوبكر ولد عثمان ليعرف دائما أننا...

- ونحذر رجالنا من المساس بأموال أولاد عبد الرحمن...

- عار وشنار على المغافرة أن ينهبوا أموال الزوايا بدون مبررات استثنائية.

- إنهم زوايا أولاد اسويلم...؟

- ولو غلبنا هؤلاء وحطمناهم يصبح أولاد عبد الرحمن زوايا حلفاء لنا ومن جانبنا!

وعض الفارس الأعور شفتيه بأسنانه مخاطبا الرئيس:

- ولو قتلنا ذلك المراهق المدلل، سيشكل صرعه ضربة معنوية قاسية للأعداء!

- وهو كذلك: يريدون منه خليفة لأبيه الشرير، ولم يبق لأمه غيره من الأولاد.

- أرجو أن أقوم بهذه المهمة غدا صباحا عندما نصلهم في مكانهم. وقد حالفني الحظ مرات سابقة في اصطياد إخوته المفقودين.

- كما حالفك في قتل غيرهم، يا فارسنا! غدا سنرى ذلك، وعلى كل حال ستبقى بالنسبة إلي يا فراح المدرب المعلم، والمستشار الموجه، ولن أنسى لك الأخذ بيدي ودعمي في كل المسائل بعد قتل والدي.

- وسنغسل الأرض التي سال فيها دمه، بسيول من دماء تلك الذئاب المراوغة!

- وسأبذل أنا جهدي، وعزمي وقوتي، لحفظ شرفنا وسمعتنا.

* * *

قضت ميمونة بنت الهادي ليلتها مع أختها الزهرة - كما طلبت منها وألحت عليها أن تفعل - وتأسفت أثناء المبيت على عدم العودة عشية إلى حي أولاد احميدان، عندما لاحظت أن زوج أمها لم يخف تضايقه منها. ووجه إليها بعض الشتائم، سهاما غير مباشرة، وطعنات في كلمات مؤلمة، بخلاف العتيق وعائشة والزهرة الذين أبدوا سعادتهم بحضور ميمونة بينهم. ومازحها العتيق وهم ساهرون:

- هل ستصبحين عرافة و"قزانة" أنت الأخرى؟

- مسكينة فاطمة! إنها طيبة معي جدا ولكنها الآن...

إلا أن الأب زمجر في وسط الخيمة صارخا:

- والله إنها ليست مسكينة ولا طيبة، بل دجالة مضللة، ولا يجاورها إنسان طيب في حياتها...

وانقطعت السهرة، وذهب العتيق إلى خيمته مفكرا: - أقسم بالله العلي العظيم، لأهجرن الأهل في طلب العلم! ولن أرجع إلا بعد سنين طويلة لأكون إماما ورئيسا محترما في عشيرتي. لن يوافق هذا الوالد الغريب الأطوار الذي لم يعلمني في صغري حرفا واحدا! وسأذهب إذن خلسة ولن أعود إلا بعد أن...

* * *

في الصباح الباكر تهادت الفتاتان الرائعتان، كأنهما قطعتا بدر صيغتا بشرين سويين! تتشابهان إلى حد يخيل لرائيهما أنهما صورة واحدة متعددة لشخص واحد لولا بعض الفوارق البسيطة: تبدو ميمونة أطول قامة قليلا من أختها الأصغر منها بثلاث سنوات، وأنصع منها بياض بشرة. مع أن كلا منهما في الحقيقة تتحلى بلون بيض النعام، وتلبسان ملحفتين سواداوين جديدتين نسبيا، ولا يبدو منهما وهما تمشيان إلا وجهاهما وأيديهما. وكل منهما فارعة الطول، وتضربان إلى النحافة رغم مجهودات التسمين الذي لا يبدو أثره عليهما بارزا بشكل كبير.

ووصلتا قبل طلوع الشمس إلى ربوة رملية تجاور غديرا غرب الحي. تعودت الزهرة الجلوس في هذا المكان كل صباح، وغالبا ما مر بها شكرود لمدة لحظات، يتبادلان كلمات مقتضبة.

وقالت الزهرة:

- هل علمت أن أخانا العتيق سافر تحت جنح الظلام متغربا؟

- علمت مع الأسف! ولماذا يفعل..؟

- قالت زوجته إنه ودعها، طالبا منها مسامحته ليغيب عنها سنين في طلب العلم. ولم يوضح لها أين سيذهب بالضبط!

- كانت تلك رغبته منذ بلغ سن الصوم.

- والوالد رفضها باستمرار!

- وستقع عليه الآن أعباء كل المهام التي كان العتيق يتولى عنه القيام بها!

- وذلك سبب خصامه فجر اليوم لما علم بـ...

ورفعت الزهرة نظرها لعلها ترى الفارس المحبوب...

- 9 -

دأب شكرود كل صباح على أن يركب فرسه ويزجرها، فتعدو به بعيدا غرب الأحياء الثلاثة على وجه الاستطلاع، وبهدف الرياضة والتدريب أيضا. ولم يكن قد شعر حتى هذا الحين، أن جيش أولاد اعميرة، قريب جدا يخطط لمباغتته، وأن الفارس الأعور قد التزم لرئيسه بتولي قتل شكرود! ولجهله بهذا الأمر، بدأت حالة التعبئة والخوف تتلاشى شيئا فشيئا. والأنظار الآن تتوجه إلى الجنوب، مترقبة عودة بوبكر ولد عثمان والجميع منشغلون بالتفكير في ذلك.

* * *

وعرج الفارس الشاب بفرسه، بعد أن أدى مهمة الاستطلاع الصباحية، ليقف جنب الغدير القريب من خيام أولاد عبد الرحمن. وألقى عبارات التحية على الفتاتين الجالستين على قمة التلة"

- كيف حالكما يا مرابطتان؟ وضحكتا، وكان على ميمونة أن تجيب، بدل أختها التي تستحي من مخاطبة شكرود أمام الناس:

- بخير. وكيف حالك أنت يا "متمربط"؟

- خاب ظنك يا حمقاء! وما رأيك أنت يا "الزهرة" كيف حالك؟

وتلعثمت الفتاة المقيد لسانها بفعل الخجل، وهمت بقول شيء ما.

وتمتمت: ... هل تنكر..؟ إنك.. ولكن...

وفي هذه اللحظة بالذات، شدت آذان الفتى والفرس قبل غيرها إلى أصوات الطبل الكبير يضرب في وسط الحلة ثلاثا ثم ثلاثا عنيفة متلاحقة بعدها ثم ثلاثا أخرى: تسع ضربات: ذلك دليل الخطر ورمز اقتراب المعارك. ونظرت الفتاتان الجميلتان، ولكن الشاب اختفى عنهما بسرعة البرق الخاطف إلى حيث يدمدم الطبل.

* * *

ووقف شكرود بفرسه بعد سويعة من ضرب الطبل، بين فرسان آخرين في وسط حي أولاد احميدان. وأخذ يخطب متذمرا غاضبا، يحيط به جمع كبير من الناس.

- ... ولا نريد الأخبار الكاذبة! أتعبتمونا بهذه الأكاذيب والتلفيقات الباطلة! كل الناس يعيشون الآن على أعصابهم بسبب أحكامكم المتسرعة! ومن يحمل إلينا بعد اليوم نبأ غير صادق، سيرى ويشاهد الآخرون عقابه الشديد!

- لقد طلبتم منا أن نخبركم بكل ما نشاهده يا شكرود.

- ولكن تثبتوا مما ترون واعرفوا حقيقته أولا يا جبناء.

وكان رجلان من أولاد احميدان قد غادرا حيهما في الصباح الأول متجهين إلى الشرق، في مهمة رعوية، وفوجئا برؤيتهما لجمع كبير من

الناس يجرون باتجاههما. وخافا من الحشد. وعادا إلى أولاد اسويلم وأخبراهم، حيث ضرب الطبل ضربات الخطر. وتبين بعد أن اكتشف شكرود وثلاثة فرسان معه من الحامية، أنما شوهد في الشرق ليس سوى مجموعة كبيرة من رجال ونساء وأطفال قبيلة النمادي الصيادين، يجرون وراء كلابهم السلوقية المطاردة لقطيع من الغزلان الهاربة.

ووسط التجمع المتحلق بالفرسان الأربعة، رفع ديلول يده الجريحة التي بدت عليها الضمائد من خرق بالية وسِخَة مربوطة عليها، قاصدا التعليق على خطاب الفارس الشاب:

– ولكن النمادي يا شكرود أعداء هم الآخرون...

– أعداء لمن... ماذا تعني؟

– للمسلمين... إنهم آفة على ضوال الإبل، ينحرونها ويأكلونها. وهذا معروف عنهم من قديم الزمان.

– لا. ليسوا أعداء يا ديلول. فكر في قولك هذا...

– حبذا لو طردتموهم عن هذه الأراضي..! أو ليتكم سامحتمونا نحن بتولي طردهم!

– لا... لا... أبدا، لن أطاردهم، عيب علينا نحن العرب المغافرة أن نهاجم أناسا عزلا، لا يملكون من السلاح إلا القسي والنبال والمزاريق. مجرد صيادين بؤساء وضعاف. وليس هنا سكنهم. سيعودون إلى أراضي: (المرية) و(آروان) و(ولاتة) و(تيشيت) بعيدا من هنا. فقراء بلا خيام ولا مواشي... عجبا لك..!

– إنهم خطر على أموالنا...

- لا... اعملوا فقط بمقتضى المثل الحساني: «احفظ مالك، ولا تتهم جارك بالسرقة».

* * *

خرج شكرود والفرسان المرافقون له، ومروا في لمح البصر أمام خيام أولاد عبد الرحمن. وغربوا يتبادرون بجيادهم حتى وقفوا على قمة كثيب بعيد ألى جهة الغرب. ونظروا في كل الاتجاهات في الصحاري الواسعة المصبوغة بالخضرة الممتزجة بصفرة الرمال. وبعد لحظات سأل شكرود زملاءه:

- يخيل إلي أنني سمعت صوت طلقة بندقية غربا.. هل سمعتم مثلي؟

- لا، لم نسمع شيئا.

- ولا يرى هناك شيء في هذا الاتجاه الواضح!

وقال الآخر:

- وأنا أيضا لم أسمع أي صوت. ولكن قبل سؤالك، رأيت أذني الدهيمة تتحركان فجأة منصتتين! وعلق شكرود:

- تلك عادتها. كثيرا ما تريبني وتتعبني بإنصاتها للعدم، وتحرك أذنيها الذي لا يدل على شيء مهم غالبا. وفي بعض الأيام كانت تحرك أذنيها، وكنت أبحث على وجه الاستطلاع عما سمعت، فيظهر أنها كانت تصغي لنئيم أبوام بعيدة جدا جدا من المكان...!

- وأين سنتجه الآن؟ قد يجوز أن تلك طلقة من بندقية صياد؟ في حي أولاد احميدان توجد بندقيتان أو ثلاثة للصيد. والغزلان والنعام تتواجد بكثرة في هذه النواحي.

- لا. إنهم خائفون من هذه الناحية. ولا يتنقلون إلا إلى جهتي الشرق والشمال منذ نزولهم حولنا. ثم تابع مخاطبا الفرسان:

- علينا أن نعود الآن. لا يليق بنا الوقوع في الوساوس والأوهام كغيرنا، وأن نتسبب في إعلان تعبئة أمام خطر خيالي مزعوم.

* * *

وجرت الجياد عائدة براكبيها مسرعة حتى وصلت حافة الغدير القريب من خيام أولاد عبد الرحمن. ونظر شكرود إلى الربوة المجاورة، فبانت خالية من حبيبته الزهرة، وأختها. كانت ميمونة قد ذهبت إلى حي أولاد احميدان، وأما أختها فقد فضلت البقاء والجلوس جنب والدها طالبنا الغاضب من سفر ولده العتيق في الليلة السابقة.

* * *

ومرت الجياد في وسط حي الزوايا، قريبا من الشجرة التي يربط بجذعها المجذوب حمدان. وشيع هذا الفرسان ببعض ما يتفوه به من هذيان وجعجعات غريبة وأقوال بذية قبيحة: - «هذا شكرود الشكراده! هيـ هيـ هو هو هيـ هيـ..! يركب الحمارة السوداء هي هيـ هو هو..! حمارة سوداء وشكرود الشكرادة ها ها هيـ هيـ..».

وقال أحد الفرسان بعد أن ابتعدوا قليلا عن الحي:

- لعنه الله من أحمق!

- ما أخبث لسانه!

- يسمونه المجذوب يا شكرود!

- ولكنه معتوه! ولدته أمه على هذه الصورة!

- وهؤلاء الزوايا لا يتركون أحدا منهم يضيع تماما.. ها ها..

- فإذا كان أحدهم أحمق أو مجنونا..؟ وأجاب اثنان من الفرسان مقهقهين في وقت واحد:

- سموه مجذوبا! أو وليا مستترا عن أعين الناس!

- وإذا كان شحيحا بخيلا؟

- سموه رشيدا! مدبرا! ها ها ها!

- وإذا كان جبانا (وهذا هو المعقول)؟

- ها ها... سموه حازما وعاقلا..! ها ها ها!

- ولكن: ها ها ها: فيما لو كان جريئا (وهذا غير معقول)؟

- سيدعونه مجنونا ها ها ها!

- ها ها ها!

- وماذا سيقولون، يا ترى، لو أن أحدهم كان سخيا؟!

- ... مبذر... سفيه...! ها ها ها!

- ها ها ها!

- ها ها ها! مساكين أولئك الطلبة السذج!

وفكر شكرود وهو يضحك ملء شدقيه مع زملائه: - نعم مساكين. ولكن ابنتهم قمر لم يوجد أحسن منها في هذه الدنيا. وعليّ أن

أنتزعها منهم قريبا لتكون معي وفي خيمتي، إنها ليست منهم ولا تشبههم!

* * *

غرق الفتيان في ضحكهم وهم يسيرون جنوبا، مارين بالطرف الغربي من خيام أولاد احميدان، عن أيسارهم. وفي الغربية منها ازدحم جمع كبير من النساء والأطفال والشيوخ متحلقين بفاطمة العرافة، تضرب "قزانتها" على الرمل، توزع الحظوظ، وتتفاءل بالأبيض، وتتشاءم بالأسود، وتقطب حاجبيها كلما رأت إشارات لا توحي لعينيها بلون اللبن. وقال شكرود لزملائه:

– ها هم يتجمهرون حول عرافتهم! تعالوا نرى ونسمع...

* * *

جرى كل ذلك في صباح اليوم الثامن، بعد زحف جيش بوبكر ولد عثمان إلى (اقان). و«ينام البحر ولا تنام عين العدو»[1]. وكذلك فضل شكرود وأصحابه أن يتسلوا بحظوظ تقرؤها العرافة في خطوط ونقاط ترتبها يدها وأصابعها على الرمل. ولم تكن عين الفارس الأعور بنائمة، ولا جمرات حقدة منطفئة. وقد صمم على اصطياد هذا الشبل العزيز،

1 – مثل معروف عند شعوب البلقان.

الذي لو ترك في سبيل حياته، لكوّن مصدرا للمصائب والكوارث لأولاد اعميرة، على غرار والده وجده من قبلهما.

* * *

توقف جيش أولاد اعميرة ضحوة نفس اليوم على أضاة من مياه أمطار الخريف. وأخذ الرجال يملؤون قربهم من الماء. وتكلم أحد مستطلعيهم في الأيام السابقة:

– القوم يبعدون منا الآن مسافة ساعتين أو ساعة ونصف. وعندما زايلوا موقع الأضاة، قال الفارس الأعور:

– انتبهوا! هناك راكب جمل يأتي من الشرق. قد يكون مستطلعا منهم؟ وزجر جواده متابعا: – سأعترضه لأكشف شأنه. ورأى الراكب الجيش أمامه ورجع هاربا على إثره. وناداه الأعور:

– ارجع إلى هنا! ارجع حالا وإلا! ولم يسمع الراكب الصوت الموجه إليه، ولم يعلم أن الفارس قد اقترب منه بسرعة غير معتادة:

– تاك! لعلع الرصاص من بندقية الأعور، واخترق صدر الراكب وكتفيه، بضربة قاتلة، وسقط على الأرض منكبا على وجهه. إنها الطلقة التي التقطتها أذنا شكرود من مسافة بعيدة، وتحركت لها أذنا الدهيمة. ووقف الفارس الأعور يتفحص سمة الجمل الواقف حول الضحية، وينظر وجهها، ثم قال متأسفا، وجيشه يقترب من اللحاق به في المكان:

– خسارة! غلطة شنيعة! إنه مع الأسف...

– من هو؟ هل عرفته؟ ولماذا لم ينتظر إجابتك لما ناديته؟

- إنه العتيق! الزاوي الذي أيقظني في آخر ليلة بتها عند حيهم، مع الشبان الذين قاموا معي بالاستكشاف، على اللحم المشوي قبل الصباح بساعتين!

- يجوز.. بالإمكان جدا أن يكون في مهمة استطلاع لعربانه...

- وإن العلاقة بينهما قوية إلى حد لا يمكن تصوره!

ورد القاتل، نادما على فعلته، عاضا إصبعه:

- بل خسارة فقط، وغلطة فادحة! ضاعت لي أربع رصاصات وما يملأ الكف من البارود! مجرد مرابط أعزل!

وتدخل الرئيس الشاب:

- إنها الحرب يا أخي! لا تجري أبدا بدون سقوط ضحايا، لا ناقة ولا جمل لهم فيها!

* * *

وحملقت العرافة بعينيها الشاخصتين إلى السماء وقالت:

- وهذه النقاط الثلاثة الكبيرة في يمين "القرانة"، تجاورها المستطيلتان، والنقاط الثلاثة الصغيرة: بشارة واضحة!

- لأينا يا فاطمة يا عرافة؟

- لشكرود! وبالتأكيد له!

وضحك الشاب قائلا: - إنها "القزانة" «ما كذبناها ولا صدقناها»!

وتابعت العرافة:

– رديف أبيض! وأشياء أخرى... وإشارات ناصعة: بشارة لك. قد ترزق في المستقبل أولادا طيبين، أو يكثر لديك اللبن؟ لا أدري..! أو يتحقق لك أمل عزيز على نفسك؟ لا أعرف أي تلك الأشياء؟ ولكنها يقينا بشارة لك أنت، وليس غيرك! نعم بشارة لك أنت يا شكرود!

وضحك الفرسان الشبان الجالسون في طرف الخيمة، ممسكين بأيديهم أعنة خيولهم. إلا أن ضحكهم سرعان ما اختفى. إذ دمدم الطبل الكبير جنوبا، بصورة يستبان منها بجلاء أن ضاربه خائف أو غضبان، أو مستعجل: دومْ، دومْ، دومْ، ثم ثلاثا بعدها مرتين. دليل على اقتراب الخطر المحقق.

* * *

كان شاب من أولاد اسويلم، وهو الفارس الخامس بين الفرسان الموجودين في الحامية، يروض فرسه ويستطلع في نفس الوقت، جنوب وجنوب غربي "آلحلة". ورأى بعينه جيش أولاد اعميرة الشرس، متدفقا فوق سهل رملي أخضر تدفق السيل الجارف. وعرف وجوها منهم باليقين الذي لا ينقلب شكا. وفرّ إلى أهله بأقصى السرعة، وفي رأسه صورة فرسان الأعداء وأعراف الخيل تهتز من حول أعناقها وأعنتها المتحركة كالأفاعي المتوثبة.

* * *

وكان ديلول جالسا في خيمته القريبة من خيمة العرافة، يفكر على عجل في تطبيق خطته الخاصة به. ومع أن جراح الخريف لا تندمل بسرعة، ويده الجريحة تؤلمه ألما ممضا، سبب له الأرق في الليلة السابقة، غير أن

ذلك لم يمنعه من إنضاج خطته والنظر في إمكانية تنفيذها عمليا في الوقت المناسب واللازم.

نوى هذا الرجل منذ أيام الخوف والتعبئة الأولى أن يوجه جميع حيوانات عشيرته إلى الشرق والشمال الشرقي، ترعى هناك. إذ أنه اقتنع للوهلة الأولى أن جيش أولاد اعميرة غير بعيد، بالعكس من شكرود، الذي اعتبر رواية ديلول من قبيل الخيال والكذب. وترك "الغزيل" كل ليلة مقيدا خارج الحي يرعى، وفي الصباح يأتي به ويبقى باركا حول الخيمة طيلة النهار مشدودا برحله. أراد بهذا أن يركبه بمجرد حدوث أو ظهور أي غارة أو معركة، ويذهب به إلى المراعي للتمكن من تهريب المواشي إلى أبعد نقطة ممكنة من مكان الخطر. ولو تطلبت منه عملية الإنقاذ هذه البقاء خارج أهله عدة ليال، فلا بأس بذلك. فكلاهما متعود مثل هذه الحالات.

سبق لديلول في صباح نفس اليوم أن أراد بدء العملية لولا أنه وقف بنفسه على مجموعة النمادي الصيادين الذين سببت رؤيتهم التعبئة الكاذبة التي أغضبت شكرود. أما الآن فالخطر يأتي من جهة الغرب، وثابت لا لغو في صحته، فعليّ إذن الأسراع: هكذا فكر ديلول وضرب كتف "الغزيل" بالسوط الذي أمسكه بيده اليسرى، بينما اليمنى يزيد ألمها التحركُ الناتج عن جري الجمل بجسم راكبه المنتصب فوق الرحل انتصاب التمثال الجالس.

- 10 -

اكتسحت قوة بوبكر ولد عثمان مجاثم إبل أولاد اعميرة المحيطة بخيامهم، قبيل شروق الشمس. وأطلقت ثلاث زخات بارودية خالية من الرصاص لتنفر الإبل مذعورة، ويسهل سوقها. وقتل جميع أفراد الحامية البالغين ثلاثين رجلا، وغنم العبيد مع الحيوانات، والأسلحة وبعض الذخيرة، والطبل الكبير الذي يعتبر الاستيلاء عليه غنيمة معنوية مهمة. ولم يفقد الجيش الغازي إلا ثلاثة رجال، على يد مقاتل انتحاري هرب أمام أعدائه واختفى في طريقهم حتى إذا بلغوا مرمى بندقيته، أطلق عليهم النار، وبادر الآخرون إلى إمساكه بالأيدي قبل أن يعيد شحن بندقيته بالرصاص. ومُزق هذا الرجل بالخناجر قبل أن يتأسف على أن رصاصه لم يصب بوبكر ولد عثمان الذي نوى قتله.

* * *

وعاد الجيش مسرعا إلى الشمال. وانفرد عنه ثلاثة ركاب يسوقون الإبل والعبيد إلى الشرق. وزاد عدد الفرسان أولاد اسويلم بفضل ما غنموا من جياد أولاد اعميرة.

و«الحرب سجال» كما قال العرب القدامى. و«الشرُّ جر» كما في المثل العربي الشعبي الحساني.

اختلفت خطة أولاد اعميرة شيئا ما عن خطة بوبكر. فلم يقتربوا من خيام أعدائهم إلا بعد طلوع الشمس بثلاث ساعات. ويمكن أن يعزى ذلك إلى شيء من الغرور أصابهم. أو لما خامرهم من شعور بأن الحامية لا قيمة لها. ولا غرابة إذا تصرفوا على هذا النحو من الاستخفاف بالأعداء، فالرئيس القائد المجرب لم يعد بينهم، وابنه يرث شجاعته وإقدامه إلا أنه لم يكتسب بعد مهارته السياسية وحزمه. والقائد الفعلي هو الفارس الأعور المتميز بالتعطش للولوغ في الدماء، وإجادة الكر والفتك، والانسياق وراء الهوس الحربي، أكثر من تدبير الأمور وإحكام تخطيطها.

وقال القائد الرئيس: جرفون ولد جلفون:

- ها هي قطعان إبل الأعداء، وتلك خيامهم غير بعيدة.

وأجابه الأعور:

- لتذهب يا جرفون كما اتفقنا على رأس رُكاب الإبل لتسوقوا هذه القطعان.

- نعم، ولكن عودوا إلينا بسرعة أيها الفرسان.

- سمعا وطاعة. سنحرق الحامية ونأخذ الأشياء المهمة من "حلة" أولاد اسويلم.

- أهم ما هناك هو العبيد والذخيرة والطبل.

- وحيوانات أولاد احميدان...

- إن كانت قريبة، وليس لدينا وقت للبقاء هنا أكثر من ساعة، والمعركة الحقيقية ستكون في طريق عودتنا إلى أهلنا...

ـ نعم، عندما نعترض بوبكر اللعين...

ـ نفذوا المهمة إذن بسرعة.

ـ حالا. هذا واجبي الشخصي بوصفي قائداً للفرسان. وسأحمل إليك رأس شكرود بعد قليل يا ابن عمي.

ـ وسننحر في انتظار لحاقكم بنا ثلاثا أو أربعا من إبل الأعداء.

ـ قد يكون بوبكر ولد عثمان عاث فسادا في حاميتنا وعليه...

ـ نعم: عليه يجب أن يجد أفعاه الصغيرة قد قطع رأسها.

ـ بالتأكيد. هذا هو الرد المناسب.

* * *

وصل شكرود إلى حيث يضرب الطبل، مع فرسانه، قادمين من خيام أولاد احميدان، حيث تفرجوا وقتا قصيرا على "قزانة" العرافة. ووضع خطة مستعجلة، قسم بموجبها رجال حاميته على النحو التالي: ثلاثة أرباع أفرادها البالغين عشرين يأخذون مواقعهم، في روابي متجاورة غربي الخيام وفي جنوبها الغربي، مندسين بين حشائش الثمام "أم ركبة" – وهو موقع جيد للرماة – والفرسان الخمسة سيعملون على مناوشة الأعداء بدون موقع ثابت. ونادى الشاب شكرود قائلا:

– طيب. أنتم الرماة ثبتوا لنا الوضع. مكانُكم مناسب جدا. أما ثلاثة من الفرسان فعليهم بمناوشة الأعداء من جهة أيسارهم. والفارس الرابع سيشاغلهم من جهة أيمانهم طبعا إلى جانبي أنا، في عمليات كر وفر متواصلة، نهدف منها إلى إطالة الاشتباكات. إنهم يحلمون بلا شك أنها مسألة لحظات معدودة.

رأى الفارس الأعور، وهو في يسار فرقة فرسانه، الفرسان الثلاثة أمامه، متقدمين قليلا عن مكامن الرماة، وظن واحدا منهم شكرود فناداه:

- تقدم يا صاحب القرن المحلوق! تقدم إلي لتجرب حظك في الرجولة والفروسية! وأجابه على الفور أحد الثلاثة:

- نعم أنا صاحب القرن المحلوق! وستراني عن كثب يا صاحب العين "المحلوقة"! كان ذلك صديقا حميما لشكرود، حلق قرنه قبل شهرين من هذا اليوم.

وفي هذا الوقت وقف مطرب أولاد اسويلم، بين حشد من النساء المزغردات، في وسط المسافة بين الرماة والخيام، يردد بصوته الأجش نغمات "فاقو" الحماسية: - «نحن أبناء الملوك والحرب قد نزل لا بأس بالموت إذا حان الأجل...! ليلا لا لا ليلا لا... لا بأس بالموت.. الموت! الموت..! أواه آه آه...! ليلا لا لا لو لو لو...! أواه...! إذا حان.. حان...! الأجل بياه آه آه...!».

وتقارب الفارس الأعور والشاب الملبي نداءه للمبارزة. وجميع أولاد اسويلم يعرفونه، إما مباشرة أو بغير مباشرة، لكثرة أحاديثهم عنه. وقد بان الآن على حقيقته: أصلع الرأس أشيب اللحية. وليس مثل صورته التنكرية كما فعل ليلته عند أولاد عبد الرحمن، حين لم يستطع ديلول المعروف بالنباهة معرفته، إلا بعد وقت طويل من محاولات التذكر والتفكير.

واقترب القرنان من بعضهما، حتى قارب كل مدى انطلاق رصاص بندقية الآخر، الذي لا يتعدى ما بين خمسين أو ستين مترا. وضغط الفارسان على الزنادين في وقت واحد تقريبا. ومر الرصاص في فراغ فوق السرجين، لأن كل واحد منهما تسمر بجنب فرسه للحظة واحدة حال

إطلاقه لرصاصه. وعادا إلى السرجين، منهمكين في إعادة شحن البندقيتين بالرصاص والبارود. ولكن الأعور كان أسرع من الشاب بحكم تجربته الطويلة. ووجه مأسورة بندقيته إلى عدوه الذي حاول الانحراف إلى كَفَل جواده، إلا أن رصاص الأعور أصاب ترقوته، فسقط على الأرض. وابتعد الفارسان الآخران مراوغين، فيما كان الأعور ينزل عن ظهر فرسه يحز بسكين في يده رقبة الشاب المصاب. ظانا أنه شكرود آملا تقديم تلك الهدية الثمينة إلى الرئيس جرفون في وقت قريب.

* * *

رأى مطرب أولاد اسويلم مشهد المبارزة الفظيع، فتخلى عن ألحانه الحماسية، وامتلأ قلبه رعبا، وجرى منهزما زائغ البصر عائدا إلى الخيام.

وعلق الفارس الأعور رأس الضحية بجانب سرجه، وأمر الخمسين فارسا بالتقدم نحو الحي لأخذ الطبل وتصفية الفرسان الباقين. وكانوا عند ذاك لا يرون الرماة الذين خاطبهم قائدهم المسن المجرب في وقت المبارزة: - استعدوا. إن حشائش "أم ركبة" تخفينا عن أعينهم.

وما هي إلا لحظات معدودة حتى تناثر الرصاص مكثفا على كتيبة الفرسان من الأمام واليمين واليسار. واضطرت القوة المهاجمة إلى التقهقر إلى مسافة مائة متر.

وتكلم الفارس الأعور محملقا بعينه السليمة في كل الاتجاهات:

- كلاب! اندسوا كاللصوص تحت حشائش "أم ركبة" ولكنهم لن يفلتوا منا.. وأردف آخر:

ـ جبناء! قتلوا فرسين من جيادنا! وتساءل الثالث:

ـ كم أصابوا من رجالنا؟ وأجابه القائد الأعور:

ـ هناك ثمانية قتلى، وهذان الجريحان.

ـ هل سنرسل إلى ركاب الإبل ليأتوا إلى هنا؟

ـ لا وكلا.. عيب علينا: خمسون فارسا تستنجد بغيرها للقضاء على هذه العصابة الحقيرة! هكذا أجاب القائد منفعلا. ولكنه أضاف:

ـ إنما يمكن أن نضطر إلى النزول عن خيولنا والزحف على بطوننا حتى نَأسر تلك الذئاب المراوغة. وقال آخر:

ـ أو نتجافاهم من بعيد وندخل خيامهم لأخذ الطبل. وعندها سيكون واجبهم الخروج إلينا لنقتلهم أو نأخذهم بالأيدي. وعقب رجل كان في الميمنة:

ـ إن الفارسين اللذين ضربانا بشراسة من اليمين يركب أحدهما فرس أهل بوبكر ولد عثمان: "الدهيمة". وأخشى أن يكون الشاب الذي قتل غير شكرود؟

ونظر الفارس الأعور إلى شكرود البعيد منه نسبيا، ينتصب على ظهر فرسه يعيد شحن بندقيته بالرصاص والبارود، فقال:

ـ إنها والله "الدهيمة"! ولن يكون فوقها إلا شكرود أو أبوه الغائب! ثم أخذ يحل العقدة الرابطة لرأس القتيل من سرجه ورماه أرضا وهو يقول:

ـ دعوني أولا أصفي الحساب مع هذا المراهق المدلل. بعد ذلك سنرى... لقد أخطأت. على كل حال قطعت رأس عدو. ولا بأس بهذا النوع من الأخطاء...

وتقدم فارس أولاد اعميرة: فراح ولد الكيحل: الأعور، كما يعرف في أوساط أولاد اسويلم، ناحية شكرود مخاطبا إياه:

- أنا قاتل إخوتك في الماضي وأبيك في المستقبل.. فهل ستفكر في القيام بعمل ما ضدي؟ أو تبارزني مثلا..؟ إن حرب "البيسوس" بيننا لم تنته بعد!

- نعم.. قتلتَ إخوتي في الماضي. أما أبي فقد يكون الآن حاملا طبلكم... وأنا هل..؟ سترى...

واستبد الغضب بالشاب فعقد لسانه عن أداء ما أراد قوله، وغمز جنبي الدهيمة بنعلي السرج، فمرقت كالسهم باتجاه الأعور الذي بادر بإطلاق رصاصة نحو الشاب الذي مر قريبا منه، وسلم من الطلقة بأعجوبة، بفضل موهبته في الفروسية وانحرافه عن ظهر الفرس التي لم تقف به حتى صارت قريبة من موقف فرسان أعدائه. ولكنهم لم يستحسنوا التدخل في المبارزة، فذلك لا يجمل في الأعراف العسكرية لبني حسان. ثم إن القوم على الخصوص مطمئنون جدا إلى الدور الذي سيقوم به فارسهم فراح: الأعور.

* * *

وتتابعت المبارزة المثيرة وقتا طويلا، الأمر الذي عجب منه فرسان أولاد اعميرة، وقال أحدهم:

- إن هذا الشبل يأخذ من فراح وقتا ليس من المعتاد أن يأخذه منه فرسان العرب في المبارزة!

- إنما يراوغ فقط ويهرب ويتأخر وقت القضاء عليه بسبب تلك الفرس الفريدة!

وأطلق كل من الرجلين الرصاص إلى خصمه المرة تلو المرة، بدون جدوى، فإما أن ينحرفا عن طريقه، أو تخف بهما فرساهما عن مداه! وتطاردا قريبا من الحي وبعيدا منه. وتوقف القتال تقريبا ما عداهما واتجهت إليهما أنظار الحي والمقاتلين.

* * *

وسطعت شمس الزوال الحارقة، على جباه الرجال المبللة بالعرق، وحل وقت أذان صلاة الظهر في مسجد أولاد عبد الرحمن وتجمع رجالهم في مشهد مأساوي محزن. إذ كان طالبنا ولد العتيق قد خرج من انفعاله وخصامه، مصمما على اقتفاء ولده لإعادته إلى أهله مهما كلفت ظروف متابعته وقص أثره والبحث عنه من زمن. وذهب طالبنا وابن عم له في سنه يركبان جملين، يراقبان في سيرهما آثار خطوات البعير الذي كان العتيق ركبه في الليلة السابقة.

وبعد مهاجمة فرسان أولاد اعميرة لحامية أعدائهم بساعتين، كان الراكبان يريان أمامهما عن بعد أسرابا من قشاعم النسور تحلق فوق جثة العتيق، ولم تنزل عليها بعد. وبعد قليل من السير فر من قدامهما ذئبان صحراويان، كانا منذ بعض الوقت يتلصصان على الجثة من بعيد، شمّا رائحة الدماء فأغرتهما بالاقتراب، وتريثا خوفا من منظر أكمام دراعة القتيل تحركها الرياح.

* * *

وبعد أداء صلاة الظهر، شوهد طالبنا ولد العتيق شبه مصعوق، متمددا على أرضية المسجد تحت شجرته، متوسدا لفخذ رجل من أهل المسجد يعزيه في مصابه الجلل، ويصبره، ويمسد بيديه على صدغي الأب اللذين كانت الشرايين فيهما تتضارب بعنف:

– اذكر ربك... «الموت حق، والله إنها لحق»! مصائب الدنيا خير من مصائب الآخرة... قل: «إنا لله وإنا إليه راجعون»! وينطق طالبنا بصوت ضعيف يتخلله النحيب:

– لا إله إلا الله! ولا حول ولا قوة إلا به! وتنحدر دموعه على التراب غزيرة ثم يتابع: – ما خالف أنسان رأي والده إلا وأصيب بنكبة، إما في دنياه وإما في آخرته!... رباه لك الحمد! رباه لك الفضل في أن لم تجعل مصيبته في آخرته! قتل مظلوما!.. آه،، آه.. شهيد..! قتل مظلوما..! آه..!

- 11 -

جلست الفتاة الحسناء الزهرة بنت طالبنا، أمام بيت أبيها تنظر إلى جثمان أخيها العزيز، ملفوفا في كفن أبيض، بعد أن غسل وطيب. ورجال المسجد يتهيؤون لحمله إلى مثواه الأخير قريبا من الحي، لأن مدافن أجداد أولاد عبد الرحمن بعيدة من هذا المكان.

وذرفت الفتاة دموعا ساخنة على الرمل. وظلت تبكي بقلبها وعينيها على الفقيد، وبقلبها وحده، قلقا علي حبيبها وخطيبها الذي يواجه منذ ساعات قوة كبيرة من أعدائه الشرسين.

* * *

وأنهت الجماعة مراسيم دفن الجنازة، وعاد الرجال إلى حيهم قبل حلول وقت صلاة العصر بقليل، ومروا في طريق العودة بالغدير الذي تعودت الزهرة الذهاب إليه كل صباح. وسأل أحدهم:

- هل جد لكم خبر عن نتائج المعركة بين هؤلاء الحسانيين؟

- لعل الله أراد عن حكمة، إفناءهم جميعا بهذه الحرب "البيسوسية" كما يسمونها؟ وعلق ثالث:

- هي فعلا كحرب البسوس التي توجد أخبارها في الكتب، والتي دارت في الجاهلية بين تغلب الأراقم وأبناء عمهم بني بكر..!

- صحيح! وليست أقصر منها مدة، ولا هي دونها في الفتك، والقتل والرعب..!

- والفرق بينهما أن بنادق "البيسوس" أخطر من سيوف ورماح ربيعة في الجاهلية أثناء حرب البسوس!

- والفرق الآخر أن الذين يقتلون في هذه الحرب مسلمون!

- أوَ تظن أن الحسانيين مسلمون حقا؟!

- هذا رأيي... وهل تعارضه؟ إنهم على الأقل يشهدون أن: «لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله» و..

- لا... لا تقل إنهم...

وانحسم الجدل بين الاثنين بتدخل رجل مسن زجرهم قائلا:

- اتركوا هذا الشأن إلى ما هو أهم منه، يلزمنا الآن أن نرجع إلى المسجد لنختم قراءة المصحف على روح هذا المرحوم.

* * *

جلست ميمونة بنت الهادي، في خيمة ديلول، مع زوجته وبعض قريباته والعرافة، ينتظرن ساهمات إلى الجنوب. ولم يكن خبر قتل العتيق قد تجاوز الحي الذي دفن حوله. ومن حين لحين يمر فرسان يتطاردون ويتناوشون، أمام خيام أولاد احميدان. وشاهدت النسوة الفارس الشاب

شكرود. ست مرات على الأقل في تلك المطاردات. أولاها كان يطارده الفارس الأعور، وفي الثانية كان هذا هو الهارب، محاولا إعادة شحن بندقيته بالذخيرة. وشكرود يلاحقه بالدهيمة، ليضربه. وشاهدت نساء أولاد احميدان مرة أخرى مشهدا أكثر إثارة من كل ما رأين في حياتهن، وقعت أبصارهن على الشاب قادما من جهة الغرب يطارده أربعة فرسان. وأمام خيام أولاد احميدان اعترض سبيله فارس آخر من الأعداء قادم من جهة الشرق. وكان تصرف شكرود السريع للخروج من الحصار أن استل نفسه من السرج في لمح البصر، وانضم إلى جنب فرسه الآيمن، ساحبا زناد بندقيته، فاخترق الرصاص جبهة الفارس المعترض سبيله من الشرق. ولم يتأخر شكرود أن عاد إلى متن الدهيمة التي سبحت به محمحمة، بعيدا عن مدى رصاص الفرسان الملاحقين له بقيادة الفارس الأعور.

* * *

وكان ركاب الإبل من جيش أولاد اعميرة، قد نزلوا غير بعيد، ونحروا ثلاث بدن سمان من غنائمهم، وظلوا هناك يترامون باللحم والشحم، منتظرين مجيئ الفرسان ليواصلوا الزحف جنوبا. ومر وقت الزوال والظهيرة، ولا خبر عن الخمسين فارسا يجد! وانتصب الرئيس الشاب واقفا يخطب بين مجموعات رجاله:

- ... ألم أقل لكم إنهم تأخروا أكثر من اللازم والمعقول؟!

- قد يأخذ منهم تجميع قطعان إبل أولاد احميدان وقتا زائدا؟

- لا... لا... أخشى أن فراح ولد الكيحل (يعني الأعور) قد أصابه مكروه!

- لا خوف عليه. فحامية الأعداء لا قيمة ولا وزن لها.

- كلا! حدث شيء ما لا يعجبني!

وأردف آخر مؤيدا وجهة نظر الرئيس:

- وقطعان الإبل لا تستحق ولا تبرر مثل هذا التأخر الطويل!

ثم سأل:

- هل أنت يا جرفون تتصور مثلي أن الشوكة التي ذهب رجالنا لاستئصالها قد أصابتهم بشكل أو بآخر..؟

- نعم. بالضبط، هذه هي تصوراتي ومخاوفي أيضا!

- وماذا سنفعل الآن؟

- اركبوا جمالكم... هيا... أسرعوا... المسافة لا تتجاوز ساعة من هنا.

* * *

وطالت المبارزة بين شبل أولاد اسويلم وفارس أولاد اعميرة، فوق عشرات الكثبان والسهول، وفي كل النواحي من الأحياء المتجاورة. ونفذ صبر فرسان أولاد اعميرة بعد ساعة من بداية المبارزة، خصوصا أن فارسا عن أيمانهم واثنين عن أيسارهم دأبا على مناوشتهم وإطلاق النار عليهم.

وقررت قوة الفرسان المغيرة إذن الهجوم على الحي بتجافي مكان الرماة، لاستدراجهم لتغيير موقعهم، بينما سار عدة فرسان منهم لمطاردة شكرود مع الفارس الأعور لحسم المعركة بأسرع ما يمكن من الزمن.

واضطر الرماة في الأخير إلى تغيير مكانهم، وهرعوا إلى الحي في محاولة يائسة لإنقاذ الطبل. ومر شكرود غير بعيد من الحي في هذا الوقت

يتبعه أربعة فرسان، فعرج على خيمة والده، واختطف الطبل هاربا به إلى الشرق، أمام مطارديه. وبعد ساعة كان قد خزنه في ربوة تكسوها حشائش "أم ركبة" . وعاد على أثره فتصدى له الفرسان الباحثون عنه. وناوشهم وراوغهم حتى قتل منهم ثلاثة! هكذا ساعده الحظ ومواهبه أيضا! ولكن فراح ولد الكيحل: الفارس الأعور، ليس من النوع الذي تقف في وجهه الحظوظ ولا أصحاب المواهب. إنه ما زال على قيد الحياة يغلي حقدا، ويزداد عزيمة وتصميما على الرجوع إلى جيشه برأس الأفعى الصغيرة، التي أظهرت المعارك اليوم، ضرورة قتلها قبل فوات الأوان.

* * *

ووافت قوات جرفون ولد جلفون، مكان المعركة، عقب اختفاء شكرود بوقت قصير. وأبركوا جمالهم ونزلوا عنها وهاجموا الحي من ثلاث جهات، زاحفين على بطونهم. ولم تغرب الشمس حتى غادر الجيش المغير أرض المعركة، بعد أن سحق آخر فرد وجد من حامية أولاد اسويلم. ولكنهم حتى وقت المغادرة لم يعرفوا شيئا لا عن مصير شكرود، ولا عن أخبار فارسهم الذي اختفى مطاردا له منذ وقت صلاة العصر!

وقال جرفون ولد جلفون مخاطبا رجاله:

- هيا بنا. لنواصل السير الآن.. لكي نعترض جيش الأعداء القادمين من جهة حينا..

- وكيف نذهب قبل أن نعرف خبرا أو نسمع شيئا عن فارسنا المغوار: فراح ولد الكيحل؟

- كونه مغوارا، وظافرا على الدوام هو ما يظمئن عليه نفوسنا، سيلتحق بنا لا محالة! وأردف آخر:

- إنني متأكد أنه قتل العفريت الصغير، ولكنه يبحث عن طبل الأعداء الذي هرب به.

- ولا أظنه عائدا قبل العثور عليه، لأنه يضع احتمالا لأخذ بوبكر ولد عثمان لطبلنا، في حال غيابنا!

وتابع الرئيس:

- لقد ألحق هؤلاء الكلاب خسائر بفرساننا! ولكن الحامية قد أستأصلناها الآن، باستثناء قائدها الذي لم نعرف مصيره بعد..!

- وغنمنا أيضا يا جرفون أسرة مطربي أولاد اسويلم، وستصبح من الآن ألحانها وأنغامها الحماسية من حظنا.

لنذهب حالا إلى جهة الجنوب! المعركة الحقيقية ما زالت أمامنا عندما نلتقي بذلك الشيطان المقطوع الأصابع ورجاله.

* * *

وحل بأولاد اسويلم ليل حالك حزين، ساد فيه الصمت والظلام كلَّ أركان الحي، لولا لهيب نار كبيرة أشعلها رجال أولاد عبد الرحمن غرب الحي، يجمعون حولها الجثث من الفريقين بدون تمييز، ويدبرون إجراءات الدفن على ضوئها.

ولكن قلوب الجميع منشغلة، متسائلة عن شكرود ومصيره.. هل قتل؟ هل جرح؟ ولماذا يختفي كل هذا الوقت؟

* * *

في أمسية يوم المعركة، بعد غروب الشمس بوقت يسير، كان ديلول في أراضي بعيدة إلى جهة الشمال الشرقي، وجثمت حوله مئات من إبله وإبل قبيلته. وإلى جانبه ثلاثة من رجال حيه، يتعاطون الأحاديث الودية والمزاح المرح مع مجموعة من أسر صيادي النمادي، شاءت لهم الصدف أن يبيتوا معها في هذا المكان.

- السلام عليكُ[1] يا ضيوفنا الأعزاء!

- وعليكم السلام، ولكن أينا الضيوف؟ شربتم لبننا وأكلنا لحمكم!

هكذا أجاب ديلول نمداويا عاد في أول الليل، يحمل على ظهره غزالا ميتا، ويتبعه كلبان سلوقيان.

- يبدو أنكم هاربون من مكان القتال الذي رأيناه اليوم؟

- ربما... وأرض الشرِّ شرُّ أرض. ومكان السلام خير مكان. العافية لا يعدها شيء!

- أم تريدون الالتحاق بنا لتصبحوا نمادي أنتم الآخرون؟

- لا بأس بذلك: علمونا، أو بيعوا لنا بعض كلابكم مقابل بعض من إبلنا..

- هذه خطة خاسرة. لن نوافق عليها!

- لماذا؟

- سننحر الإبل إن اشتريناها، ونفقد كلابنا السلوقية التي لن تقدموا لها حاجتها اليومية من اللحم. فتتوحش، فنفقدها نحن وأنتم أيضا!

1 - «السلام عليكُ»: لفظ التحية عند قدماء قبيلة النمادي الصيادين.

وقال ديلول ضاحكا معلقا على إجابة مسامريه من النمادي:

- نعم، يقال إنكم نحارون للإبل... ها ها ها! ما رأيك؟!

- الحقيقة أننا لا نعيش بدون اللحوم نأكلها يوميا، ولكننا نصطاد من الوحوش غايتنا وحاجتنا. ثم إن لصوص الأرض كثيرون، يفعلون ما يشاؤون، ويقولون بعد ذلك: «النمادي فعلوا... ونحروا... وسرقوا ضوال الإبل»!

* * *

وتمادت السهرة بين الفريقين، بسيطة، عفوية مرحة، وهما يقايضان اللحوم بالألبان، بدون نية منهما في التبايع. ولاحظ رجل من النمادي، أن ديلول يتألم ويتأوه من حين لآخر فسأله:

- ما بالك يا هذا المشتكي؟

- يدي جريحة - كما ترى - لم أنم من جراء ألمها ليلة البارحة

- غدا في الصباح يمكن أن أداويها لك. شريطة أن توافق، وتتحمل ألم الدواء.

- بماذا ستعالجها؟

- "ظل السكين"...

- الله! ظل السكين؟!

- ألا تعرفه؟

- لا... أعرف فقط السكين، لأنها هي التي جرحتني.

- ها ها ها! ليس دوائي جارحا. نحن قوم مسالمون!

- وما هو هذا الظل السكيني يا نمداوي؟ هل هو علاج فعال؟

- اسمع.. ما اسمك؟

- ديلول ولد الديلال

- جروح الخريف لا تندمل بسرعة يا ديلول..

- أعرف...

- ودوائي كالتالي: نضع سكينا في النار حتى تلتهب وتصبح بلون الجمر...

- وماذا ستصنع بها بعد ذلك...؟ هل ستحرقني ها ها!

- اصبر! لم يبدأ الدواء بعد، ولن أحرقك... سنغسل مكان الجرح أولا بماء ساخن، أو بماء مرارة كبد الغزال إن وجدت في ذلك الوقت. ثم ندخل قطعة من الشحم أو الودك داخله.

- مؤلم جدا ولا شك!

- ثم نقرب السكين المحمرة من الجرح، لا تلامسه، وإنما تبقى لبعض الوقت قريبة منه، بالقدر الذي يمكن من إذابة الشحمة داخل الجرح...

- كم مرة يكرر هذا الدواء؟

- ثلاث مرات فقط أو أربعة، وتشفى يدك.

- أتذكر الآن أنني رأيت مرات أولاد حسان، يداوون جرحاهم بهذه الطريقة أو بشيء قريب منها.

* * *

وعلى هامش السهرة، قال سيلاك: ابن عم ديلول وصديقه العزيز:

- مساكين أهلنا الليلة لا يجدون لبن إبلهم..!

وأجابه ديلول:

- أمر بسيط. لديهم الأغنام وألبانها، وإن شاؤوا ذبحوا منها...

- صحيح، وعلينا أن لا نعود قبل التأكد من ابتعاد الأعداء.

- وفي الحقيقة كلهم أعداء: قاصيهم ودانيهم.

- وهذا ما أكده أوائلنا بقولهم: «أفضل بني حسان من ترعى الإبل فوق ضريحه»!

- وهو كذلك يا أخي!

- 12 -

واصلت قوة بوبكر ولد عثمان تنفيذ ما قرره هذا القائد المحنك، وهي عائدة إلى الشمال. وظلت حريصة كل الحرص على اعتراض جيش أولاد اعميرة العائد من أرض "الرقيطة"، بقيادة جرفون ولد جلفون. وفي مساء اليوم الثالث بعد عودة النفيرين من تحطيم الحاميتين، تواجه الجمعان في منتصف الطريق، قبل غروب الشمس بساعتين. ومن الطبيعي والمألوف بين هذين الفريقين اللذين يعرفان بعضهما معرفة دقيقة، على أساس المعارك والملاحم الطويلة بينهما، أن تبدأ المناوشات والمبارزات حينا من الوقت، قبل أن يشتبكا في قتال شامل.

وقال بوبكر صارخا في وجه أعدائه:

– تقدم يا جرفون! اقترب مني... بودي أن تقبل مبارزتي! ولكنني متأكد أنك لن توافق، لأنك لست مشتاقا إلى لقاء والدك هذه الليلة!

– نعم. استعد. ها أنا أقدم إليك يا صاحب الكفين القبيحتين...

وما إن قدم رئيس أولاد اعميرة هذه الإجابة الصارمة، وغمز فرسه لتتقدم به، حتى أحاط به المسنون من رجاله زاجرين إياه في وقت واحد:

– لا يا جرفون! هذا أمر مرفوض لك بتاتا! أبدا لن يقع هذا...

– ولن يكون... لا نوافق...

- إن أمامك أعواما، لتكتسب مدى تجربة وحنكة ذلك الوغد الماكر المراوغ، صاحب الحيل والمهارات التي لا قبل لك بمواجهتها وأنت قبل إنهاء الخامسة والعشرين من عمرك..!

إلا أن جرفون أصر غاضبا على خوض المبارزة متجاهلا رأي شيوخه الذين أمسكوا لجام فرسه لمنعه مما أراد

- تقدم، استعد! ها.. آتي إليك أيها الخنزير البري. وأعرف باليقين أنك لست مشتاقا للحاق بابنك المدلل شكرود في عالم الآخرة!

ووقعت العبارة الأخيرة موقعا مؤلما في نفوس رجال أولاد اسويلم، إذ عرفوا أن حاميتهم قد استبيحت وهم غائبون وآلت إلى الزوال. ومرق بوبكر بجواده من بين رجاله ونادى:

- وحاميتكم أنتم؟ هل تظنها أحسن حظا؟ ها هو طبلكم معي هنا... اقترب لتراه للمرة الأخيرة يا ابن الجيفة القذرة.

* * *

وتابع شيوخ أولاد اعميرة منعهم للرئيس الشاب من مواجهة القائد الكهل. وبدلا من المبارزات، حدثت اشتباكات ومناوشات في طرفي الجيشين، وقع أكثرها بين الرماة الذين نزلوا عن جمالهم، وبحثوا عن مواقع منذ اللحظات الأولى.

وما أن حل الظلام، حتى توقف التراشق بين الجانبين، وتباعدا في مبيتهما. وكان جرفون ولدُ جلفون ما يزال غاضبا أشد الغضب، يحس في نفسه خجلا وإهانة له من عدم تلبية نداء المبارزة بشكل عملي. وتحلق به

المسنون من عشيرته، يحاورونه ويجادلونه. وشجعهم على ذلك غياب الفارس الأعور: فراح ولد الكيحل المستبد دائما بهذا الرئيس موجهه ومدربه الذي لا يعصى له أمرا.

ـ الرأي السليم ألا تبارز يا ولدنا، وألا تواجه وحدك هذا الغول المجرب...

ـ ولكنها فضيحة لي... لقد طلب المبارزة، خير لي أن أموت من أن...

ـ الحكمة والصواب ما قلنا لك. والرأي الصائب أيضا أن ننسحب الليلة إلى وقت آخر...

ـ عجبا لكم! وتصرون أيضا على أن ننهزم! والمعركة لم تنشب بعد بشكل جدي!

ـ لا لا... اقبل رينا فقط.

ـ كيف أقبله وعددنا يربو على عددهم؟!

ـ المعركة التي لا تضمن لنفسك كسبها يجب عليك تأجيلها.

ـ ومن الذي قال لكم إننا غير قادرين على دحرهم غدا؟ ولماذا نؤجل المعركة؟ سيغريهم ذلك بتكثيف غزواتهم إلينا!

ـ فرساننا متعبون. وقد فقدنا أزيد من خمسهم في معركة تصفية حامية الأعداء، وذخيرتنا قليلة تكاد تنفد...

وأضاف آخر:

ـ والحرب ليست يوما ولا شهرا ولا سنة، فعلينا الآن إلغاء معركة في غير صالحنا، حتى نتأكد من ضمان النصر، فنعود إلى أرض الأعداء.

- سيقول الناس إن حاميتهم أتعبتنا وفررنا أمام جيشهم!

- ليقل الناس ما يريدون قوله. المهم هو النتيجة النهائية للحرب، وليس كلام الناس.

- وتريدون أيضا أن نذهب قبل أن يلتحق بنا فراح؟!

- فراح سيأتي على كل حال. وإن كان قد أصابه مكروه (لا قدر الله!) فلا جدوى من انتظاره.

- وقد عرفناه وأنت صبي وحتى قبل مولدك... عودنا على الانفراد عن الجيش في مهام قتالية، وكان يلتحق بنا في النهاية يسوق الغنائم وحده.

- إنه جيش قائم بذاته! بارك الله فيه وأطال عمره!

وتكلم جرفون وهو على وشك الإذعان لرأي جماعته:

- وصاحب إقدام وجرأة، يحتاج جيشنا إلى مثله في كل موقف!

* * *

وهكذا انسحب جيش أولاد اعميرة تحت جنح الظلام. وفكر جرفون راكبا فرسه في وسط رجاله: - ليت شعري ماذا ستقول عنا القبائل؟! أين أنت يا فراح؟ إنني بأشد الحاجة إلى آرائك المغايرة لاجتهادات هؤلاء الشيوخ الحازمين أكثر من اللازم! صحيح أن ذخيرتنا قليلة بسبب طول المعركة التي تطلبها القضاء على حامية الأعداء! ولكننا فشلنا! والحقيقة أنني لا ينبغي لي أن أتبع بعد هذا اليوم أي رأي يغاير مشيئتي. حتى ولو عاد فراح سأخبره أنني أنا الرئيس، وعليه الطاعة فقط.

علي من الآن فصاعدا أن أكون الرئيس الموجه المطاع. أن أبارز كيف أشاء. أن أقرر الغزو والهجوم والانسحاب وحدي، وأنا وحدي... لأنتصر نصرا مؤزرا أو أموت موتا مشرفا، والموت خير من الدناءة!

* * *

وعندما كان جيش (اقان) هاربا ملتحفا بذيول الليل، يتجرع أفراده مرارة الهزيمة في نفوسهم، غابت عن علمهم حقيقة كبيرة وخطيرة جدا. ولو أنها وصلتهم ما قرروا الانسحاب أبدا. حتى ولو لم يكن لديهم من السلاح والذخيرة غير أظافرهم: لقد أصابت رصاصة من إحدى بنادقهم قبيل توقت التراشق، عند حلول الظلام، سيد أولاد اسويلم وبردت في قلبه. وإنها لعمري كارثة أن يموت رئيس "الحلة" برصاصة طائشة في بداية المعركة. والحي ما زال بعيدا في الشمال. ووالدة شرود المختفي ظلت منذ بداية المعركة حزينة، مشفقة على نفسها من تحمل المزيدمن المصائب. ومع ذلك تذكرت أنها من نساء المغافرة المتعودات على النكبات وفقد الأحبة. ولهذا ظلت تشجع النساء، وتعزي قريبات القتلى من أفراد الحامية.

ولكن قلب الأم الحنونة، رسم لما حمل ابنها الطبل واختفى عن الأنظار مع الفارس الأعور، تساؤلات محرجة، وتحركت في وجدانها جمرات حزن تأبى الانطفاء والتسليم.

* * *

انتهى الخريف.. ومرت شهور الشتاء والربيع، ثم الصيف، والحرب سجال بين القبيلتين، تتبادلان الغزوات، وتتناوبان نيل حظوظ النصر والهزيمة. وديون الدم تقضى مرة وتتضخم تارة. والحزازات والأحقاد تتأصل وتتعمق في النفوس. على أن الشهور الأخيرة من فصل الصيف شهدت فترة سلام مؤقت، أدى بأولاد احميدان إلى الرحيل شمالا، بعيدا من ظروف الخوف والتعبئة، وما تستلزمه من تضحيات وغرامات يدفعونها تطوعا أو تؤخذ من أموالهم قسرا.

* * *

واضطجع ديلول على حصير أمام خيمته، في ليلة خريفية مقمرة، سعيدا بنزول أمطار الخريف، كالعام السابق، مع فارق عدم وقوع صواعق على الإبل في مجاثمها، وعدم ظروف الخوف أيضا، الذي حرص أولاد احميدان هذه السنة على النزول بخيامهم بعيدا عن أماكن مظانه.

وعندما كان يفكر على هذا النحو رأى راكب جمل يقصد الخيمة، فنهض إليه مستطلعا وعرف وجه القادم الذي سلم قائلا:

– السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

– وعليك السلام يا مرابطنا يا سلامي ولد الهادي.

– كيف حال أولاد احميدان: عمومهم وخصوصهم؟

– كيف اهتديت على مكاننا؟ نحن بخير، مرحبا بك.

– وما أبعدكم هذا العام من طريقي!

– هربنا من أراضي التوتر والشرور...

- بعد بحث طويل عرفت أنكم في هذه الناحية، بفضل منشدي ضوال الإبل الذين أصبحوا عندكم يوم أمس!

- والأرض هنا خصيبة نحمد الله.

واندفع ديلول في إكرام ضيفه بنية صادقة. قدم له أولا جفنة مليئة بمحلوب اللقاح، ثم ذبح له خروفا طري اللحم، ليقدمه إليه فيما بعد.

وانطلق السهر وأحاديثه بين الضيف ومضيفه، ومعهما رجال من الحي. و«الحديث شجون»: سأل سلامي مضيفه وبغير مقدمات:

- ولكنني لم أعرف حتى الآن يا ديلول: هل مرابطتكم (ابنة عمي) قد جاءت إليكم هذا العام كعادتها كل خريف؟

- نعم. وصلت هنا قبل أسبوع، نسيت أن أخبرك!

- وأين هي الآن؟

- لا شك أنها تشرب لبنها الآن أمام خيمة العرافة، انظر تلك الخيمة الغربية قرب مجاثم الإبل هي خيمة فاطمة.

- وكيف حالها؟

- بخير، ظروفها طيبة، ولكن...

- ولكن ماذا؟ هل تزوجت بعدي؟!

- لا. لا.. وخطبها غير واحد من عشيرة أخوالها، ورغبت أمها في تزويجها، ولكنها رفضت. وقالوا أن ليس في أخوالها من يمكنه شرعا إجبارها على الزواج.

- صحيح، لأنني أنا وحدي وكيلها...

- لهذا رفضت على ما يبدو أي زواج لا توافق عليه أنت. وهي

على كل حال غير مرتاحة هناك.

- لماذا؟

- فقط زوج أمها يكرهها ويمقتها، ولا يهدأ باله إذا رآها في بيته مع أمها!

- وما سبب حقده عليها؟

- هو مرابط غريب الأطوار، ومنذ قتل ولده العتيق، صار مزاجه متعكرا على الدوام.

- هل قتل له ولد بعدي؟ وكم عدد أولاده؟

- له من الذكور اثنان. أحدهما عليل أحمق: يسمونه المجذوب. والأكبر هو الذي قتل في الخريف السابق، على أيدي فرسان أولاد اعميرة.

- وما الداعي لقتله؟

- كان هاربا عن أهله ليتغرب في طلب العلم ،..

- حسنا فعل! هو إذن شهيد! طيب الله ثراه، وأغدق عليه شآبيب رحمته! ثم ماذا؟

- ظنه جيش (اقان) مستطلعا من أولاد اسويلم...

- حقا تركت الجو عندكم العام الماضي محموما! وأردف ابن عم لديلول: - وظل بعدك شهورا وشهورا محموما ومجنونا ومسعورا!

وأضاف آخر:

- وشبع العربان من قتل بعضهم بعضا! وعقب ديلول:

- إن أحدهم لا يشبع من الحرب والقتال، إلا إذا مات واندرس قبره ورعت الإبل مكانه.

وسأل الضيف:

- هل تقص علي يا ديلول مزيدا من عجائب تلك المعارك وغرائبها؟

- كلها غريبة وفظيعة، ولم أحضر بدايتها لأنني هربت أموالنا ذلك اليوم، إلى مكان قريب من مراعي إبلنا حالا. حينها بت مجاورا لمجموعة من صيادي النمادي، وقاطع المتكلم أحد جلسائه: - وداووا لك الجرح يا قليل الصبر! ها ها ها!

- لأنهم شووا يدي بظلال سكاكينهم. وفي الحقيقة كنت أشتكي وأصرخ على وجه المزاح، إن باستطاعتي الصبر على آلام أشد من تلك...

- ومتى عدتم إلى أهلكم؟

- نعم. في الصباح، كنا نتبع إبلنا، ونتريث بالعودة، أن تتأكد لنا أخبار نهاية المعارك. وفجأة نفرت إبلنا عائدة أدراجها، وبادرتُ لاعتراضها، وأجَلتُ ناظريَّ إلى الأفق الذي جفلت منه فرأيت...

- ماذا رأيت؟!

- وقعت عيناي على الدهيمة (فرس شكرود ولد بوبكر ولد عثمان) ميتة، بطنها منتفخ وأرجلها الأربعة إلى السماء، واقعة على ظهرها!

- وهل وجدته هو؟ سمعت أحاديث كثيرة عن الدهيمة وقت مروري بكم الأخير!

- علمت أن مكروها حل بصاحب الفرس. والتحق بي زملائي. وبدأنا نبحث، بعد أن هدأت الإبل...

- وماذا وجدتم؟

- فتشنا المنطقة. وفي مكان غير بعيد عثرنا على جثة رجل قتيل،

مقطوعة الرأس! ومعفرة في التراب! إنه مشهد لن أنساه ! إن قلوب بني حسان قاسية!

– وهل كانت هي جثة شكرود؟

– شبهها هذا الأحمق الجالس جنبك – يعني سيلاك – برجل من أولاد اسويلم غير شكرود، وقال: «إن رجلي الجثة تشبهان رجلي الرجل الذي ذكره».

هكذا مازح ديلول ابن عمه وصديقه الحبيب. وقال سلامي:

– ومن كان صاحب الجثة؟ وأجابه مضيفه:

– تأملت القتيل، ولم أوافق رأي سيلاك، لأنني لم أر وجه شبه بين المشبه والمشبه به.

وضحك سلامي مقهقها وأضاف:

– نعم أنتم أهل دراية بالأقدام وآثارها! تعلمتم ذلك من قص أخفاف الإبل. ثم ماذا؟ وتابع ديلول:

– لم يطل الوقت حتى رأينا يدا بشرية تمتد إلينا من بين حشائش أم ركبة، وتشير إلينا بحركات ضعيفة. وهرعنا إلى مكانها. وكانت دهشتنا شديدة، وفزعنا أشد الفزع...

– ومن صاحب اليد التي أشارت إليكم؟

– وجدناها لشكرود! وهو متمدد على الأرض، على شقه الأيسر، مكسور الساق اليمنى!

– آه! ليس هو صاحب الجثة إذن!

– نعم ليس هو... كان على وشك الموت من شدة العطش، ويتوسد رأس الفارس الأعور مقطوعا...

- ومن هو الفارس الأعور؟

- رجل شرير من أولاد اعميرة. وأردف أحد الجلساء:

- ووجدناه قد حزم كسر ساقه براية أهله الخضراء، وراية أولاد اعميرة الحمراء التي أخذها من الفارس القتيل. وعلمنا فيما بعد أن شكرود سلمه مطرب حيه رايتهم قبل نشوب المعركة بقليل، وحزمها بـ"قربوص" سرجه على عجل، واستفاد بها في النهاية لإيقاف النزيف من ساقه! يا لهؤلاء العربان! وتابع ديلول روايته أمام ضيفه المتأثر:

- بادرت بفك محلاب معلق برحلي فوق جملي، وحلبت له ناقة، وناولناه لبنها، فشرب قليلا وأغمض عينيه مغميا عليه سويعة. وكانت الدماء قد نزفت من جرحه بغزارة، ولم يستطع إيقافها إلا بجهد جهيد. إن شجاعته وصبره لا يوصفان يا مرابطي سلامي! كانت ساقه محزومة براية أبيه وراية أعدائه مخلوطتين! وسألناه: هل نحملك يا شكرود إلى أهلك الآن؟ ففتح عينيه بصعوبة وسألنا، ولسانه متعثر:

- هل عندكم خبر عن نتائج المعركة، وهل وصل جيش قبيلتنا من الجنوب؟ وأجبناه بأنا لا علم لنا بما يسأل عنه. وشتمنا شتما مقذعا. وظل لسانه المتهدج وعباراته المقيدة تكيل لنا الشتائم البذيئة: «...كلاب... رعاة حقيرون... يعبدون الإبل، ولا يبالون بالأمور المهمة..!».

- وماذا كان بعد هذا؟

- أعدنا عليه السؤال: «ماذا تريد أن نعمل، وكيف ينبغي لنا أن نساعدك؟». بعد ذلك حاول الجلوس بصعوبة، واضعا رأس الفارس الأعور في حضنه، وقد بدت عينه السليمة مشوهة بحيث لم تعد رؤيتها تختلف عن العين العوراء ثم قال:

– واحد منكم يأتي بطبلنا المخزون في مكان قريب من هنا شرقا، الآخر يفك السرج من جيفة الدهيمة، وبعد ذلك سأذهب معكم، حاولوا أن تحملوني على ظهر أحد جمالكم يا عُبّاد الإبل. وهكذا ظل يخلط الأوامر بالشتائم. وأخيرا حملناه مع السرج والطبل ورأس عدوه المقطوع، وأوصلناه إلى حيه مساء. وهنا تكلم سيلاك:

– وكانت فرحة نسائهم بقدومه عظيمة، ولو وصلهم خبر موت أبيه قبل عودته لكانت كارثة أفظع وأشنع!

وسأل سلامي ولد الهادي محدثيه:

– وماذا عن ظروف قتله لغريمه الأعور؟! هل حدثكم بالتفصيل؟

– لم يحدثنا بشيء! بل ظل يشتمنا ويلعننا ونحن نحمله إلى أهله. وهؤلاء الحسانيون متغطرسون، وكافرون بنعم المحسنين إليهم؟ وقال رجل آخر من أولاد احميدان:

– ربما أراد بتلك الشتائم التنفيس عن آلام جرحه؟

* * *

وطالت سهرة الضيف ومضيفه، فاقترح على ديلول متابعتها عند خيمة العرافة. وانتقل الجميع إليها. وحيا القادم ابنة عمه ميمونة التي تلعثمت من مبادلته الحديث أمام الناس، حياءً منها وخجلا. وأدار سلامي وجهه إلى ديلول قائلا:

– إيه... واصل حديثك. إن أبناء حسان لأهل حرب وبأس شديد!

– أجل... سمعت فيما بعد أن شكرود والفارس الأعور، ظلا بقية يومهما في مبارزات ومطاردات، من كثيب إلى كثيب، ومن سهل إلى

آخر، حتى اقترب حلول الظلام. ولاحظ الأعور وجود الطبل مخزونا في ربوة تغطيها حشائش السبط و"أم ركبة"، وحاول جاهدا اختطافه والفرار في أثر قومه. ولكن الشاب دافع عن طبل أهله في عناد مستميت. وبعد غروب الشمس بسويعة، ولم يكن الظلام قد انطبق كليا على الأفق، ليحول بين المتقاتلين، ضرب الأعورُ خصمَه، وقد كادت ذخيرة الاثنين تنفد، فأصاب الرصاص جنب الفرس وساق راكبها، وسقطا على الأرض، ولكن شكرود أطلق حال سقوطه على الأرض آخر رصاصة عنده، فاستقرت بين كتفي الأعور، وزحف إليه على بطنه ليقطع رأسه قبل أن يلتفت إلى كسر ساقه!

- عجبا لهم من محاربين أشداء! سبحان من سخرهم لهذا، وسخر هذا لهم!

وطالت السهرة الثانية، وشاء سلامي أن يتفرق الحاضرون لتسلك مجرى آخر:

- قولي لي يا ميمونة كيف أحوالك بعدي؟ لقد سافرت هذا العام أسفارا لا نهاية لها، وانفض الجمع ليبقى الحصير لميمونة وابن عمها وحدها فتجيب هي:

- أنا بخير. وقل لي كيف أحوال أبناء عمي جميعا؟

- لن أحدثك يا ميمونة كثيرا عن أخبار أهلك، بل أريد أولا أن تذهبي إليهم معي في وقت لاحق قريب إن شاء الله ربنا.

ولو لم يكن الوقت ليلا، لرأى أي ناظر إلى وجه الفتاة، مدى التأثر الذي اصطبغ به، وقد هز كيانها شعور جياش وهو مزيج من الحنين إلى

الأهل وحب الحبيب الخطيب، بالإضافة إلى وجود آفاق لمخرج مشرف من جحيم الإقامة في بيت طالبنا ولد العتيق.

- أأنهيت دراستك وتخرجت، أم لا تزال..؟

- تقريبا انتهيت.. نعم تقريبا...

- يعني هذا أنك الآن أتيت هنا مارا بنا فقط في طريقك إلى محضرة مرابطك؟!

- ولكنها المرة الأخيرة...

- والعام الماضي أيضا، كنت ذاهبا إليه للمرة الأخيرة! هل تنسى كلامك يا ابن العم؟!

- نعم يا ميمونة، عندما وصلت إلى أستاذي بعد وداعي لك السنة الماضية، كلفني بأداء خدمة له، ضمن مجموعة من طلاب محضرته. واقتضى منا السفر المرور بشواطئ المحيط وعبور نهر السنغال جنوبا. كنا نشتري بعض الحوائج من سفن الروم، ورأيت بعدك العجائب والغرائب!

- والآن ماذا وراءك من الأخبار وماذا أمامك من الأسفار؟

- سأرجع في الأسابيع القادمة إلى مرابطي - حسب موعدي معه - وسيكتب لي إجازة التخرج. لم أزر أهلي بعدك في العام الماضي، وربما أرجع إليهم بعد شهرين من الآن، إن شاء الله، وستكونين معي طبعا.

- معي أنا؟!

- نعم، ويجدر بك أن تودعي والدتك وأخوالك قبل إيابي من الغرب.

- أودعهم! ماذا تعني؟

- أعني يا ميمونة أنني سأدعو الآن ديلول وجماعته، قبل أن يناموا...

- لأي شيء تدعوهم؟!

- ليكونوا شهودا على عقد زواجنا الليلة.

- ولكنهم يا سلامي زناقة، لا يصلحون شهودا عند أبناء الزوايا! خصوصا في أمور من هذا النوع الذي تتكلم عنه... هل نسيت الأحكام والفقه الذي تعلمته زمنا طويلا؟ ها ها ها! إن هؤلاء القوم مجرد رعاة ينمون مواشيهم!

- أعرف. ولكن الشرع يعتبرهم من عموم المسلمين. فلو اتفقت جماعة منهم "مستفيضة" على رؤية شهر رمضان، يجب الصوم علينا تبعا لذلك. وينطبق نفس الشيء على حال رؤيتهم لهلال شوال، فيلزمنا الإفطار مثلا...

- أنت أعرف مني بالأحكام. وأنا لا أعرف تمييز حرف عن حرف. ولكنني لا ينبغي لي الإقدام على شيء مما تقول إلا بحضرة أمي وأختي أو استشارتهما على الأقل، ولو شكليا!

- ومع ذلك أنا ولي أمرك الشرعي المتصرف فيك - مع رضاك - وسأكتب نص عقد الزواج بيننا، وتبقى عندك نسخة من هذه الوثيقة، تحتفظين بها في انتظار عودتي.

* * *

ولاذت الفتاة بالصمت، منتظرة تنفيذ ابن عمها لخطته. وحاول هو التعجيل بالأمر، ناهضا إلى استدعاء رجال الحي، وجمع الحطب لإشعال نار، ليكتب على ضوئها عقد الزواج.

* * *

وكانت فاطمة العرافة مضطجعة، داخل الخيمة التي جلس الاثنان أمامها، تتخبط وتتشنج جميع أعضائها، باعثة من فمها ومنخرها شخيرا ونخيرا وصراخا فظيعا. وسأل سلامي جليسته:

- ما بال هذه المخلوقة؟!

- أصيبت بنوبة صرع تنتابها من حين لحين.

- مسكينة! أجارنا الله مما ابتلاها به!

- قال أخوالي إنها متلبس بها عفريت يسكن في السماء، وينزل إليها كل مرة شاء، ويخنقها على ذلك النحو، وتبقى مصعوقة حتى يفارقها! وإنني أخاف مساكنتها حتى لا يغلط العفريت فيمسني بدلا منها!

- لا خوف عليك. أنت من أسرة صلاح يهابها العفاريت والشياطين. وستذهبين معي بحول الله بعد شهرين.

وارتفع شخير وصراخ العرافة. واستمعت ميمونة إلى ابن عمها يتمتم بحجاب يتلوه:

- «بسم الله الرحمن الرحيم. اللهم أجرنا من مكاره الدنيا ومساوئ الآخرة. اللهم احفظنا فيمن حفظت، ونجنا فيمن نجيت..».

ـ أعتقد يا سلامي أن من الأصوب بقاءك هنا غدا، حتى ننظر في إمكانية تنفيذ ما اقترحت. الليلة لا يمكن فعل شيء وهذه المخلوقة في حال كهذا الحال!

ـ لا بأس بتأجيل المسألة إلى الغد.

* * *

وفي الصباح ذهب ابن عم ميمونة باحثا عن مركوبه، مقيدا قريبا من الحي في انتظار إنهاء مهمته ومواصلة سفره. ورافقه ديلول، وشاء سلامي استئناف الحديث الذي كان قطعه في الليلة السابقة:

ـ ... وأين شكرود الآن؟ وهل شفي من كسر ساقه؟

ـ تقريبا شفي، وما زال به ظلعان بسيط. ورغم ذلك قاد المعارك الظافرة قبل الشفاء! وهو اليوم رئيس قبيلته، وآمرها وناهيها المطلق!

ـ كل هذا لأن أجله لم يحن بعد!

ـ إنه نسخة طبق الأصل من والده بوبكر. وبينهما فرق واحد...

ـ وما هو؟

ـ إنه سيتزوج في هذا الخريف بامرأة من أصل زاوي!

ـ من هي؟

ـ أخت ميمونة.

ـ لأم...

ـ طبعا لأم. وهي فتاة حارت الألباب في روعتها! يكفيك من وصفها أنك لو رأيتها لأقسمت بالله جازما إنها ميمونة بدمها ولحمها... بأسنانها الناصعة المفلجة المنقطة بالبياض، بعينيها السوداوين... بـ...

- نعم يكفيني من وصفها يكـ . . .

- ها ها ها . . .! تغار عليها الآن لأنها ابنة عمك، وقد قررت الزواج بها كما قلت لي! ولكن ثق أن زوجتك تتفوق جمالا في بعض الجوانب على زوجة رئيس أولاد اسويلم التي هي درة نادرة . . .

- نعم. يكفيك. وحسبك من هذا الموضوع . . وقل لي ما شأن هذه المرأة التي تسمونها العرافة. ومن أية قبيلة هي؟

- تلك المرأة يا مرابطي، تنمى في أصلها إلى إحدى قبائل الزوايا القاطنة بأرض الكبلة أو الساحل، لا أدري بالضبط . . .

- وكيف التحقت بكم؟

- كان ذلك قبل سنوات حين نزلنا أرض "الخط" . إنها غريبة بائسة بلا أقارب ولا أهل، التجأت إلينا، ولم نقصر في الإحسان إليها. ولكن طلبتنا: أولاد عبد الرحمن، يحقدون عليها ويشهرون بها!

- لأي هدف يفعلون ذلك؟

- لست أعرف! وهي مصابة بداء الصرع.

- هذا ما رأيت البارحة والعياذ بالله!

- لم ندرك في بداية قدومها إلينا حقيقة مرضها لمدة أعوام. وذات مرة نزلت صاعقة على خيمتها وأعادت إليها داءها بنوبات متقاربة

- أعاذنا الله مما ابتلاها به!

- وعلى كل حال نحن نتصدق عليها، وندفع لها بعض الزكاة. ثم إننا نتبرك بحجابها لأنها مرابطة. وكذلك نتسلى بـ"قزانتها" التي غالبا ما أخبرتنا فيها بأشياء وجاءت كما وصفت.. وفي بعض الآحيان ها ها ها . . . تأتي الأمور عكس رأي "القزانة" تماما ها ها ها..!

* * *

لم يعد شكرود الشاب المدلل، ولا الفارس الهاوي المتدرب، بل أصبح بالفعل رئيس القبيلة المحترم المهاب. وحكم عليه هذا المنصب بتغيير سلوك الشباب في وقت مبكر من حياته. ويستشير شيوخ العشيرة في الأمور العسكرية والسياسية، ولا يفعل في النهاية إلا ما يشاء هو ويقتنع به. حذرته الجماعة في الشتاء والربيع السابقين من الاشتراك في معارك دارت بين القبيلتين المتطاحنتين، ورفض رأيها وأبلى بلاءً حسنا رغم اعتلال ساقة، وأعطاه ذلك سمعة طيبة، فوق ما كان قد حصل عليه في معركة قتل الفارس الأعور. وفي نطاق مهابته وزرانته اللتين تحلّى بهما، أراد إقناع الأهل والأتباع والحلفاء والأعداء؛ على حد السواء بأن بوبكر لم يمت، لأن وجوده بات يمتد خلال شخصية شبله المغوار.

* * *

وقبل هذا الوقت بسنتين، شكلت خطبة هذا الشاب لفتاة من أولاد عبد الرحمن (الزوايا) محورا لأحاديث متشعبة لا تنتهي، وسرت في الحي دعاية غذتها النساء خاصة تقول: «إن الحساني إذا تزوج ببنت مرابطة، خابت ذريته. وجاءت مجردة من طباع أجدادها الصناديد...» والآن، وقد أصبح الشاب رئيسا؛ فلا أحد يستطيع أن ينبس ببنت شفة ضد مشيئته، سيما في أموره الخاصة.

وجلس وحده في أحد الأيام، في ظل المساء لخيمة أمه، على زربية صغيرة موروثة على الجد الثالث، وفكر في بعض الأمور، ثم نادى من يرسله إلى صديقين له من أترابه، فوصلا حالا:

- كيف حالكما أيها الأصدقاء؟ وأجابه أحدهما باسما:

- نعم أنت تجهل أحوالنا لأننا لم نعد نجدك. إذ فضلت مجالس الشيوخ على الشباب!

- حُكم علي بالاكتهال، بل الشيخوخة قبل إبانهما! ولكننا نبقى أصدقاء يا أولاد العم!

- ولماذا دعوتنا الآن؟ لا أظنك عائدا إلى معايشة الشبان يا "شيخ"!

- أدعوكما لأداء مهمتين صغيرتين، خاصتين بي.

- خاصتان بك؟

- بالتأكيد.

- وما هما؟

- أريد من أحدكما الذهاب إلى أولاد احميدان. فأنا بحاجة إلى بعض الذبائح والحلائب أيضا.

- لأنك ربما تصبح رب أسرة في القريب العاجل؟

- بالضبط في الأيام القادمة. لهذا أريد من ثانيكما الذهاب إلى أولاد عبد الرحمن. وليصطحب كل منكما بعض الفرسان من زملائه.

وسأل الشاب المأمور بالتوجه إلى الزوايا:

- وماذا تريد من الطلبة؟ هل تعني أننا سنقوم بإبرام عقد الزواج نيابة عنك وبتفويضك...

- هذا ما أردت...

- لماذا لا تذهب بنفسك إلى مخطوبتك!

ـ لم تعد "سني" تسمح لي بالسفر إلى عشيرة من الزوايا، خاطبا يجري جواده، كما لو كنت خالي البال حرا من المسؤوليات الثقال. إن والدي قد قُتِل ولم آخذ دينه من رقاب الأعداء!

ـ إذن نحن نخطب ونتولى العقد؟!

ـ وتأتون بالزهرة.

ـ حاضرون.

ـ نعم وخذوا معكم جملا وهودجا مناسبين.

ـ لعلك تريد زواجا بلا حفلات كما كنا ننوي؟

ـ لا داعي لذلك لأني الآن شيخ كما تعلمون!

ـ بالرغم منك!

ـ بالرغم مني!

ـ ومنا نحن أيضا!

ـ هو كذلك، ولكن يكفينا ثرثرة. قوما بأداء المهمتين يا أولاد العم.

ـ اطمئن. سننفذ أوامرك كما يجب. وعلى أحسن وجه.

* * *

ولم يوجه أحد أي سؤال إلى الزهرة بنت طالبنا ولد العتيق حول رأيها في التزوج برئيس أولاد اسويلم. وحدثت نفسها وهي تنظر إلى جماعة المسجد يتحلقون بأبيها، ومعهم مندوبو شكرود الذين أرسلهم للإتيان بها. وفهمت الفتاة أن للاجتماع علاقة بزواجها، ففكرت: ـ كنت أفضل أن يأتي بنفسه! وأن تكون أختي العزيزة: ميمونة بنت الهادي

حاضرة! وأن تجري احتفالات منقطعة النظير، وأن ترى بنات عمي وصديقاتي شكرود بقامته المديدة يركب جواده الجميل، تتدلى على خاصرته كنانة الذخيرة، وأن يضرب الرصاص وهو راكب حول الراقصين على الطبول! يبدو أنه لا يريد شيئا من ذلك! وأرسل إلي - على ما يبدو - رسلا يحملوني كالبضاعة أو قربة ماء! لو كنت متزوجة اليوم بأحد أولاد عمي لأظهر بي حفاوة أكثر، ولما دارت الأمور على هذه الصورة!.. ولكن حبيبي شكرود هو الذي سأذهب إليه! ستقول بنات عمي اللائي لا تخلو أنفسهن من غيرة مني وحسد لحظي إنني أغادر أهلي في ظروف مهينة للكرامة! طبعا لأنهن لم ولن يجدن شكرودا آخر في الدنيا غير الذي ظفرت أنا بقلبه! وانساقت الفتاة في أفكارها، ناظرة إلى أسفل، متظاهرة بجهل أو عدم فهم ما يجري في الحي وخاطبتها أمها:

- هل رأيت القوم جالسين في المسجد؟

- أرى كل يوم رجالا في المسجد!

- ولكنهم الآن جالسون فيه بعد صلاة العصر. ليس هذا وقت تواجدهم هناك. هل تعرفين لماذا؟

- أبدا، لا يا عائشة.

- إنهم يبرمون عقد زواجك مع شكرود!

- ماذا تقولين يا أمي!

- قلت ما سمعت وعلمت. غدا ستذهبين. والليلة علينا أن نضفر شعر رأسك ونصبغ يديك ورجليك بالحناء.

وتظاهرت الزهرة بالغباء أمام أمها:

- لماذا أذهب عنكم يا عائشة؟ وأختي ليست هنا! لماذا أذهب؟

ـ لأن أباك زوجك لرئيس أولئك العربان، ولا يستطيع أن يخالف له أمرا، أو يحبط له طلبا. كنت أفضل لك فتى من أهلنا، يكرمك رغم خموله، ويبدي عناية بك أكثر مما...

وارتمت الفتاة على الفراش، وكأن صدمة عنيفة قد صرعتها! وغطت وجهها بملحفتها لائذة بالصمت، مبرهنة على الاستياء مما آل إليه أمرها! وهي مرتاحة في الواقع لما يجري، وإنما العادات والأعراف تتطلب منها أن تخجل وتحتج، وتخفي وجهها عن الناس.

وتابعت الأم كلامها جالسة قبالة رأس ابنتها:

ـ ... ستذهبين غدا بدون شك. أرسلوا إليك جملا عظيم السنام وعليه هودج بديع! المهم يا بنيتي أن تتذكري دائما أنك من أصل زاوي، ولا تنسى أداء واجباتك الدينية، وأن تربي أبناءك في المستقبل تربية تختلف عما يربي عليه العربان أولادهم... أرجو أن ترزق أختك ميمونة "حسن السعد"! لقد خطبها أفراد من أخوالها الطيبين، فرفضتهم جميعا! ولم نستطع إرغامها لأنها يتيمة وقد بلغت سن الرشد، وأولاد عمها غير موجودين هنا! اللهم وفقها لما فيه رشادها و"سترها". طالبنا لا يرغب في بقائها في بيته! وهي لا ترغب في الزواج! يا لطيف ألطف بها، ويا ساتر استرها...!

* * *

وخرج الضيف سلامي ولد الهادي من خيام أولاد احميدان، بعد أن بات عندهم أربع ليال وسار ديلول إلى جنبه مشيعا، وحوله رجال من قبيلته يسوقون قطيعا صغيرا من الإبل مختلف الأسنان.

ـ هل ترى هذا القطيع يا سلامي..؟

- وما شأنه؟

- إنه حق القلم وحق السيف..؟

- ماذا تعني يا ديلول؟!

- بعضه زكاة ترسل إلى أولاد عبد الرحمن... والبقية لأولاد اسويلم.

- بارك الله فيكم! الزكاة واجبة على كل مسلم في ماله كالشهادة والصلاة والصوم والحج.

- والزكاة التي يأخذها أولاد حسان ما رأيك فيها؟

- هذه ربما تكون فقط عطايا لمداراتهم.. هذا ظني!

- نحن نداري كثيرا من الناس!

- ولكن الزكاة خاصة، التي يستفيد منها المؤمنون الفقراء مهمة وواجبة، وتطهر المال. إن الثروة التي لا تدفع عنها الزكاة نجسة والعياذ بالله من حال أهلها. ولا بركة فيها ولا خير، أجارنا الله وإياكم من غضبه.

- إذن أستودعك الله يا سلامي حتى نلتقي مستقبلا.

- قبلت ورضيت. وأنت وديعته أيضا. وأوصيك بالعناية بميمونة. إنها الآن زوجتي. كانت تأتيك من جهة أخوالها. أما الآن فهي تأتيك من ناحيتي. إن معروفك الذي أسديت إليها في الماضي لا ينسى، ولن أغفل عن مكافأته لك. وخاصة بصالح الدعاء لك بعد كل صلاة أقوم بأدائها. سأمر عليكم إن شاء الله بعد شهرين لأخذها إلى أهلها، أعني أهلي أنا وهي.

- هل ستمر زوجتك بأخوالها لتوديعهم قبل ذهابها معك؟

- ربما... ممكن. أمرتها أن تفعل ذلك في انتظار رجوعي، ولكنها رفضت، حتى آتي أنا معها إلى أخوالها وأسلم على أمها، ويكون وداعها لأخوالها بحضرتي، وذهابي بها من عندهم. ولا بأس بتلبية رغبتها تلك.

وسأل ديلول سلامي بعد الوداع:

- حدثتنا أنك رأيت على شواطئ المحيط عربانا يتقاتلون، للفوز بشراء الأسلحة من بواخر الروم: فهل تظن أن من لا سلاح له يستطيع الحصول على شيء أو شراء بعض تلك الأسلحة؟

- ما لكم والأسلحة؟ هل أنتم حسانيون؟

- أبدا، وإنما الزراف والغزلان والنعام كثيرة هنا، وقد لاحظت أن ابن عمي سيلاك يصطاد يوميا، ولكن ذخيرته قليلة وسيتوقف عن الصيد بعد أيام من الآن. إننا نريد بنادق وذخيرة أكثر...

- رأيت حقا سفنا رومية، تبيع السلاح والسكر والقماش، ويبادلونها بالذهب والصمغ والعبيد فقط. والعربان يحتكرون شراء الأسلحة.

- وما هو أقرب أمكنتها!

- بعيدة جدا جدا... ولا أنصحك بالذهاب إلى تلك الناحية، لأنكم لن تحصلوا على شيء.

- ولكنك قلت لنا إن هناك أمكنة حرة، يتبايع فيها الروم مع كل من وجدوا.

- صحيح. في مدينة (سنلويس) وما يليها من الشمال يسيطر الترارزة على عملية التبايع. وفي الشواطئ البعيدة من هناك شمالا يتعامل الروم مع كل الناس. ولكنها أرض بعيدة من هنا وغير آمنة..

- إذن تفهم من أسئلتي لك أننا بحاجة إلى الذخيرة لممارسة الصيد؟

- نعم. ولن أدخر جهدا في الحصول على ما أمكنني منها قبل عودتي إليكم.

* * *

وعندما كان شكرود ينظر إلى موكب عروسه قادما إلى الحي ضحوة، وهي قابعة على ظهر جملها وراء ستائر هودجها المزين بالبرود الصفراء، والحمراء، الخضراء، وأخذ بعض الشبان يضربون البارود احتفاءً بالموكب القادم، وضرب الطبل الكبير ضربات الفرح؛ في هذا الوقت وقف أمام خيمة شكرود الجديدة فارسان وراكبان. وقال الأولان، وكانا يقومان بمهمة استطلاع: إن أولاد اعميرة يستعدون للغزو، وينتظر قدومهم في ظروف أسبوع. وقال الأخيران؛ وهما من أولاد احميدان: إن بعض أفرادهم رأوا قبل يومين تجمعا من رجال مسلحين، لا تعرف هويتهم، وهم في جهة الشرق البعيد.

وانتصب الرئيس بقامته المديدة أمام القادمين الذين تجمهر حولهم جمع من رجال الحي، وهو ينظر استراقا إلى عروسه، ووجهه مقبل إلى مكان التجمع، ثم قال:

- أما أنتم يا أولاد احميدان، فكثيرا ما أخبرتمونا بأنباء كاذبة؛ لأنكم جبناء وحقيرون. انزلوا قريبا منا نوفر لكم الحماية، أو اهربوا بحيواناتكم التي تعبدونها إلى الجحيم، لعنكم الله وإياها. وأما أنتما يا فارسينا المستطلعين، فاستريحا. سنعلن التعبئة لاستقبال الأعداء وسيرون أننا لم نتعب من حرب "البيسوس".

ـ لا مجال للراحة قبل أن نلحق بهم الهزيمة النهائية. فغزواتهم تتقارب بوتيرة أسرع من الماضي! وعلق شكرود على هذا القول الصادر من أحد الفارسين العائدين من مهمة الاستكشاف:

ـ يحاولون قضاء ديون الدم، وهيهات!

ـ هيهات ولكن: هل عاد أبناؤنا الذين غابوا قبل شهور لاستجلاب الأسلحة؟

ـ نعم. عادوا قبل أيام، وأتوا بالذخيرة من جهة المحيط.

ـ هؤلاء الأوغاد لا يملون الحرب والقتال!

ـ هكذا يتصرفون لكي يتحدث عنهم الناس كما تكلمت أنت الآن. وقد قال لي والدي قبل قتله بشهرين: «إن حرب البيسوس القائمة بيننا معهم، لن تنتهي قبل القضاء التام على إحدى القبيلتين...» والمهم ليس الأسلحة والذخائر. إن العامل الحاسم هو نوعية المقاتلين.

- نحن مستعدون يا شكرود كما كنا.

- أدري.. وتقول القبائل خارجنا: «إن أولاد اعميرة أكثر منا عددا ومالا، وأمهر في أساليب المراوغة والحزم والدهاء، وأننا أكثر منهم شجاعة..».

- لنا الحق أن نعتز ونفتخر بمثل هذه الشهادات.

- وهذا الفارق الحساس سيضمن لنا التفوق عليهم، مهما طال أمد القتال، رغم مضاعفتهم لصولاتهم وغاراتهم.

- نحن متعطشون إلى لقائهم في كل لحظة.

- أعرف... نادوا على شكار ولد الفائز ليأتي إلى هنا...

- ها هو قادم. وانزوى الرئيس وابن عمه الفارس اللامع والفتى المحبوب في أوساط قبيلة أولاد اسويلم، وتبادلا كلمات قليلة:

- هل تم كل شيء؟

- وعلى أحسن ما يرام يا شكرود.

- عد إلى الزهرة، وخبرها أنني لن أستطيع السلام عليها قبل الليل.

- بسبب "خجلك"؟

- بل مشاغلي.

- سأبلغها، وأذهب حالا على رأس فرسان مهمة الاستطلاع الجديدة.

- إذن مع السلامة.

- أستودعك الله يا ابن العم.

- 13 -

وسار سلامي ولد الهادي غربا إلى حيث توجد محضرة أستاذه في منطقة (آمسَّاقة)، وكله أمل أن يسارع شيخه بوداعه إيذانا بتخرجه النهائي من المحضرة. وفي هذه الحالة سيعود في أسرع وقت ممكن إلى أهله مصطحبا زوجته العزيزة ميمونة بنت الهادي وصفة العالم المتخرج من المحضرة، متقنا لمختلف العلوم الإسلامية والعربية. وعند وصوله إلى أستاذه استقبله بالبشاشة قائلا له:

- لقد كتبت لك الإجازة وسنودعك في أمان الله، راجين لك من المولى جل شأنه كل التوفيق، وأن تنجح في بث العلم وتدريسه. إن طلب المعرفة فضيلة فوق كل الفضائل، ولكنها لا تتم إلا بأبلاغها وإيصالها إلى صدور المحتاجين لها. وعقب الولد الأكبر من أبناء الأستاذ على قول أبيه:

- نعم، ولكننا سنبعث غدا قافلة أخرى "جالبة" بعض المواشي إلى جنوب المغرب، بهدف شراء بعض الأشياء من هناك. فهل لك أن تؤجل وداعنا إلى أن نعود مع أفراد من الطلاب من أداء هذه الخدمة؟

- مستعد، وسعيد بأداء أية خدمة لكم يا أشياخي. قال هذا وأحس وخزة مؤلمة في صدره: ...لقد تسرّعت بقبول هذه الخدمة! يجب أن لا أتأخر طويلا عن ابنة عمي الحبيبة، سيما وأنها الآن زوجتي! وانساق

في أفكار الندم على ما بدر منه من موافقة على طلب ابن شيخه الذي أردف:

- القافلة تنطلق غدا صباحا، وقد يستغرق سفرها أكثر من شهرين.

- سأكون مستعدا لمرافقتها. وعاد إلى تفكيره: ...شهران فقط! والعودة إلى ميمونة من هنا أسبوعان أو ثلاثة. ليس هذا زمنا طويلا. لقد قضيت مع أشياخي عشرين سنة وأكرموني وعلموني، فكيف لا أقبل اختتام عهود تلمذتي بإنجاز هذه الخدمة؟! ولو لم تتفق مع رغبة أستاذي لما أعلنها ولده. وتكلم الشيخ من جديد

- هذه هي إجازتك يا سلامي، وأريد تنبيهك إلى رغبتي في أن تطالع كتب المتمات كالمنطق والأصول والتعمق في علم الكلام. باستطاعتك أن تباشر التعليم من الآن، وأنما نصحتك على هذا النحو من التوجيه لتوسيع آفاقك الفكرية، لتأخذ بناصية التعابير الموفقة عندما تشرح معلوماتك لطلابك في المستقبل. وتكلم ابن الأستاذ مكملا:

- وستكون أمامك فرصة لشراء تلك الكتب من مكتبات مراكش.

* * *

وسارت القافلة شمالا منطلقة من جنوب منطقة (تيرس). ولم يكن اصطحاب سلامي لها ضروريا، لولا أن من أهدافها شراء الكتب، الأمر الذي يحتاج لانتقائها من جانب ذي بصيرة وخبرة بها. ولا أفضل من سلامي لتدبير المسألة. وهو الطالب المجتهد المتخرج بتقدير خاص من شيخه.

وبعد شهر ونصف، استعدت القافلة للعودة جنوبا، وقطرت جمالها مودعة مدينة مراكش. ودخل سلامي حينذاك في حوار طويل مع زميلين له من أفراد المجموعة أرادا التأخر في أرض المغرب:

- هل أنتماو جديا، مقرران البقاء هنا، لتنفيذ ما اعتزمتما عليه؟

- نعم. وندعوك للبقاء معنا و...

- وكيف سيتم الأمر؟

- ببساطة: سنذهب إلى مدينة فاس. وأمامنا سلطان المغرب الذي ثبت عنه أنه يكرم الشعراء ويطرب للمدح بالشعر العربي الفصيح...

- وأنتما شاعران حقا!

- وسنشنف أسماعه بقصائد عصماء، تحرك وجدانه وتهز عطفيه...

- ولن نقبل من الجوائز إلا مساعدتنا على أداء فريضة الحج.

- وهل أنتما متأكدان من نجاح مطلبكما عند هذا السلطان الذي لا يعرفكما؟

- تماما، وحسب المعلومات التي وجدناها عند من جربوا نفس الوسيلة والطريقة قبلنا.

- يعني هذا أنكما أخبرتماني بالأمر ليصبح الحج بالنسبة إلي فريضة؟!

- ألم يكن فريضة من قبل؟ وقال الشاعر الثاني:

- ومنذ أن أنزل الله ملته على محمد سيد الكون ﷺ!

وتكلم سلامي وصوته مصبوغ بأصداء حزن حائر:

– فريضة فقط بشرط الاستطاعة والقدرة على القيام به.

– إذن هذه فرصة سانحة أمامنا. ومعنى هذا أنه صار واجبا علينا جميعا.

* * *

فكر سلامي باستفاضة. وهو في طريقه الى فاس مع صديقيه الشاعرين: ـ ما من شك في أن الحج وزيارة قبر الرسول ﷺ مكسب عظيم وحلم عزيز، ما كنت أطمح إلى تحقيقه مدى الحياة! لن يكون بعد ذلك إلا الخير واليمن! طبعا يمكن لميمونة أن تسيء الظن بأسباب تأخري! لأنها تجهلها. فهل يا ترى ستقول لنفسها إنني لم أف بالعهد؟! ولكنني سأعود إليها بحول الله وقوته في ظرف سبعة أشهر قادمة. قالوا إن السفر بالباخرة يستغرق خمسة أشهر أو أقل: والعودة إلى أرض (الرقيطة) يمكن أن تتم في شهرين ونصف من السير الجاد. لا بأس إذن بالسفر. ولن ينتج بعد زيارة المشعر الحرام والروضة المشرفة إلا ما يسر الأهل والزوجة، وسأدعو لهم الله جميعهم بالخير والعافية في الحياة الدنيا والآخرة. هناك أماكن استجابة الدعاء.. ولكن يا إلا هي هل ستغضب ميمونة، هل ستقلق..؟ لقد سئمت البقاء في خيمة زوج أمها الحاقد عليها، وفتح لها باب التحرر من مضايقاته، والالتحاق بالأهل الذين سيكرمونها، كان علي أن لا أذهب. تسرعت! لو لم أكن هنا لما وجب علي الحج، لأنه كان مستحيلا، ولكن هذين الشاعرين المغامرين المصابين بحب التطلع، قاداني إلى تحطيم عهود قطعتها بنفسي لابنة عمي: ﴿والشعراء يتبعهم الغاوون، ألم تر أنهم في

كل واد يهيمون... ﴾ صدق الله العظيم! ولكن.. ولكن: الله! الله! يا نفسي ويا خشيتي ووساوسي! إن مقام إبراهيم والكعبة أمامي! والروضة الشريفة..! حلم عزيز لم يكن في مقدوري تحقيقه! سأطلب لميمونة كل الخير من الله في أماكنه المقدسة، وأحمل إليها ماء زمزم. إذن سيكون لتأخري ما يبرره، بل ما يرغب فيه.

* * *

ومرت تسعة شهور، ثقيلة مثل ليالي الداء على المريض، أو كليالي آخر شهر الصيام على الصائم المتعب جوعا وعطشا، غير أن هذا ينتظر الإفطار وعيده، والفوز برضى المعبود. أما ميمونة بنت الهادي فقد انتظرت، عللت نفسها بمختلف التصورات. والآن عجزت عن التبرير. واستبدت بها مشاعر القلق والغضب واليأس، مزدحمة في مشاعرها. عادت إلى أخوالها بعد انقضاء فصل الخريف ولم تخبر أحدا بزواجها في البداية، آملة قدوم زوجها ليتولى هذا الإعلان بنفسه. ويكون حضوره، فخرا لها ومصدر اعتزاز، ورمز تحرر، ودست يوم قدومها ورقة العقد في زاوية من صندوق لأمها ونسيتها شهورا متتالية، ثم بحثت عنها يوما ولم تعثر لها على عين ولا أثر. وقالت لنفسها: - إما أن المجذوب قد مزقها فيما يتلف من أثاث البيت والأشياء الأخرى من حين لحين؟ أو يكون زوج أمي قد اطلع عليها في إحدى نوباته العصبية فمزقها شر ممزق؟!

ولم تزل طوال تلك المدة ناظرة بعينيها الحزينتين، مستفهمة بهما جهة الغرب في انتظار عودة ابن عمها الحبيب الذي أعطاها عهدا فتح لها

بابا للتحرر من حياة التطفل ا لمهينة. رأت يوميا عشرات الركبان من مسافرين ومنشدين لضوال الإبل، وظنت كل واحد منهم زوجها، ولكن عبثا.

واختلست السمع ذات ليلة لأمها المدافعة عنها، أمام زوجها الغضبان، جالسين أمام الخيمة:

– لم أكن قط مرتاحا لابنتك هذه. وها هي الأيام تبرر خوفي منها يا عائشة!

– ولكن حملها شرعي يا طالبنا!

– فمن الذي يستطيع القول إنه ناتج عن زواج شرعي؟

– جماعة كبيرة من الناس.. سألتها اليوم لما رأيتها تبكي عن ظروف زواجها، فقالت إن الشهود عشرون رجلا...

– آه..! جماعة أولاد احميدان الزناقة الجهلة، وفاطمة الدجالة! أف على مثل هذا من جماعة أو شهود!

– الرجل ابن عمها ومن أسرة آل الهادي. هذا ما ثبت لدينا من الخبر!

– لطالما ثرثرت وملأت الدنيا بأخبار آل الهادي! من قال ذلك؟

– كتب لها عقد الزواج.

– وأين هو؟

– أتلفه المجذوب يوم حطم الصندوق، في الشهر الماضي وفرق كل ما فيه.

– وهل كان ولدي مجذوبا فقط أو أحمق، لتحصل منه ذريعة مبررة لفسوق ابنتك؟!

- لا إله إلا الله إن ميمونة مسلمة عاقلة ومحافظة على دينها وسمعتها وعرضها.. لكن: إنا لله وإنا إليه راجعون! فهل ترحمها معي في انتظار رجوع ابن عمها؟

- لا أرحم من كان بسعيه بعيدا من رحمة الله وبريئا منها.

- لا تفعل بالله عليك. إنها في وضع لا ينفع مثلها فيه إلا أصحاب المروءات!

- لم أكن أبدا مرتاحا إليها. واليوم لا أريد أن أراها في بيتي بعد هذا.

- لا تفعل أناشدك الله يا طالبنا! قالت هذا وأجهشت في البكاء، ورد عليها الرجل:

- إن وجودها عندي سيشوه سمعتي وسمعة آل العتيق كلهم!

- لا إله إلا الله! إن ابنتي...

- محمد رسول الله! إن ابنتك فاسقة، ولا مكان لها في خيمتي بعد هذه الليلة.

* * *

غادر طالبنا زوجته متوجها إلى المسجد لأداء صلاة العشاء. وبقيت باكية. وتحرك قلبها صاعدا هابطا في انفعال شديد، يقويه حبها لابنتها وثقتها بها وشفقتها عليها من جهة، وشعورها بالعجز التام عن أي تأثير في زوجها المتعنت من جهة ثانية.

ورفعت عائشة يديها إلى الله: - رب لا تفضح هذه المخلوقة اليتيمة! لم تقترف ذنبا، ولكن ابن عمها غرر بها، أو حدث له ما عضله عن الالتحاق بها! اللهم إنك سلبتها نعمة الأبوة، فاحفظ لها نعمة سمعتها وجمالها وروعتها. آه يا إلهي، لم توافق على الزواج بالشبان الراغبين فيها من عشيرة أخوالها! لا إله إلا الله! اللهم أجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة!

وانساقت الوالدة في أدعيتها وهواجسها الحائرة، حتى جذبت انتباهها صرخات عويل فظيع حسبتها في البداية صادرة عن المجذوب المربوط بجذع شجرة قرب الخيمة. ثم تأكدت أن الصراخ صادر من وسط البيت، فهرعت داخلة، وسألت ابنتها:

- ماذا حل بك يا ميمونتي؟!

- آه..! آه..! آح..! آه..! آح..! كانت ميمونة تبكي بكاء أليما، وتحاول إجابة أمها، ولكن لسانها ثقلت عليه الكلمات، وأحست حريقا يضم مجمل جسمها وروحها: آه! آح! كذب علي سلامي وخدعني! وطالبنا يا لطيف! سيقول لأهل المسجد إني فاسقة! يا لطيف! يا لطيف! خدعني سلامي الكذاب!

- ولكن ما بالك يا بنيتي؟ خففي علي!

- آلام المخاض تحرق كل جسمي! يا لطيف! قلبي سيخرج من فمي! خدعني الكذاب، يا لطيف! آه..! آح..!

* * *

وانهمكت الأم مرتبكة تساعد ابنتها على وضع حملها. ووصل صراخ النفساء إلى مسامع الجيران، وأخذوا يتغامزون ويتحدثون عن نفاس ميمونة المريب. فالحاسدون والحاسدات لجمال هذه المرأة، واللامبالون بشأنها لأنها غريبة تنتمي لنسب غير قبيلتهم، والمتأثرون بخصومات طالبنا الذي أصر على أنها تحمل في أحشائها جنينا فريا (رغم معارضة بعض أهل المسجد رأيه) وانعدام الثقة بين حي من الزوايا لصلاحية الزناقة أولاد احميدان لإبرام أي عقد صحيح من عقود المسلمين؛ كل هذا سيجعل أصابع الاتهام تشير إلى ميمونة والريبة تحيط بمولودها المسكين!

- 14 -

وفكرت ميمونة والألم النفسي يعتصر روحها، والجسمي يحرقها حرقا من رأسها إلى أخمص قدميها: ما العمل إذن؟ سلامي لم يأت! وربما لن يأتي مستقبلا. فضحني! وهكذا شاءت لي الأقدار أن أواجه أخوالي السخفاء! يقول إمامهم إنني فاسقة! رباه إنني لست مجرمة! إلهي هل سيعود سلامي لينتشلني من هذا العذاب المحدق بي؟! مهما يكن من أمر لا مقام لي هنا بين عشيرة أخوالي. هل أعود إلى أولاد احميدان؟ لعل زوجي يكون في الطريق آتيا إلي؟ ولكن من الذي سيساعدني على السفر إليهم؟ ومن ذا سيحملني على جمله ويرفق بي حتى أصل المكان المقصود؟ لا أحد! كلهم يعتبرونني قذرة أو مريبة على الأقل! لأنني لست منهم، ولأنهم كما قال أخي العتيق رحمه الله: «تنحط أخلاقهم بسبب ترك التعلم». أين أهلي وقبيلتي يا رب؟ لم أعرف منهم إلا سلامي الذي أوقعني في هذه الورطة! آه منك يا حياة، وآه منك يا ألم، وآه منك يا جريمة! إنني بريئة، ولكنهم لا يعرفون أو لا يريدون أن يعرفوا!

وتضاربت الأفكار كالسياط في رأس ميمونة، في اللحظات التي أعقبت وضعها لمولودها الأول، طريحة على الفراش. وانشغلت عائشة بإيقاد نار حول طنب الخيمة الشمالي الشرقي، وقطعت على ضوئها حبل

سرة الوليد. ثم عقدت ما فضل منه، وغرزت رأس السكين في الرمل مقابل رأس ابنتها، واضعة يدها على صدغها الأيسر ثم خاطبتها:

- كيف حالك يا ميمونة؟ عساك بخير؟!

- بأسوء حال يا أماه!

- صبرا لعل الله يفرج كربنا.

- كيف أرجو الفرج وأنا غريبة في أناس يعتبرني رؤساؤهم فاسقة؟!

- ليس هذا وقت الندامة، لتظهريها، ولا ساعة اللوم فألومك أنا على رفضك للزواج بأحد خاطبيك من قبيلة أخوالك!

- ولكن ماذا أعمل الآن يا أماه؟ هل هنا في هذا الحي من سيمكنه إيصالي إلى أولاد احميدان في انتظار رجوع ذلك الكذاب..! آه..! يا لطيف!!

* * *

وتفرق المصلون من المسجد بعد أداء الصلاة، وانقطع حوار البنت والأم، عندما أقبل طالبنا مهرولا بخطواته السريعة، ووقف أمام الركيزة الأمامية للخيمة :

- ألم تفهمي ما قلت لك أو لا تريدين فهمه. وقد كررته عليك مرارا!

- .. نعم ماذا تعني يا طالبنا؟

- أعني ما تدركينه جيدا وترفضين الإصغاء إليه بعناد!

- وماذا سأفعل يا أخي بهذه..؟

- لا داعي للكلام. من الآن سيترك أحدنا: أنا أو أنت هذه «التلاليس»[1] للآخر. ولن أسكن في مكان يوجد فيه ابن حرام، فاختاري إذن أينا سيترك الخيمة للآخر.

* * *

استمعت ميمونة إلى تهديدات زوج أمها، وتصورت نفسها في صباح اليوم القادم، وقد كشف ضوء النهار وجهها للجمهور، جالسة جنب أمها التي ستكون مطلقة، إن لم تخرج هي من خيمتها. وقالت النفساء لنفسها: - إذا بقيت هنا سيطردني مع والدتي، أو توافق أمي الضعيفة الإرادة على طردي وحدي!. وفي هذا الوقت جلست ميمونة ناسية آلامها الجسمية مقبلة على تنفيذ خطة جريئة قبل أن تفكر فيها. بل اندفعت بلا وعي من وسط الخيمة، في وقت كانت أمها فيه قدام الخيمة، تحاول تهدئة طالبنا الذي لم يتوقف عن كيل اللعنات لهما. وأخذت وليدها بين يديها ممسكة بأصابعها اليمنى سكين النفساء التي تقضي التقاليد والمعتقدات الشعبية ببقائها قريبة منها طيلة الأسبوع الأول للوضع، لضمان عدم تلصص الجان على الابن ومحاولة تبديله بوليد مختبل من أبناء العفاريت.

وأطلقت ميمونة بنت الهادي رجليها للريح تعدو ملتحفة بذيول الظلام، بدون هدف محدد غير الابتعاد عن حي أخوالها قبل انبلاج الصباح.

---

1 تعني لفظة: "التلاليس" في اللهجة الحسانية: خيمة الصوف الـ تشققت مسوحها لقدمها، أو قطعة منها بالية. والأصل الفصيح الذي اشتقت منه قد يكون: «أوعية الخوص» أي ورق النخل كما في تاج العروس. كما ذكر ابن بطوطة في رحلته: «إن رجال مسوفة في قطعهم للمجابات الكبرى في الصحراء يخيطون التلاليس على قرب الماء...» ووجه الاشتقاق واضح.

وسارت جهة الشمال في أفق مجهول. وهبت عواصف السموم الصيفية في وجهها بالحر اللافح، ناثرة غبار الرمال في ليالي «ردم النجوم». ومع ذلك لم يخطر ببالها خطر الموت عطشا، بل شعرت بوقع همومها يخف في قلبها بمجرد ما انقطع عن أذنيها صوت الإنس. ونسيت نفسها كليا وهي تبتعد في غياهب ليلتها السوداء. واختلط في سمعها قبيل الصباح، عندما توقفت لتحاول إرضاع وليدها للمرة الأولى، عواءُ ذئاب صحراوية، بأزيز غصون الشجر تضربها ريح السموم الحارقة.

* * *

وفي الجنوب البعيد: في الهضاب الشمالية الشرقية من «اقان»، لم تزل حلة أولاد اعميرة، تزداد تصميما على متابعة «حرب البيسوس». وإذا كان فقد فارسهم المغوار: فراح ولد الكيحل «الأعور» قد شكل في حينه حادثا جللا، ومصيبة أليمة، فإن مقتل بوبكر ولد عثمان، خفف كثيرا ثقل تلك الضربة، بل فتح أمام العزائم أفقا جديدا للقضاء على الأعداء.

وخرج من الحلة وقت الصباح الرئيس جرفون ولد جلفون في جولة ترويض وتمرين يصحبه زميل له يكبره بسنتين: ابهيدل ولد فراح ولد الكيحل، الذي لمع في المعارك والمناوشات الأخيرة كوارث حقيقي لأبيه الفقيد.

وسار الشابان بفرسيهما كل يفكر على شاكلته، ثم تحاورا:

- أظن أن علينا الآن أن نعجل تعبئة الجيش لغزو الأعداء. ولو تمكنا من القضاء على شخص شكرود، كما فعلنا بأبيه وأشقائه، فلن تبقى أمامنا عقبة في طريق الانتصار المحقق على أولاد اسويلم.

- نعم يا ابهيدل. ولكنني من الآن فصاعدا، لا أريد كثرة كلام الناس في قبيلتنا عن الغزو أو مثله من القرارات المهمة، قبل أن أقررها أنا بنفسي وأعلنها على الناس. وعلى المقاتلين انتظار أوامري فقط.

وصدمت هذه الإجابة الصارمة مشاعر ابن عم الرئيس الذي لا يخلو من مبادلته روح حسد متأصلة بينهما، وتنافس عرف عنهما في الماضي في ساعات الحرب والسلم. ومن الطبيعي أن يشتد هذا التنافر بين الاثنين، منذ أصبح أحدهما رئيسا خلفا لأبيه، بينما الثاني لا يثق بمؤهلات صاحبه القيادية. وكان ينظر إليه في الماضي مجرد آلة طيعة في يد والده فراح.

ونظر ابهيدل إلى جرفون قبل أن يجيبه وفكر: - والآن يريد الاستبداد والتسلط، ولم يقم بمبارزة شهيرة في حياته، ولا بطولة تليق بمنصبه! يركبه الغرور ضدي، وضد رجالنا الذين يعرضون صدورهم للرصاص قبله!! سيرى إذن!!

- ولكن يا رئيسنا: المثل الحساني يقول: «من دبر الأمور مع جماعته خير له ولو فسدت، من أن يدبرها وحده ولو صلحت».

- أدري يا ابهيدل. ولكن الأمثلة والآراء والكلام والثرثرة ليست هي ما أحتاج إليه. أريدكم مقاتلين فقط، ينتظرون إشاراتي إليهم بالهجوم. وإذا كان هناك من علي الاستماع إليه، فهو الشيوخ المسنون ذوو التجربة الطويلة والحكمة في التصرف. قال هذا وفكر في نفسه: هل يظن أنني سأعامله معالتي لوالده فراح؟ شتان ما بينهما! كان ذلك بمنزلة الوزير لأبي ومدربي، أما هو فلا يساوي شيئا غير غروره بنفسه وطموحه الأهوج. إنه أحمق، مازال يحتفظ بروح المنافسة التي كانت قائمة بيننا في الصغر! ولكنني الآن لست طفلا وعليه أن يفهم ذلك.

- جرفون! هل ترى تلك الغزلان البعيدة؟

- أراها. ولماذا السؤال؟ هل تريد اصطيادها؟!

- ولم لا؟

- لأننا لسنا زناقة.

- وهل الصيد حق مقصور على الزناقة؟!

- في ظروف الحرب لا يجدر بالعربي الحساني تضييع رصاصه في الغزلان. وتعلم أن قافلتنا التي أرسلناها قبل شهور لاستيراد الذخيرة لم تصل بعد. وتدعو لتعجيل الغزو، وتهم بإضاعة الرصاص في الوحوش! يا لك من قَرِم محب للحوم!

- من تعني بصفة القرم وحب اللحم؟

- إياك أعني. وليت ضراوتك إلى اللحم كانت الى سفك دماء الأعداء!

- جميل... ولكن هل نسيت أن فارسا قدم البارحة، بشرنا باقتراب عودة قافلة الذخيرة حاملة منها الكثير؟

- المهم أن لا يفسد الرصاص، أو يستعمل في غير اصطياد رجال أولاد اسويلم. هذا كل ما أقول لك الآن، فهل أنت متبع نهيي وقولي؟ أجبني!

- سأذهب أوّلا لصيد بعض تلك الغزلان.

- لا تفعل! أحذرك! انتظر إذني!

وعندها غمز ابهيدل جنبي فرسه بنعلي السرج، جاريا به في أثر الغزلان الهاربة. وفي ربع ساعة عاد إلى صاحبه الغضبان، يحمل غزالا مقتولا.

- بئس ما فعلت؟ لو كانت ضربة في نحر عدو لما ضاعت الذخيرة!

- لن يكون غريبا علي ضرب نحور الأعداء، كما رأيت في المعارك والمناوشات الأخيرة، بل كما سمعت، لأنك كنت بعيدا عن مكان الالتحام، تصغي إلى الشيوخ «الحكماء» طبعا لأنهم حريصون على حياتك، لإدراكهم مدى عجزك عن الدنو من خطوط النار!

- اسكت يا ابهيدل.. حرق الله أباك!

- تعني أبي أنا؟

- نعم.. أباك الأعور.

- طيب. أنت إذن رئيس قوي! ولم تغضب إلا بسبب اصطيادي لهذا الغزال، فهل بإمكانك الآن منعي من قتل غزال أعظم منه؟!

وفهم جرفو ن ما اعتزم عليه زميله. وتواجه الاثنان في مبارزة مرتجلة، حسمت بعد وقت قصير، إذ سقط الرئيس عن ظهر جواده قتيلا. وحمل ابن عمه بندقيته وكنانته وجنب فرسه عائدا إلى الحي الكبير.

ولما رآه الناس داخلا طرف الحي بتلك الصورة رابهم الأمر. غير أنه لم يدع لهم فرصة للاستفهام والاستفسار. فقد مر مرورا خاطفا بخيمة الرئيس، وحمل الطبل إلى بيت أبيه، وأمر بضربه طربات تشير إلى حالة الخطر والخوف والتعبئة. واجتمع رجال الحلة فبادأهم قائلا:

- اسمعوا وعوا ما سأقول لكم يا أولاد اعميرة: إن هذا الإمعة العليل الذي دعوتموه رئيسا حاول إهانتي وشتمني وأبي، ثم أراد الاعتداء علي. وصفيت معه الحساب، وتركته ملقى على الصعيد لا حراك به. قد يكون الآن ميتا.

- لماذا تفعل يا..؟

ـ دعوه يكمل..

ورفع الشاب نبرة صوته وازدادت قسمات وجهه صرامة:

ـ نعم قتلته. والآن: أنا المسؤول عن أمور هذه القبيلة وقائدها كما كان أجدادي. ومن يريد منكم منازعتي في الأمر فليتقدم إلي بسلاحه، أو ليقل كلمة واحدة لا تتفق و مزاجي، وسيرى...

* * *

وانقسم الحي طائفتين، كادتا أن تقتتلا فيما بينهما، لو لا أن تغلبت حكمة الشيوخ، الذين سكنوا الوضع قائلين: «إن القاتل والمقتول من أسرة واحدة، أو بطن واحد، تعودنا رئاستها. ولا يهمنا أن يكون الرئيس من هذا الفرع أو ذاك من أسرة الزعامة. والمهم أن تقاد بنادقنا بمهارة وحكمة، في طريق حسم "حرب البيسوس" في صالح أولاد اعميرة».

- 15 -

ومر فصل الصيف هذا العام طويلا مرهقا على أرض (الرقيطة). واستمرت عواصف «ردم النجوم» إلى ما بعد نهاية يولية. وصلى أولاد عبد الرحمن يوميا صلاة الاستسقاء، بدون جدوى. وابتعدت قبيلة أولاد احميدان متفرقة في أحياء عديدة، إلى ناحية الشمال، تؤمن لنفسها السلامة من الغارات القادمة من الجنوب. ولكن الإبل والغنم تئن بهزالها في السهوب الجدباء، وقد هلك منها الكثير لتأخر نزول الأمطار.

ولم ينس الرئيس شكرود لحظة واحدة تعبئة رجاله، والسعي لجلب الذخيرة بمختلف الوسائل الممكنة، وتهيئة الرأي العام في قبيلته لخوض المعارك الفاصلة مع أعدائها. ورجع ليلة إلى حيه، بعد مناوشات قتالية دارت بين فرسانه وسرية من أولاد اعميرة، أرادت السطو على بعض قطعان إبل أولاد اسويلم، شاء أولئك استرجاعها، لأنها في الأصل منهوبة على يد بوبكر ولد عثمان قبل موته؛ ولكنهم فروا بسرعة تاركين الإبل لشكرود ورجاله الأشداء. ودخل الرئيس الشاب خيمته مسلما على عروسه.

- ها أنا رجعت إليك سالما يا الزهرة لأنك حجَّبت علي حجابا طيبا.. أليس كذلك؟ هكذا مازح زوجته محييا لها، ولكنها لم تجب زوجها العزيز! ولاذت بالصمت المطبق مزملة وجهها بملحفتها. وقال هو بصوت مسموع:

ـ عجيب! ثم سائلا نفسه: - ما لهذه المرأة مخرسة؟ ويلي منها: هل جُنَّت أم أصيبت بالبكم والصمم؟! وأعاد عليها السؤال:

ـ ما لك لا تجيبين؟ هل أنت مريضة؟!

ـ لا... لا.. أوه! وآه... آه... آه...! وقطعت صمتها بالبكاء تنتحب بعويل مرير. وسألها زوجها:

ـ آه... تبكين لفقد أبيك ومجذوبه اللذين قتلا في الأسابيع الماضية؟ وكان طالبنا ولد العتيق قد مرَّ أمام سرية من فرسان أولاد اعميرة مع ولده قبل بداية الاشتباكات الأخيرة. فأطلق عليهما الرصاص ووافاهما الأجل المحتوم. ولهذا عزا شكرود سبب بكاء زوجته، وأضاف: - هكذا فعلوا قبلهما بأخيك العتيق، وبأفراد من أولاد احميدان! وهكذا يفعل أعداؤنا لأنهم يخافون أرضنا. فيطيش رصاصهم بفعل طيش عقولهم. ولكن قولي لي لماذا لم تظهري الحسرة والنحيب على الفقيدين قبل هذه الليلة؟!

- رحم الله أبي وإخوتي الذين قتلوا ظلما وعدوانا، إلا أن هذا ليس سبب بكائي.

- وما الباعث إذن على هذا الشهيق والزفير؟ لم أصادف منك قط مشهدا كهذا!

- أختي.. واه! آه..

- وما شأنها؟!

- ألم تعلم؟!

- لا علم لي بشيء من خبرها. أتعنين ميمونة؟

- نعم أعنيها.. ميمونة الحبيبة آه...!

- وماذا أصابها؟

- هربت في عرض الصحاري منذ عشرة أيام في بحبوحة حر الصيف، تحمل وليدها بدون ماء ولا...

- عشرة أيام؟!

- هكذا حدثني مسافرون قدموا اليوم من الغرب من ناحية أهلي!

- وما تريدين الآن؟!

- أدركها يا شكرود، أنقذها من أجلي. بالله عليك حاول إدراكها.

- أنقذُها وأدركُها: بعد عشرة أيام في الفيافي المكسوة بـ " ردم النجوم »!

- حاول فقط العثور عليها أنت وفرسانك.

- وهل وليدها شرعي. ولماذا تهرب؟!

- نعم شرعي جدا، ولكن أبي رحمه الله.. هي ليست من القبيلة، وليس هناك من يعطف عليها عطفا حقيقيا غير أمها العاجز ة عن أي تصرف...

حاول يا شكرود إنقاذها. إنني أعرف... آه.. واه... واه..!

- سأبعث فارسين للبحث عنها صباحا. ولا تعللي نفسك بالأوهام والخيال.

سأفعل هذا إرضاءً لخاطرك. أعلم أنها ستكون ميتة في مكان ما لا محالة.

أنتم أبناء الزوايا تخافون الموت أكثر من اللازم!

- اذهب أنت نفسك لتحاول العثور عليها.

- ولماذا أنا بالذات؟! ألا تعرفين أننا سنعد الجيش لمواجهة الأعداء الذين قتل رئيسهم، وتولى الزعامة مكانه ابن الفارس الأعور. وهذا يعتبر تطورا خطيرا جدا. وأنا الآن مشغول بتدبير أمورنا والاستعداد لمبارزة ابهيدل ولد فراح. فهل تظنين بعد ذلك أن لدي وقتا لإهمال واجباتي، لأتيه في الصحاري بحثا عن جثة نسفتها العواصف الرملية؟!

- وهل بإمكانك إرسال الفرسان الليلة، إذا كنت أنت لا تستطيع الذهاب؟

- ممكن.. حالا.

- عجل بالأمر، عساهم يدركونها على قيد الحياة! ليتها جاءت إلي هنا وبقيت معي! ثم فكرت: نعم تبقى معي آمنة من كل المخاوف حتى يعود الرجل الذي ادّعت أنه ابن عمها وزوجها! وقد يعثرون عليها حية؟ من يدري؟ إذا كان ذلك في سابق علم الله، أو كان عمرها سيمتد وأجلها لم يحن؟!

- سأختار فارسين ممن كانوا هنا في الحامية.

- وليحملا قرب ماء.. إلهي هل ماتت عطشا؟!

- وأجابها شكرود واقفا أمام الخيمة قبل أن يتجه إلى من سيأمرهم بأداء المهمة:

- إذا كانت ماتزال على قيد الحياة، فيمكن أن تجد الليلةَ ماءً كافيا.

- ماذا تعني؟!

- أرى بروقا "صلوانية"، تتخافق مزجية نوءً ثقيلا. قد يشكل نزوله الليلة نهاية الصيف وبداية الخريف. وصمت الرئيس محدثا نفسه: - سيحل الخصب مكان الجدب، والخضرة والغدران مكان غبار الصيف.

وسيرد أبناء الزوايا سبب ذلك إلى صلواتهم الاستسقائية. وسيتيه أولاد احميدان الوضيعون في بطرهم مع حيواناتهم التي يقدسونها، ولا يفكرون بسواها. ونحن العربان في هذا الفصل يحل علينا موسم القتال: الجمال قوية، والطرقات تتخللها الإضونُ المطرية. ولكن "حرب البيسوس" يجب على كل حال أن تنتهي لصالحنا. سأشهد نهايتها منتصرا، وقبيلتي ظافرة مرفوعة الجبين في عهد رئاستي، أو تنتهي وأنا تحت الأرض ميتا موت الأبطال، بشكل يجعل خلفائي يستوحون الإقدام والصبر والمثابرة من سيرتي القتالية.. ابهيدل ولد فراح، ابن الأعَيْوَرْ، أصبح رئيسهم؟! هذا الذي قاد سرايا المناوشات في الشهور الماضية ضدنا، وقتل اثنين من فرساننا الأعزاء! وسطا على قطيع من إبل زناقتنا، وقتل والد زوجتي المرابط الأعزل!

لاشك أنه أخطر من سابقه: جرفون ولد جلفون المكتهل في شبابه، المهتم بالحزم والمراوغة أكثر من الهجوم والمغامرة. لا ريب أن ابهيدل هو الوزغ بن الوزغ، والأفعى بن الأفعى.

سيراني إذن وأراه! وعلي أن أقنعه أنني الثعبان بن الثعبان، والأسد بن الأسد. لن أنسى أباه الشرير ذا الطبيعة القتالية الشرسة! ولكنني قطعت رأسه في النهاية! صحيح أنه أصابني قبل أن أصيبه ورفض الفرار لأنه لا يفهمه ولا يريده بعد أن نفدت ذخيرته نفادا تاما! وانتهزت الفرصة وضربته بعد أن كُسرت ساقي! كان قتلي له حظا طيبا، وليس قدرة مني ولا فعلا! وهذا السِّرُّ يجب أن لا يدركه كائن من كان. بل علي أن أنجز بطولاتٍ جديدةً تناسب منصبي، وسمعةَ أجدادي.

* * *

وقبل بداية هذا الخريف، بخمسة شهور، غادرت سفينةُ الحجاج

المغاربة ميناءَ طنجةَ إلى الديار المقدسة، ومن بين ركابها سلامي ولد الهادي وصديقاه الشاعران. وقديما قيل: «تجري الرياح بما لا تشتهي السفن...».
أما في هذه المرة فيجري في السفن ذاتها ما لا يشتهي الحجاج: فقد ظهر فيها وباء الطاعون. ومات الشاعران من بين الموبوئين، وبقي سلامي طائر اللب، بين غرباء لا يعرف منهم أحدا، واشتدَّ به الغمُّ والحزن. ولكنه لم ينس لحظة محيا ميمونة المشرق الجميل. وفكر فيها - رغم فزعه - ليلا ونهارا: - ... أخلفت وعدها بعدما صرنا أزواجا! قد تغضب علي؟ وقد تسيء بيَ الظن، وتنعتني بنكث العهود! وربما تعرضت هي لإحراج نفسي في جو أسري غير ودي. ولكن... ولكن إذا قدرت لي السلامة من هذا الوباء ورجعت إليها بماء زمزم سيختفي العذاب. اللهم يسر لي حجي وسلمني وعافني! اللهم إنني عبدك الضعيف أخلص النية لأداء فريضة الحج التي كتبتها علي، فيسر لي السلامة حتى أعود إلى تلك المسكينة التي دعاني شوقي إلى بيتك المحرم وروضة نبيك المفضل إلى نبذ عهودها! إلهي أنت الذي سلبتها نعمة الأب لحكمة منك دقت وجلت! إلهي وحكمت عليها بمساكنة قوم لا يصفونها الوداد كلهم ولا تجيش قلوبهم بالحب والعطف عليها لأنها ليست منهم! فيسر لي الرجوع إليها ظافرا سالما معافى! إلهي جنبها ما يكون لديها مكروها! رب يسر لي حجي وتقبله، إنك أنت العليم الخبير الكريم!

رحمتك يا الله! توفيقك يا الله!

* * *

وتابع سلامي سفره كسير النفس، متضرعا إلى الله، قلقا على نفسه من الهلاك، وعلى حبيبته من الإحراج. صحيح أن زواجهما أبرم على طريقة مقبولة من وجهة نظر الشرع، غير أنه يعلم كل العلم أن غيابه بل اختفاءه التام بعد العقد مباشرة، قد يسبب لميمونة إحراجا إذا كانت

تلبست بحمل بعده. وبالتالي قد تغضب هي عليه بسبب ذلك وترفض معايشته مستقبلا، إذ ستعتبره كذابا نصابا لا مروءة له ولا عهد.

* * *

وأخيرا وصل المسافر إلى الكعبة سالما، وأدى مناسك الحج على عجل، وأراد الذهاب إلى المدينة المتورة لزيارة الروضة الشريفة. ولكن بعض الناس نصحوه بأن الطريق غير آمن بسبب احتمال وجود لصوص من الأعراب. وانتظر أياما لمرافقة قافلة حجاج المغرب الذين دأبوا على حمل السلاح وضرب الطبول أثناء قطع المسافة بين مكة والمدينة، ترهيبا لقطاع الطرق.

وبعد زيارة قبر الرسول ﷺ آثر سلامي العودة المستعجلة إلى ميناء جدة، ليركب السفينة العائدة إلى شواطىء المغرب الأقصى. هناك سيكون بإمكانه السفر جنوبا إلى بلاده وأهله، عائدا بلقب الحاج والعالم المتخرج من محضرة العلم، وقد تكون معه أيضا ميمونة المحررة من التطفل على طالبنا ولد العتيق!

هكذا ظل الحاج يفكر. وجسمه بالديار المقدسة، وقلبه في أرض الرقيطة.

وركب بعيره الذي اشتراه من مكة. ولم يتريث حتى يرافق الحجاج المغاربة في سبيل الرجوع إلى جدة، وهو يعلم أنه لن يذهب من هناك قبل لحاقهم به!

وواصل سير الليل بسير النهار. وفي ضواحي مدينة ينبع تلقته شلة من لصوص البدو، سلبته مركوبه، وزاده الزهيد، بعد أن تركته طريحا على الأرض بفعل ضربات السيوف، حيث لا مؤاسي له، ولا متعاطف معه ولا مجير.

- 16 -

وتلقت قبيلة أولاد احميدان فصل الخريف بسعادة. وإن كان قد جاء هذه السنة متأخرا. وتجمع لفيف من رجالهم سامرين على الأرض الرملية الندية، أمام خيمة رئيسهم ديلول. وسارت أحاديث السهرة في نسق مألوف، تحت أضواء قمر رقراق الأشعة:

- كيف ترى الخريف هذا العام يا ديلول؟

- جيد. نحمد الله. إلا أن المطر هذه المرة لن يعوض ما فقدناه في فصلي الربيع والصيف..

- تعني ما نهب أولاد عميرة من أموالنا؟

- وما أهلك الجدب، وما أخذ أولاد اسويلم باسم العون، إضافة إلى ما دفعنا لأولاد عبد الرحمن باسم الزكاة..!

- وتنسى ما دفع ثمنا لبندقيتك؟

- ذلك لا يستحق الذكر: أربعة أبعرة فقط! والبندقية كما ترون لها فوائدها الاقتصادية علينا.

- حقا، كم قتلت اليوم من الغزلان؟

- ثلاثة، ألم تكن حاضرا مشاركا في أكل لحومها؟

- نعم، يبدو لي بالفعل أن إبلنا نقص عددها بشكل واضح! بل بشكل يدعو للقلق!

- في العام الفارط كانت إبلي تتجاوز المائتين عددا. والآن تنقص قليلا عن مائة واحدة؟

- ولكنك اليوم أصبحت صيادا ماهرا، بإمكانك إنفاق أهلك باللحوم!

- بندقيتي هي بندقية الصيد الثالثة في عشيرتنا. لكم تمنيت أن يكون لكل رجل منا سلاحه، لنصطاد أكثر أو لنحاول بعض الأحيان حماية أنفسنا من اللصوص، أو على الأقل ليهابنا النمادي وسراق ضوال الإبل!

- لا.. لا تحلم يا ديلول. نحن زناقة «رصاصنا لا يصيب غير الغزلان».

- هذا يقال على الدوام. ولكننا على ما يبدو لي سنخير في المستقبل بين محاولة الدفاع عن أنفسنا وأموالنا، أو الهبوط في هاوية الفقر المدقع!

- يا لك من طموح أحمق! ليست هناك سبيل لحماية أموالنا إلا رشوة بعض العربان، وتركهم يتقاتلون مع بعضهم الآخر.

وأرف آخر:

- لقد جرت حكمة الله بأن يدافع العربان عن زناقتهم مقابل الغرامات وعن زواياهم مقابل الحجاب و...

وأجاب ديلول:

- الزوايا أيضا يفقروننا باسم الزكاة! وأولاد اسويلم إذا جاورناهم أكلونا أكلا لما! وإذا ابتعدنا عنهم وقعنا في مخالب أولاد اعميرة الشرسين! إلهي كيف لنا أن نخرج من هذه الدائرة الجهنمية؟!

- وهل يصح الدفاع عن قبيلة كثيرة لا تملك إلا ثلاث بنادق؟

وأضاف آخر:

- وبنادق في أيدي زنادقة!

- وعاد الكلام إلى ديلول:

- أعرف، وهذا ما يدعوني للتأسف! والمأساة الأفظع أن رجالنا لا يطمحون إلى الذَّبِّ عن حماهم. ولا يتصورون خطورة المستقبل الذي ينتظرهم!

- غيروا موضوع الحديث، لا داعي للهراء والثرثرة والأحلام المضللة. نحن زناقة لا أكثر ولا أقل! لا نصلح إلا «تحت كتاب أو تحت ركاب»!..

- نحن أيضا من بني آدم. لو ملكنا السلاح والشجاعة والتصميم.. ولكننا مفتقرون إليها جميعها!

- خلق الله بني الانسان: كلا ميسرا لما خلق له.

- حقا يا بني عمي. ولكنَّ وضعنا لا يطاق! لكم تمنيت أن تنزل صواعق الخريف على بني حسان فلا تذر منهم عينا تطرف!

- الأماني والأحلام شيء يا ديلول، والواقع شيء آخر.

- هذا ما يحزنني

* * *

وساد الصمت سويعة بين ديلول ومسامريه، ثم سأله أحدهم:

- ألم يجدً لك خبر عن مرابطتك ميمونة الجميلة، زوجة صديقك الذي ابتلاها بالحمل وهرب؟

- لا. إطلاقا. من المؤكد أنها ماتت عطشا في اليوم الأول لهروبها عن حي أخوالها، لأن ذلك الوقت صادف عواصف "ردم النجوم الحارقة!

- سمعنا أن فرسانا من أولاد اسويلم بحثوا عن جثتها أياما متتالية، وعادوا بدون نتيجة.

- مسكينة! لقد انتقم الله لها من زوج أمها الذي ضايقها، فقتله أولاد اعميرة، حين كان يطارد مجذوبه في مراعي أولاد اسويلم!

- نعم، ظنوهما هاربين لإبلاغ الحلة بقدوم سرية فرسان أعدائها.

- وكذلك فعلوا بالعتيق!

- وبثلاثة من رعاتنا نحن! إنهم أهل فتك وبطش!

- لم ينزلوا قط أرضا إلا وأحرقوا أخضرها بيابسها!

وعلق ديلول مستلقيا على الحصير بين أصدقائه، ناظرا في الفضاء بعينين حالمتين حيث تلمع النجوم الزاهرة في سماء خريفية زرقاء صافية:

- أولاد اعميرة أصحاب بأس وقوة. ورئيسهم الجديد: ابهيدل ولد الفارس الأعور: مارد من شياطين العرب. ولا أستبعد أن تؤول "حرب البيسوس" إلى انتصاره؟

- لا تقل ذلك. قد يكون معك الحق فقط في نعتهم بالقوة والبأس، ولكن الحرب لن تحسم إلا في صالح أولاد اسويلم.

- وما دليلك على ذلك؟

- وجود قائدهم شكرود وفرسانه المغاوير ذوي العيون الحمراء كعيون الحيات!

- نعم. شكرود بطل فريد، وقبيلته «شويكة بالية». من انغرست في جسمه يبقى رهينا لألمها، لأنه لا يستطيع انتزاعها. ولكن أولاد اعميرة أكثر عددا ومالا. وستكون الغلبة في النهاية لجانبهم.

ـ عجيب قولك هذا! تتكلم وكأنك تجهل حقيقة أولاد اسويلم!

ـ لا أجهلها. وإنما أيضا لا أنكر قوة أعدائهم، ذوي الخيول الكثيرة والسلاح والروح الهجومية النادرة! خذوا هذا المثال: - منذ مات بوبكر ولد عثمان، والغزو يأتي أساسا من جهة الجنوب، والغارات تتكثف على أولاد اسويلم، إنهم في موقف دفاعي رغم ما ترونه وما تزعمونه.

ـ لأن الحرب سجال، و"الشر جر". "البيسوس" دامت أكثر من مائة سنة. وعدم الغزو ليس دليل ضعف. في بعض السنوات تتالت غزوات أولاد اسويلم، وبقي الآخرون مدافعين. إنهم يتبادلون الأدوار، يوما لهذا ويوما لذاك.. هذا يغزو وذاك يدافع...

وأجاب ديلول المتكلم الأخير، قاصدا حسم النقاش لأنه أ حس دبيب النعاس في عينيه:

- ليس المهم هؤلاء أو أولئك، المهم أننا أصبحنا على حافة الأفتقار، فكيف نحمي مواشينا التي خلقناها بعرقنا وكدِّنا؟ وأجاب أحد الحاضرين:

- لعل الصواب هو أن نرحل عن هذه الأرض...

وجلس ديلول منفعلا وقال:

- إلى أين؟

- إلى أرض أخرى نحتمي فيها بشخصية دينية محترمة من الزوايا. أو نتحالف مع أحد الأمراء، أقوى من هذه القبائل السائبة، يوفر لرعاياه قسطا من الحماية والاستقرار.

- مثلا أي الأمراء يمكنه ذلك؟

- أمراء (آدرار)، أو (الترارزة)، أو (تقانت).

ـ اقتراحك سهل التحقيق، ولكنه بلا جدوى.

ـ لماذا؟

ـ لن توفر لنا حماية جدية، قبل أن ندفع نصف أموالنا ثمنا لها. وفي كل مكان سنجد أمامنا حسانيين ينهبون، وزوايا يتسولون!

ـ ولكن الأمراء أقوياء وذووا عدالة!

ـ بل مجرد ملوك من العربان، يتعففون عن التلصص، لأن لديهم من الأتباع والخدام من يتولونه عنهم. وكل أبناء حسان سواسية في البأس والضر. و«خيرهم من مات واندرس قبره، ورعت الإبل فوقه الأعشاب النابتة مكانه».

* * *

وانقطعت سهرة رجال أولاد احميدان بعد منتصف الليل عندما سمعوا على غفلة منهم، حمحمة جواد غريب عليهم، ترتفع إلى عنان السماء. ونهضوا جميعا مستطلعين الأمر. وخاطبهم راكب الجواد:

ـ الخير والسلامة. لا تنزعجوا. نحن أصدقاء من أولاد اسويلم.

ـ السلام عليكم. خير أتى بكم إن شاء الله؟

ـ خير وعافية. فقط أرسلنا شكرود يريد منكم عونا تقدمونه في تجهيز جيشنا الذي سينهض إلى الجنوب. ولن يعود قبل استئصال شوكة أولاد اعميرة. وأضاف فارس آخر، ولم ينزل بعد عن ظهر جواده:

ـ ونحن مضطرون إلى مصادرة بنادق الصيد الموجودة في حوزتكم. وسترد إليكم بعد رجوع الجيش كما فعلنا معكم في مرات سابقة.

ـ البنادق جاهزة، ولكنها غير كثيرة.

ـ كم عددها؟

ـ ثلاثة فقط. ومعها بعض الذخيرة.

ـ هاتوا بها حالا، ونريد ذبائح وجمال الركوب والرحال والحبال... سنعيد إليكم الأموال التي نهبها أعداؤنا.

وتكلم ديلول مجيبا:

ـ سنساعدكم قدر استطاعتنا. ونرجو لجيشكم الظفر والنصر. وأنا شخصيا لا أريد منكم إلا استرجاع جملي "الغزيل"، لقد كان اختطافه أعظم مصيبة عرضت لي في حياتي! وأخشى إذا لم تأتوا به أن يستخدم ضدكم في الاستطلاع. ليس في الدنيا فرس تستطيع اللحاق به إذا جرى!

ـ سيعاد إليك "الغزيل" يا عابد الإبل. ولكن سارعوا إلى تنفيذ مطلبنا.

ـ ألا تنتظرون الصباح؟!

ـ نعـم. الصباح الأول. ليكن كل شيء جاهزا. وقرب الماء لا تنسوها نحتاج لبعضها أيضا. وفكر ديلول صامتا: - أنتم محتاجون لكل شيء! والمسلمون لا يحتاجون إلا إلى انقراض أمثالكم من الوجود. ثم قال:

- سندفع لكم فقط بحجم طاقتنا، واتركوا لنا بعض الوقت للتشاور فيما بيننا، لتحصيل العون المطلوب.

- يجب أن لا تطلع الشمس هنا غدا إلا بعد مغادرتنا لهذا المكان. واعلموا يا عبيد المال: أننا نغزوا لاسترداد إبلكم إليكم، ولتأمين مسارحها في المستقبل!

- 17 -

وحال الحول على سلامي ولد الهادي في الديار المقدسة. وخامر نفسه على الدوام قلق دفين، على مصير ميمونة والمودة بينهما. ولم تمهله خواطره المتسائلة الحائرة لحظة ولا يوما. ألحت عليه وهو في السفينة بين الموبوئين يرى أشباح الموت تخاتله من كل وجهة، وساعة أدائه لمناسك حجه، وفي حالته الراهنة، مريضا في محلة ينبع. وتماثل للشفاء بعد شهور قضاها طريح الفراش في رعاية بعض المحسنين. غير أن أثر ضربة سيف غاصت بين عاتقه الأيسر وكاهله، مازالت تقض مضجعه، وتهدد شقه الأيسر بالذبول والشلل.

ولم يعلم الحاج المسكين، أن حبيبته المسكينة، تهالكت مرتمية على الرمل، وقت الفجر عقب فرارها من بيت أمها، وقد بلغ بها الإعياء حدا شديدا، فنامت تحت أغصان الشجرة الصحراوية المعمرة. وبقيت هناك طريحة ساعتين... ولا أحد يعرف، ولم تكن هي نفسها بمدركة: هل النوم خدرها، أم الإرهاق صرعها؟! والمشاهد المرعبة والكوابيس المخيفة التي عاشتها، لم تكن إلا نسخة طبق الأصل من همومها وهواجسها في اليقظة.

وتنبهت المرأة ضحوة مذعورة، عندما ضربتها أشعة شمس الصيف الحارقة، وعواصف السموم اللاهبة. ونهضت في هلع قائلة لنفسها:

- إلهي ماذا حدث؟! نسيت أرضاع ولدي! ووقع بصرها على الطفل المرمي فوق الرمل قبالة ركبتها، ورأسه غائص جزئيا في التراب المنهال، وغبار الأتربة متراكم فوق عينيه وفمه: - إلهي هل مات؟! أنا أيضا سأموت عطشا! ولكن ينبغي أن يحيا بعدي ولو إلى حين! وحملت الأم صبيها واضعة إياه في حضنها محاولة إرضاعه، ولم يفتح فمه. وانحدرت قطرات من دمع ميمونة الساخن على عينيه المغمضتين. وبعد حين تمدد في حركة تظهر أنه مازال على قيد الحياة. وشهقت المرأة مهللة:
- إلهي لك الحمد! وأمكست بأصابعها حلمة ثديها الأيمن لتحلب منه لبنا في فم الوليد. ولكن عبثا! وحاولت مع الثدي الأيسر بلا جدوى أيضا!: - إلهي لماذا لا لبن في ثديي؟! لقد نضبا قبل الأوان، أو لم يوجد فيهما لبن بتاتا! وأعادت محاولاتها عدة مرات، فلا قطرة لبن واحدة تنزل من الثديين، ولا المولود قبل فتح فمه!

* * *

والتفتت النفساء ساهمة العينين إلى جانب الشجرة الآخر، ورأت سلحفاة صحراوية كبيرة تدور هنيئة البال بجذع الشجرة حول أولادها:
- إلهي! هل سأعجز عن تربية ابني، وتنجح السلاحف..؟! ليتك يا رب كنت خلقتني حيوانا بريا وحشيا، يسعد بذريته، بعيدا عن بني آدم وتعقيداتهم ولؤمهم وشراسة طباعهم! بل ليت أمي لم تلدني! وليت أبي لم يزرعني في غرباء لا تربطهم وشيجة رحم بأهلي وقبيلتي التي لا أعرف منها إلا سلامي الكذاب!

وحانت من الأم التفاتة إلى ابنها، فلاحظت أن عينيه مفتوحتان! نعم! ولكنهما شاخصتان فقط كما يحدث بعد الموت لعيني الميت! وسكبت ميمونة آخر ما بقي في رأسها من دمع قريبا من رأس الوليد الذي لم ير النور بعد ولادته. ولم يطل الوقت حتى قامت مبادرة إلى حفر قبر عميق، مستخدمة بعض أعواد الحطب. ولفت جثمان الوليد في خرقة اقتطعتها من ذيل ملحفتها، ودفنته. لم تنس أن تسنم الضريح، وكدست فوقه أعوادا وأخشابا كما هي العادة مع المدفونين.

وبعد ذلك فقط بدأت تحس تشنج عضلاتها وجفاف ريقها. وغادرت المكان تتمشى بخطوات ضعيفة إلى الشمال، وهي لا تعرف بالضبط ماذا تقصد؟ وتعرض وجهها لضرب ريح السموم التي هبت بعنف. وصبغ الأفق غبار الرمال الأحمر الوردي: - لا إله إلا الله قبل الموت. لا إله إلا الله قبل الفوت! ولم تزل المرأة كذلك تستعد للقاء ربها، مصممة على فكرة واحدة، هي كل ما بقي في ذهنها من هموم: أن تموت وذكر الله آخر شيء في فمها، لتضمن لنفسها حسن الخاتمة. ومرت ساعتان وساعة بعدهما. وانعقد لسانها عن الذكر من شدة العطش. وارتمت من جديد تحت شجرة أخرى، وقد قاربت الشمس كبد السماء، في يوم فظيع من أيام "ردم النجوم" الصيفية.

* * *

وتجمع جمع من رجال أولا عبد الرحمن في مسجدهم، ساهرين في المدة الفاصلة بين رفع أذان صلاة العشاء وإقامتها. وبات الحديث بينهم

شجونا عفويا، والمجادلات تنتقل من موضوع إلى آخر، إلى أن سأل أحدهم:

- وهل جد لكم خبر عن فرسان أولاد اسويلم الذين ذهبوا قبل شهر للبحث عن تلك المخلوقة الفقيدة. ألم يجدوا عنها خبرا؟

- أبدا، ولكنهم بالتأكيد لن يعثروا عليها.

- ولا حتى على جثتها

- وكيف يجدونها؟ ولم نسبقهم لذلك، نحن الذين بذلنا قصارى جهدنا لإدراكها، حين طمست العواصف آثار قدميها أمامنا، وبحثنا عنها ثلاثة أيام متتالية؟!

وعلق آخر:

- كانت تلك الأيام رهيبة: زحفت رمالها على أجنحة عواصفها الحمراء!

- رحم الله طالبنا! لا أنسى ذلك اليوم عندما قال لنا: «حرام عليكم أن تذهبوا للبحث عن فاسقة». وأجبته: «إن أمة محمد ﷺ لا تجتمع على ضلال». وإن الشرع والمروءة يوجبان علينا العمل لإنقاذ حياتها. وأضاف أحد الجلساء؟

- كانت حالة أمها تدعو إلى الشفقة.

- ومازالت... وقاطع المتكلم متحدث آخر:

- حدثني أحد رعاة أولاد احميدان: «أن الفارسين اللذين أرسلهما شكرود للبحث عن أخت زوجته، صادفا في يوم قائظ ثور وحش يستظل بشجرة، وطارداه في الرمضاء بفرسيهما. وكان اليوم شبه مظلم بسبب

العواصف الرملية الوردية...».

- وهل أصطاده؟

- نعم. وبقيا ثلاثة أيام في ظل شجرة هناك: يقددان اللحم، ويودكان الشحم، ويشربان أمخاخ عظام الثور، ويقطعان النعال من جلده...

- لم تكن أمامهما فرصة لغير الصيد لتأخر ذهابهما.

- ولهذا عادا إلى أهلهما بعد أربعة أيام معلنين فشل المهمة.

- يعرفون مسبقا النتيجة، وإنما ذهبوا لتطييب خواطر بنت العتيق.

- وهل التحق ذانك الفارسان بجيشهما قبل أن ينفر به رئيسهم إلى الجنوب؟

- بل هما الآن في الحلة، على رأس حاميتهم المتخلفة عن الجيش.

- ولكن الجيش طالت غزوته! ربما قد يكون قد عاد البارحة أو اليوم؟

- معارك "البيسوس" ها ها ها... هكذا يسمونها من عادتها أن تتعقد وتطول أيامها في فصل الخريف.

- وربما أيضا تكون شديدة وطاحنة هذا العام!

- وحق لها...!

- صحيح! كل القبائل القاطنة بأراضي (الرقيطة) و(أقان) و(أدرار) و(تقانت) و(الخط)، تتوقع مواجهة مدهشة بين الرئيسين الشابين.

- هما بالفعل شبلان فاتكان وعنيدان!

ـ وبينهما ديون لا تحصى من الدماء، تغذيها أحقاد ملتهبة، وحزازات قديمة.

ـ ولا أمل في نهاية تلك الحرب، ما لم تسحق إحدى القبيلتين، سحقا تاما على يد الأخرى!

وهنا تدخل في الحديث رجل مسن جالس في هامش الجماعة، ضعيف الصوت، يتخلل كلامه سعال متقطع:

ـ عجبا لكم من زوايا! مازلتم مصرين على أن تعمر بيوت الله بأحاديث غير لائقة بحرمتها!

ـ لقد اتفقنا يا والدنا بعد نقاشات سابقة مطولة، على أن هذه المواضيع لا محرم لها شرعا في أرضية المسجد.

ـ اتفقتم أم اختلفتم.. ليس هذا هو المهم..

ـ وما المهم في رأيك إذن يا والدنا؟!

ـ إنكم تركتم التعلم وسادكم الجهل، وافتقرتم إلى شيم وأخلاق الزوايا... سأقول كلمة الحق قبل أن أموت...

ـ ولكن مفهوم الحق عندك هو شتم عشيرتك!

ـ الحق أردت. والحق أقول... منذ اندرست محضرة آل العتيق، قبل ما يزيد على ستين سنة، وقبيلتنا تنحط يوما بعد يوم. ونقص عددها بسبب هجرة الأسر التي آثرت تعليم أبنائها على تنمية المواشي، فالتحقت بقبائل زوايا بعيدة منا!

* * *

وقصد القوم إسكات ثورة الشيخ الغاضب الضعيف، ووقف أحدهم يتلو عبارات الإقامة: - الله أكبرُ الله أكبر... قد قامت الصلاة الله أكبر... إلا أن الشيخ تابع خطابه: - أقمتموها لإسكاتي! لكي لا تسمعوا حقيقتكم وواقعكم المخزي! تتصاممون عن صوتي! الموت سيطويني عنكم قريبا. ولكن يا أهلي ويا أبنائي: «ما هكذا تورد الإبل!».

- ولكن عليك أنت أن تحترم المسجد. قم لتؤمنا، فأنت الإمام، والإقامة قد تليت! وهل الكلام بينها والإحرام مذموم أم محمود؟!

- نعم مذموم. ولكن المذموم قبل كل شيء هو الجهل. إن تعلم العلم وتعليمه هما سلاح الزوايا، ولا يحترمون بدونهما، كما أن البنادق والسيوف والخناجر هي سلاح الحسانيين يحمون بها أنفسهم وهيبتهم. ستصبحو ن زناقة يا أهلي!

- هل ستصلي بالناس أم نعين غيرك للإمامة؟!

- ونهض الشيخ قُدام الصفوف، متنهدا يسعل باستمرار:

- اللهم إنني أتقرب إليك بأداء ما افترضت علي من أداء صلاة العشاء، الله أكبر...

* * *

وفي الشمال البعيد من أرض الرقيطة، في جنوب "المرية" تواجدت مجموعة كبيرة من قبيلة النمادي الصيادين، تضم عشرات الأسر، ساهرين، وكلابهم جاثمة من حولهم تبصبص أذنابها، وتمصمص عظام الوحوش، وتلوكها بأنيابها. وقد أُشعلت بينهم نار كبيرة، يترامون حواليها باللحوم المشوية. وقال أحد رجالهم:

ـ إن الفرقة التي ذهبت عنا قبل عشرين يو ما جالبة "القراقيز"[1] إلى مدينة (تيشيت) لم تعد إلى الآن. وهذا يدعو للقلق!

ـ لا داعي للخوف...

ـ ولكنهم تأخروا عن موعد رجوعهم!

ـ انتظر عودتهم إلينا الليلة، أو غدا إن شاء الله.

ـ إن كانوا قد سلموا من لصوص الطريق؟

ـ ليس هذا أول عهدهم بالأسفار، ولا أولى تجاربهم لتفادي المخاطر.

ـ الأمر الوحيد الذي يطمئنني عليهم هو وجود سناد بينهم.

ـ طبعا، لأنه صاحب حنكة وحكمة وحزم معروف.

وأضاف آخر:

– سيسيرون ليلا فقط. ويختبئون نهارا في أماكن لا يعرفها إلا ضببة الصخور وفيران السهول!

وبينما القوم يتجادلون ويتحاورون في شأن عودة المسافرين المنتظرين، اتجهت أنظارهم إلى الكلب "عرقاب"، ينهض واقفا، محركا أنفه وفمه في حركة دائرية، أو من أعلى إلى أسفل أو بالعكس. ثم انطلق يعدو بعيدا في ظلام الليل. وقال متحدث لم يكذبه أحد من جلسائه:

– لاشك إذن أن عرقابا شم رائحتهم وذهب لاستقبالهم!

– ولا ريب في ذلك. لو كان قد أحس وجودا لشيء سواهم، لواصل النباح وظهرت عليه أمارات الخوف والارتباك!

---

(1) واحدها: أقرقز: تنطق شعبيا: آقراقيز (من أصل صنهاجي): جلود الغزلان على شكل قرب الماء، وتملأ بالقديد فتجفف عليه، فيمكن ادخاره مدة أطول.

- ويبقى دائرا حولنا، كأنما يشير إلى أن نرافقه أو نهرب معه!
- أجل، لأنه من أسرة ذكية من كلابنا السلوقية التليدة.

* * *

وكان الرفقاء العائدون قد رأوا ضوء النار عن بعد، وفهموا بما لا يدع مجالا للشك أنها لإخوانهم. إذ ليس بتلك المنطقة النائية من الصحراء سواهم، وقطعان الوحوش المتفرقة هنا وهناك. وبعد نصف ساعة من انسلال عرقاب، رجع راكضا إلى المكان أمام العائدين الذين باعوا بضاعتهم بالربح في مدينة (تيشيت) واشتروا حوائجهم الضرورية من ملابس وسكاكين وأواني صغيرة.

وغمر الفرح والابتهاج وجوه القادمين والمستقبلين لهم. وتحلق الجميع في دوائر متجاورة، يتناولون الأحاديث البسيطة، وعبارات الترحيب الصادقة.

وأدار الصياد سناد وجهه إلى مجموعة من النساء يمينه وتكلم قائلا:

- كيف حالك يا...؟ وأجابته المرأة التي وجه إليها قوله:
- بخير وعافية، مع أهلي الطيبين. وكيف أنت وتعب السفر؟
- لا... لم أتعب بتاتا! خضت سفرا عاديا بسيطا..!
- ولكن أنت تظنين دائما أن المشي متعب، لأنك لا تتحملين الكثير منه!

ـ ليس الآن. تعودت السير، لأنني الآن نمداوية حقيقية!

ـ نمداوية منذ عدة شهور فقط! مازال أمامك شوط طويل، لتتكيفي مع ظروف حياتنا يا ميمونة!

ـ تعودت وتكيفت يا سناد... ومد الرجل يديه نحوها وقال:

ـ خذ ي يا ميمونة هذه الملحفة وهذين النعلين وهذا البُرْد، اشتريتها لك من قافلة جمال عظيمة صادفناها في (تيشيت) عائدة من أرض (تينبكتو).

ـ جزيت خيرا! ملحفتي الآن بالية لا تكاد تستر جسمي!

ـ أدري. ولهذا جلبت لك اللباس، وأعرف أيضا أن بعض أنواع النساء يجب ستر أجسادهن بالثياب حتى لا... آه... أعني... لا تحدث مشاكل: أو تضطرب قلوب النساء غيرة إذا رأين أزواجهن ينظرن إلى... ها ها ها...!

وأجابت المرأة منفعلة قلقة:

ـ لا... لا... أنا لا أحب المشاكل! ولا أريدها! لا أرغب في الرجال ولا أريد أ ن أكون زوجة لأحد! لا أحب شيئا! أنا نمداوية فقط، وأخاف المشاكل... لا لا...!

وتضاحك القوم جميعا في مرح، وهم يرون خوف ميمونة وارتباكها. وربتت نساء ورجال على منكبيها مطمئنين لها قائلين:

ـ لا تنزعجي! سناد يمازحك فقط! مزاح لا أكثر! لن تجدي مشاكل معنا! هدئي روعك. وتنفست النمداوية الجديدة الصعداء قائلة:

ـ نعم يا إخواني! لا أحب المشاكل! أريد فقط أن أعيش بقية حياتي نمداوية معكم! لا غير هذا أبغي!

- أنت نمداوية منا، ونحن أهلك. لا تقلقي من شيء. مسكينة لا تفهم المزاح!

ووقفت بعد أن هدأ بالها، تلبس الملحفة الجديدة، وتقول عائدة إلى مكانها في المجلس:

- نعم أنتم أهلي! ومن ذا يمكنه أن يكون لي قريبا أو ودودا سواكم؟! أنقذتم حياتي من موت محقق. وأكرمتموني. وأحسنتم إلي إحسانا لا ينسى!

- لأنك ابنتنا يا نمداوية... ها ها ها!

وتكلم سناد الذي كان مشدوها بعض الشيء، أو نادما في باطنه على ممازحته لميمونة التي سببت لها إحراجا وانزعاجا، لم يكن قصده من وراء ملاطفته لها:

- ولكن الفضل في إنقاذ حياتك لا يعود إلينا، إلا بقدر ما يعود لهذا الكلب الرابض بإزائي!

- تعني عرقابا يا سناد؟

- نعم.

- كيف كان ذلك يا أخي؟

- تصوري أننا عدنا إلى هذ ه الناحية من سفرنا الأخير، ولم تكن هنا نار موقدة نهتدي بضوئها على مكان وجودكم؛ فعرقاب سيشم رائحتنا من بعيد، ويعرفنا ، ويستقبلنا - كما فعل الليلة - ليدلنا إلى حيث أنتم...

- وما هو الدور الذي قام به لانتشال حياتي؟ لم تحدثوني عن هذا!

- حقا... وأنت تجهلين الكثير من أخبارنا. ولكن من اليوم فصاعدا، يجب أن لا نخفي عنك شيئا، لأنك نمداوية ها ها ها!

وابتسمت ميمونة ابتسامتها العذبة المشرقة الممزوجة بظلال من حزن أسود متحكم في شغاف القلب، وقالت:

- قلت الحق يا سناد، إنني نمداوية وأحمد الله على ذلك. ولا أطمح لغير هذا...!

واستأنف هذا حديثه مرتاحا لابتسام المرأة، مستدلا به على زوال حالة القلق الذي سببه لها مزاحه الذي لم يوفق بالرغم من حسن نيته:

- اسمعي يا أختي...

- أصغي إليك.

- تعلمين أن الصيف الماضي كان فظيعا، بحره اللافح، وعواصفه الحاملة للأتربة الحمراء الصفراء، وقد ابتعدنا إلى الجنوب حتى بلغنا أرض الرقيطة، نطارد المها والغزلان التي سهّل لنا الحر اصطيادها.

- صحيح! أتذكر أنني وجدت معكم كثيرا من "القراقيز" المليئة قديدا وودكا.

- وبينما كنا في إحدى الليالي نستعد للنوم، لاحظنا أن عرقابا يقف ويربض ويضطرب، ثم ينهض وينبح! فأدركنا أن وراء تحركه أمرا مّا. وأخيرا رافقه بعضنا بدافع من حب التطلع. وهناك عثرنا عليك يا ميمونة طريحة تحت شجرة، وأنت في آخر رمق من الحياة!

- ومن ذا سيكون أهلا لي بعدكم؟! واغرورقت عيناها بالدمع، متذكرة ماضيها الذي تريد أن تنساه، ونسيان كل شيء سوى كونها

تمداوية بسيطة، تجوب الصحاري مع الصيادين وكلابهم في أجواء خالية من التعقيد والمشاكل. ثم تتذكر فقط أنهم أنقذوها من العطش...

وتابع سناد روايته:

- هذا هو الفصل الأول الذي يعود إلى عرقاب في تدارك حياتك، أما الفصل الثاني فيعود لهذه الكهلة الجالسة بجانبي.. أعني زوجتي.

- وماذا فعلت أختي زوجتك؟! أنتم والله أهلي الحقيقيون!

- حملناك على أيدينا إلى حيث كنا نبيت. ولما وصلنا بك، بادر بعض القوم ليجرعك ماءً بحقنه في فمك. ولكن أختك هذه رمت إناء الماء بعيدا وزجرتنا قائلة: «لا تقتلوها...! إنها ما تزال حية! وشفاؤها ممكن».

- وماذا فعلت لصالحي؟!

- فلتجبك هي، صاحبة الحكمة والتجربة التي كنا نسيناها آنذاك!

- وتكلمت زوجة سناد، مفصلة الحكاية:

- أرادوا حقن الماء في فمك. وهذا خطأ فادح، لأن درجة العطش التي بلغتها، يصاب صاحبها بتقلص المعدة واليبوسة في الأمعاء. وإذا سقي ماءً يرفضه جسمه لانطواء المعدة، ويقيء، ثم يسقى ويقيء، بدون أن يتسرب الماء إلى عروقه الجافة...

- وكيف عالجت المشكلة يا أختي؟

- جرعتك قبل كل شيء ملء محارتين من زخم النعام. وهو أجود أنواع الدهون في الدنيا، وأكثرها منفعة لجسم الإنسان...

- وهل يتحمل العطشان قوة حرارة الدهون؟ عجبا!

- هذه حكمة وطريقة معروفة عند أبناء الصحراء. بعد قليل من ذلك بدأنا نحقن الماء في حلقك شيئا فشيئا، وبالتدريج البطيء. ولم تصابي بالغثيان، لأن الزخم لين معدتك ومددها بعد تقلصها، فاستقبلت الشراب استقبالا طبيعيا.

- جزيتِ عني خيرا يا أختاه. لهذا قلتُ وأكرر دائما: إنكم أهلي، وأهل الإحسان إلي!

- بل أنا أمك التي أرضعتك لبنها...

- نعم أمي! وأضاف أحدهم:

- وزخمها وماءها ها ها ها!

- وكنت متعبة جدا يا ميمونة هل تتذكرين حالتك؟

- أتذكر أو أنسى: لا أدري! أعرف فقط أنكم أهلي وقبيلتي.

- ولكن سرعان ما عادت إليك صحتك. وها أنت بأوفر صحة وعافية.

وقالت امرأة أخرى تجلس قريبا من ميمونة:

- وجمال أيضا...! ها ها ها!

وتابعت زوجة سناد:

- لا أنسى أبدا منظر قدميك المتورمتين و...

وأجابت ميمونة معلقة:

- كل هذا من فضلكم. ولكن أين وجدتم الماء في تلك الصحاري القاحلة. لم أسمع قط أنكم تردون آبار القبائل الأخرى؟! ومع هذا كان معكم ماءٌ على الدوام!

وعاد سناد إلى تصدر السهرة:

- ذلك أيضا من أسرارنا التي لن نخفيها عنك بعد الآن. اعلمي يا أختي أننا نعرف وحدنا نقاط ماء غامضةً، نخفيها عن الناس، وتخفي نفسها عنهم لبعدها في أعماق الصحاري، ونشرب منها حسب الحاجة.

- آه! تذكرت. وفهمت: قبل نزول أمطار الخريف، رأيت يوما بعض الرجال يحفرون الرمل وينبشون التراب مزيحينه جانبا - كأنما يحفرون قبرا - وكنت خائفة وأنا أراقبهم، حتى وجدوا صفاة كبيرة وقلبوها فبانت لهم عين ماء، فملؤوا منها القرب، وأعادوا تغطية العين مهيلين الرمل فوق الصفاة من جديد!

- أردنا وقتها أن لا تلاحظي الأمر! وإنما: يبدو أنك أنتِ أيضا صاحبة فطنة وذكاء مثل عرقاب!

- لا... لا ولكن بعض الفتيات اللواتي كن بجانبي شرحن لي ذلك.

- لأنهن غريرات جاهلات لأمورنا لصغرهن! لم نكن آنذاك متأكدين أنك ستصبحين نمداوية مقيمة معنا إلى الأبد!

- وهذا هو اختياري الذي لا أريد به بديلا. وعرقاب سيبقى أحب كلابنا إلى قلبي! لأن له على دالة في إنقاذ حياتي.

ولم يخف سناد ارتياحه من الثناء على عرقاب فأضاف:

- سأهديك غدا في الصباح جروا صغيرا من أولاد عرقاب، يكون ملكا لك يا نمداوية!

وتكلم القوم في آن واحد:

- آه: ستملكين جرو عرقاب؟

- إنك نمداوية أصيلة ها ها ها!

- نعم نمداوية ها ها ها!

- وأمه يا ميمونة، هل تعرفينها؟

- لا... لا أعرفها.

- إنها بطاحة بنت ظبظاب!

- ها ها ها! إنك منا بلا ريب!

- ولا أريد غير ذلك! ها ها ها!

- وفي الصيف القادم عندما نعود إلى جوار الرقيطة في مطاردة المها المتضرر من ريح السموم، سيصبح كلبكِ عرقاب الصغير قادرا على المساهمة في الصيد.

- ها ها ها... لنسميه عرقابا الصغير!

- نعم. ليكن هذا هو اسمه!

- عرقاب الصغير ها ها ها!

- كلب ميمونة النمداوية!

- نعم هو كلبي العزيز!

- ها ها ها!

- 18 -

وعاد جيش أولاد اسويلم إلى أهله من أرض (اقان) بعدما شبع وأشبع أعداءه قتالا دار سبعة أيام متتالية، على مسافة قريبة جدا من خيام أولاد اعميرة. وظل الجمعان طوال تلك الأيام في مبارزات ومناوشات واشتباكات متقطعة، من بزوغ الشمس في كل نهار حتى غروبها. ويتوقف القتال حتى الصباح. وتكبد الفريقان خسائر هامة، تجسدت في قتلى وجرحى من الطرفين. واحتد الجدال في القبائل المجاورة، أو الأوساط المراقبة كما يقال. فلا أحد يستطيع أن يكذِّب بشكل قطعي هزيمة أولاد اسويلم، لأنهم انسحبوا من أرض المعركة تحت جنح الظلام. كما لا يمكن لأحد أن يبرر تبريرا قاطعا انتصار جيش أولاد اعميرة، لأنهم لم يطاردوا قوة أعدائهم المتقهقرة. ولو كانوا فعلا في حالة ظفر لما ترددوا في متابعتهم ومطاردتهم. والخسائر في الجانبين متقاربة أو متوازية.

والحقيقة أنهما كانا معا في وضع نزوع إلى إيقاف القتال وتأجيله إلى وقت آخر، سيما أن الذخيرة قلت لدى الكل، ومصادرها بعيدة، والبحث عنها يتطلب الزمن والأسفار إلى شواطىء المحيط الأطلسي وضفاف نهر السنغال.

والغريب، والأمر المدهش الذي تعجب منه كل الناس هو عدم وقوع المبارزة التي كانت منتظرة بين الفارسين الشابين الرئيسين! والسر الكامن

وراء ذلك هو أن كلا منهما خاف صاحبه في سره، ولم يطلع على ذلك أحدا، وقرر عدم طلب المبارزة، وخوضها فقط في حالة طلبها منه من جهة خصمه.

* * *

وانتهى خريف شحيح الأمطار قليل الأعشاب. وأحس أحياء أولاد احميدان عبء الصيف الثقيل يقع على كواهلهم ومازالوا في فصل الربيع. واقتربوا من الآبار التي تضن بالماء أو تجود به حسب غزارة أو ندرة أمطار كل سنة. وذات ليلة توافد جمع من أفراد القبيلة على خيمة رئيسهم ديلول، الذي كان يستريح على حصير مبسوط في النصف ما بين خيمته وخيمة العرافة، في الهواء الطلق. وشغلوا أنفسهم بأحاديث متنوعة المواضيع. وكانت العرافة تصغي إليهم جالسة وحدها في وسط بيتها، مفكرة: - لك الحمد إلهي على ما مننت علي به من نعم! نوبات الصرع تتباعد علي، ولا تنتابني إلا مرة واثنتين في السنة! وهؤلاء الزناقة يحترمونني أكثر فأكثر، ويدفعون إلي بعض الزكاة كل خريف. ومنذ انتقم الله لي من طالبنا ولد العتيق أنا والمرحومة ميمونة بنت الهادي، وأحوالي تتحسن بفضل الله. لقد قتله أولاد اعميرة عقابا له من ربنا على إهانتنا وشتمنا والتسلط علينا! وتذكرت فاطمة طفولتها المضطربة وماضيها: لقد ترعرعت يتيمة في بيت أقارب لأبويها في أرض القبلة. وتذكرت زواجها الأول بابن عم لها. وكيف طلقها بعد عقد القران مباشرة، بنصيحة من أهله، الذين أفزعهم داء الصرع الذي كانت قد أصيبت به آنذاك. وتتابع شريط الذكريات في رأس العرافة: - وكان زواجي الثاني أصعب ظروفا من

الأول، عندما تزوجت رجلا من غير قبيلتي، وذهب بي إلى منطقة (آوكار)، وبعده إلى منطقة (الخط). وكان ينوي إكرامي واللطف بي لولا إصابتي بنوبات حادة من مرضي استمر بعضها سبعة أيام. وعندها اتفق أقاربه على أنني مزوجة لعفريت، ينزل كل مرة أراد لقائي من السماء، ويخنقني غيرة من زوجي الإنسي. وهكذا حكم علي بالطلاق والتشرد لألتجئ إلى أولاد احميدان! إنهم عموما طيبون معي، شريطة أن يسلموا من وساوس زواياهم: أولاد عبد الرحمن الحقودين. أحمدك يا الله على استقرار أحوالي! أملك الآن أربعة رؤوس من الإبل، وعشرين شاة غنم! ولباسي جيد، وخيمتي جديدة، والزناقة يزداد حسن ظنهم بـ" قزانتي" وثقتهم بي! حقا إنني سأعبر الحياة بدون زواج موفق وبدون ذرية! يا لطيف ألطف بي، ويا رزاق ارزقني من الحلال!

* * *

وانقطعت أفكار فاطمة العرافة إذ سألها أحد الرجال المتواجدين قريبا من خيمتها:

– ألا تزالين مصرة يا عرافة على أن القبر الغريب الذي اكتشفه رعاتنا هو لأحد الصالحين القديمي العهد؟!

– بالتأكيد! هو قبر صالح من الأنس أو الجان المسلمين. أو لأحد الأنبياء القديمين قدم الزمان.

– غريب أمره وعجيب! كلما دنا أحدنا منه، فرت الأرانب التي كانت تختفي في أخشابه، وتبقى السلاحف زاحفة حوله!

وترد العرافة:

- لقد حذرت الرعاة. وعليكم أن تحذروهم بدوركم، من مس الحيوانات الوحشية الزائرة لذلك الضريح، بأي سوء. إنها بلا ريب أرواح مسلمي الجان، تجسدت في شكل حيوانات برية، وتأتي للتبرك من ذلك القبر المبارك!

- ولكن لماذا هو أطول من القبور العادية؟

- ألا تعلمون أن الأوائل كانوا أطول قامات من أهل اليوم؟

- لا علم لنا بهذا!

- تعلموه إذن! الدنيا تشيخ. وكل شيء فيها يبدو على غير هيئته القديمة!

إن جدنا آدم عليه السلام كان طوله يتجاوز ستين ذراعا! وعوج بن عناق؟ هل سمعتم شيئا من أخباره؟

- لا أبدا وما هو شأنه؟

- هو عملاق من الأمم الغابرة... أبوه من الإنس وأمه من الجان. وكيف تتصورون قامته وطوله؟

- لا ندري أخباره وأوصافه تابعي..

- كان يقف في البحر المحيط، ويأخذ من قعره سمكة ويرفع بها يده إلى السماء، حتى ينضجها بحرارة الشمس، ويأكلها، ويعيد الكرة، وهكذا دواليك!

- أه! أه!... ما أعظمه من عفريت! إن في مخلوقات الله العجب العجاب!

وتابعت العرافة حديثها، مرتاحة لحسن استماع الجماعة، متحمسة لتفصيل مزيد من المعلومات لمستمعيها:

– عندما كنت شابة في جنوب (آوكار) رأيت قبرا مثل هذا، بل أعظم منه. و يسمونه هناك: نزيل تندرشين "عزري تندرشين" وهو واقع في وهدة رملية لا وجود لأي ضريح آخر بجانبه.

– ومن هو صاحبه؟

– لواحد من مسلمي الجان، قاتل مع محمد ﷺ في غزوة بدر، وجرح فيها وطار إلى الغرب حتى مات في المكان المذكور!

– ومن الذي كشف أمره؟

– صالح معروف من أولياء الله المجرَّبين في تلك الأرض. وإن طول ذلك الضريح يزيد على خمسين ذراعا! وكان الصالح الذي ألهمه الله حقيقته قد سن سنة إهداء الأخشاب له. وكل زائر يأتي بأعواد أو خشبة، ثم يدعو الله عند رأسه...

– وهل هو مجرَّب باليمن والبركة؟

– جد ا! جدا! لم يزره إنسان لمطلب إلا وتحقق بفضل الله. وهو لا يخشى الانطماس لكثرة ما يهدى إليه من حطب مكدس على طوله.

– وكذلك يفعل اليوم رعاتنا نحن - بأمر منك - كلما مروا قرب الضريح الواقع في مراعي إبلنا أهدوا إليه بعض الخشب. وأصبح الآن كدس الأخشاب المستطيل فوقه حوالي عشرة أذرع!

– وأنا أيضا زرته في الشهر الماضي مرتين، وأهديته ما أمكنني حمله. وضربت "قزانتي" على الرمل عند رأسه، وأشارت إلى أنه عبد من عباد الله الصالحين. ولم تشر "القزانة" في ذلك اليوم إلا إلى البشائر والرؤى

البيضاء النيرة بلون اللبن أو القمر ليلة تمه!

- سندعو الله هذه السنة أمام القبر المبارك لتعجيل المطر.

- جربوا.. نعم. وسيستجاب دعاؤكم وتنزل الغيوث مدرارة ميمونة، ويعم الخصب...! ولكن حذار أن تمسوا حيوانات القبر الزائرة له بأي سوء! ولو كانت أفاعي أو عقارب.

- وإذا تهاطلت الأمطار، سنبقى تلاميذ أوفياء للضريح الميمون.

* * *

واقتربت مجموعة سناد النمداوية. من أرض الرقيطة، في أوائل فصل الصيف. وكانت ميمونة بنت الهادي المرتاحة الآن لانتمائها النمداوي الجديد، قد حاولت نسيان كل ماضيها، وطي صفحاته من نفسها. ونجحت في تناسي كل شيء إلا ابنها الذي تمنت دائما أن تزور قبره، عندما تسنح لها الفرص بذلك. وانفردت ضحوة عن مجموعتها. متعللة بقضاء حاجة ما، بعد أن عرفت مكان دفن وليدها، قريبا من مبيت رفقائها. ولما اقتربت من الشجرة المعمرة ذات الغصون المائلة، تذكرت شكلها جيدا، ولكنها ارتابت وخالط مشاعرها إحساس من الخوف والتعجب: - هل هذا هو؟! بل أضخم منه!

هذا قبر عملاق من الزمن القديم! وخطت خطوات مترددة، وارتمى إلى سمعها صوت كلام يرتفع غير بعيد منها. وقيد خوالجها الخوف والخجل وهي تصغي إلى ما سمعت. ثم بادرت في الحال إلى الانزواء والاختفاء بين شجيرات طلح صغيرة، ملتفة حول بعضها البعض. وعاودت النظر إلى كدس الأخشاب المستطيل محدثة نفسها: - لاشك أنني يوم

دفنته كنت منفعلة إلى حد الجنون، وحريصة كل الحرص على تشهير ه بأخشاب كثيرة حتى لا ينطمس بسرعة. إلا أن هذا أكثر عشر مرات على الأقل مما كنت جمعت فوقه! ورأت المرأة أفرادا من رعاة أولاد احميدان يدنون من المكان، ورموا فوق القبر ما جلبوا إليه من حطب وأعواد بأدب وتواضع. واندست ميمونة بين الشجيرات متوقية الرعاة الذين يعرفون وجهها لو رأوه، واستمعت إليهم يقولون: « ... اللهم بجاه هذا الدفين المبارك، يسر لنا المطر والخصب والعافية... » وأخذ كل واحد منهم قبضة من تراب القبر ومررها على جسده تبركا منها قبل أن ينصرفوا .

وفكرت ميمونة متأثرة متعجبة: - رباه! هذي أنا المظلومة، وهذا قبر ولدي الذي لا اسم له! يا الله ! إنه أصبح مزارا للتبرك! فهل ستنجيني ببركته من الفضيحة؟ ويبيض وجهي بعد أن سوده سلامي بنكثه للعهد، وطالبنا بتسلطه علي؟! ولكنني... حقا إنني لا أحتاج إلى شيء سوى البقاء بسلام مع أهلي النمادي. وسأداوم زيارة ضريح ولدي المسكين! إلهي لماذا يقدسونه؟ وهل يعرفونه؟ غير ممكن! أم يحسبونه دفينا آخر؟! رحماك يا الله!

* * *

وأخيرا دنت الصيادة من الضريح، وأدت مراسيم الزيارة كما فعل الرعاة قبلها. وانقلبت على أثرها تعدو باحثة عن مجموعتها النمداوية، وهي تقص آثار الأقدام التي تعرفها الآن كما تعرف وجوه أصحابها. وفي وقت الزوال التحقت بهم يستظلون ببعض الأشجار.

وصدمت القادمة، وهي على مسافة خطوات من تجمع الصيادين. وقد لاحظت أن زوجة سناد خاصة والنساء الأخريات يبكين بكاء شديدا. وينتحبن مولولات.

ـ خير إن شاء الله! ماذا حل بكم يا أهلي؟!

ـ انظري هناك: سناد يكاد يموت! واقتربت ميمونه من الرجل الذي تقدره، ويعظم في نفسها إحسانه عليها. وقالت مندهشة:

ـ آه! ما باله يا إلهي؟ لماذا شج رأسه؟!

وأجاب الجريح سؤال المرأة بصوت شجي:

ـ .. الزناقة الجبناء الحقيرون..

ـ أي زناقة تعني؟!

ـ أولاد احميدان الوضيعون...

ـ يا إلهي! هل هم شرسون إلى هذا الحد؟! «إنما الظلم تحت كل جناح!».

ـ يتهموننا كذبا بأكل ضوال إبلهم... وردت ميمونة مقاطعة:

ـ ولكننا لا ننهب إبل الناس!

ـ يريدون طردنا من هذه الأرض، لنبتعد شمالا في الصحراء... نعم يا أختي، بعض شواذنا قد يلجأ إلى سرقة الإبل ونحرها شريطة أن يعجز عن الصيد وينهكه الجوع والقرم إلى اللحم. ولكن تلك حالات استثنائية نادرة. وإنما المعروف والمألوف على نطاق واسع هو أن لصوص الحسانيين ينهبون المواشي وهم الآفة الحقيقية على الإبل، ضوالها وغير ضوالها.

- وما ذنبنا نحن؟

- لا ذنب لنا يا أختي. إنما قصد الزناقة الأوباش إبراد حقدهم على العربان بضربهم لنا اليوم!

- وهل أبديتم مقاومة ضدهم!

- لم نرغب في ذلك. وكانوا أكثر منا عددا: حوالي خمسين رجلا مسلحين بالعصي العليظة والفؤوس. ولديهم أيضا بندقيتان هددونا بهما.

- هل ضربوكم بالرصاص؟ يا إلهي هنا خمسة جرحى من أهلي!

- جبناء. رصاصهم لا يصيب غير الغزلان. وأظن البندقيتين خاليتين من البارود والرصاص. وتابع سناد، والألم يعتصر جسمه، وجرحه نازف:

- لو رشقناهم بالنشاب والمزاريق، أو استعدينا ضدهم الكلاب، لمزقناهم شر ممزق! ولكننا لا ننشد غير السلام والحرية في بلاد الله الواسعة. لا نريد حربا. ولا مشاكل تقوم بيننا وأي كائن من كان.

- نعم يا أهلي. نحن أهل سلام، نبحث عن الحرية في الفيافي والأحقاف النائية، بعيدا من بني آدم وتسلطهم وأحقادهم وظلمهم المتأصل في نفوسهم.

* * *

واقتربت ميمونة بنت الهادي من الجريح، واضعة أصابعها اللدنة على صدغه الأيمن النازف دما:

ـ آه كيف حالك الآن؟ مازال الدم يسيل!

ـ حالي سيء يا أختي. سأموت قبل نهاية هذا اليوم لا محالة.

ـ لا تقل يا أبي! يجب أن لا تموت يا أخي! هل الضربة بالغة؟

ـ هي ضربة فاس محددة، قطعت عرق الدامعة في صدغي. وهذا العرق لا ترقى جراحه أبدا إذا قطع.

ـ اللهم اكتب الشفاء لأخي!

ـ لقد حاول أهلك إيقاف الجرح ولكن عبثا. ولقد عرفت من أولئك الزناقة رجلا كنت قد التقيت به يوما ما في مكان قريب من هنا. وقضى معنا ليلة حين كان يهرب إبله عن غارات حسانيي الجنوب. وأتذكر الآن أنه قال لي: «إن اسمه ديلول ولد الديلال».

- ديلول! يا إلهي هل صار مفترسا! هكذا صرخت المرأة واضعة يديها على صدرها، ثم تذكرت أن عليها نسيان كل شيء من ماضيها بما فيه الرجل الذي سمعت اسمه. ونظر سناد إلى وجهها شزرا وقال:

- هل تعرفينه؟

- لا... لا أعرف إلا أهلي النمادي. ولكن لماذا يصبح الزناقة الجبناء مفترسين؟!

- حقيرون وأوغاد. ولو بقي من عمري بعض الشهور فإنني سأعرف طريقة انتقام منهم جيدة وسهلة، تلقنهم درسا لن ينسوه!

- كيف...؟

- أهدي لرئيس أولاد اسويلم عدة قراقيز، أرشوه بها، وأشكو إليه ظلم زناقته، فينهب الكثير من أموالهم أو يجلد رجالهم. ولكن... ولكن... وسكت الرجل. وقد بدأ الضعف يتسرب إلى سائر بدنه.

وقالت ميمونة:

- ولكن ماذا؟ قل لي يا سناد شفاك الله!

- الزناقة أخذوا كل ما معنا من القراقيز، أزيد من عشرين من النوع الجيد القديد!

- إنهم معتدون. وسيلقون حسابهم عسيرا يوم القيامة، أمام رب العالمين.

وتابع سناد حديثه، وقد ظهر عليه التعب، وتعثر لسانه، وجف حلقه:

- نعم هو ديلول ولد الديلال اللئيم الوضيع! لو حضرت يومنا ذاك حين داويت له جرحا في كفه كان يؤرقه، ورأيت هجومه الشرس علينا، لعرفت أنه نذل بلا شهامة، ووغد بلا وفاء! لا إله إلا الله! إنني سأموت! ارحلوا شمالا، ولا تنسوا في المستقبل تحريض بعض الرؤساء الحسانيين لينتقم لنا من أولئك الغادرين.

* * *

وغادر أفراد المجموعة مكان مقيلهم ظهرا، بعدما دفنوا رئيسهم. وساروا إلى الناحية التي أوصاهم بالاتجاه إليها. وكانت النساء مازلن يبكين، والرجال الجرحى يساعدهم زملاؤهم على السير. وتبعتهم كلابهم حزينين . وفكروا قبل حلول الليل وتداولوا الرأي ليقرروا عدم الابتعاد كليا من أرض الرقيطة، قبل نزول المطر، لأن نقاط المياه السرية في الشمال متباعدة والفصل موسم الحر. والوحوش كثيرة حيث هم الآن.

- 19 -

وخيم على أولاد احميدان ليل صيفي جميل، خال من عواصف السموم. وهبت من الجنوب الغربي "ريح القبلة" الساحلية الندية. وتجمهر لفيف من رجال القبيلة، كعادتهم، فوق حصير مبسوط بين طنب خيمة العرافة وخيمة ديلول. وسأل رئيسهم مرابطته قائلا:

- ألا تزالين يا فاطمة تمتنعين من استعمال نصيبك من "غنائمنا"؟!

وأجابت العرافة بصوت صارم:

- إنه قديد مغتصب! وأكله حرام علي، بل لا أرغب في بقائه في خيمتي.

وأجابها ديلول:

- وبماذا تستدلين على تحريمه؟ لو ذقته لأدركت أنه من أصل حلال! ها ها ها! وضحك باقي الرجال.

وأردف أحدهم:

- تعني إنه لذيذ؟ لعنك الله أيها الخنزير البري ها ها ها!

وقال آخر ومازال يقهقه:

- وما رأيك يا فاطمة في غزوتنا وغارتنا على سراق الإبل ها ها ها!

- ها ها ها! قالت رأيها ولكننا نرفضه ما لم تأكل قسطها من الغنيمة ها ها ها!

وغضبت العرافة بسبب ضحك الجماعة مستاءة. ولم تكن متأكدة أنهم يسخرون منها، ولكنها لا تطمئن لعدم إصغائهم لفتواها، وهي الزاوية الوحيدة الموجودة في هذا الحي:

- قلت لكم إنني لا آكل الحرام... الغصب ممنوع شرعا. وتسألون عن رأيي في الغارة؟! يا لها من غزوة! أنا... أنا لا أحب لكم الظلم يا تلاميذي، لأ ن مرتعه وخيم!

- لسنا ظالمين، إنما نعوض بعض ما فقدنا، ونقتص لكرائم إبلنا التي وقعت عظامها بين أنياب كلاب النمادي.

- أخشى عليكم انتقام بني حسان إذا اشتكى إليهم النمادي. كلكم تتذكرون بلا شك، حادثة جلد اثنين من قبيلتكم على يد بوبكر ولد عثمان، لأسباب مشابهة، عام قدومي عليكم في الخط؟

- بنو حسان الآن منشغلون بحروبهم. أهلكم الله وأفناهم.

وناجى ديلول اثنين من زملائه قائلا لهما: - اتركوني وحدي أجادلها، وسأقنعها بعد حين بأكل القديد الذي حرمته علينا.

- لن تنجح

- بل عليكم السكوت فقط والانتظار. وسترون أنها مرابطة ساذجة، وجائعة أيضا.

وبدأ ديلول تنفيذ خطته الهزلية، يساعده عليها دهاؤه وطول تجربته مع العرافة، ومعرفته لنفسيتها وأساليب تفكيرها. وصبغ صوته بنبرة جدية واضحة:

ـ اسمعي يا مرابطتي. أدام الله علينا نعمتك وبركتك...

ـ نعم قل ما تريد قوله. أستمع إليك.

ـ نحن يا فاطمة مسلمون. نشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدا عبده ورسوله. وبعضنا يصوم، ونصلي وندفع الزكاة. وظلمنا إذن حرام. والنمادي أكلوا على مر الزمان إبلنا. والقصاص حق معروف للمظلوم. لم نقتل أحدا، ولم ننهب مواشي. وإنما قمنا بـ"غارة" تأديبية. ولما لفظ ديلول الجملة الأخيرة لاحظ واحدا من جلسائه يسد فمه بيديه يكاد ينفجر ضاحكا، فقرصه بأصابعه في جنبه قرصة مؤلمة، مشيرا له بعدم الضحك حتى لا يفشل الخطة. ثم تابع قائلا: – ونحن الآن جائعون بسبب القحط. ولم نغنم إلا هذه القراقيز...

ـ لماذا لا تبحث عن اللحم بطريقة مشروعة، إنك صياد ماهر؟!

ـ ألا تعلمين أن بندقيتي صادرها أولاد اسويلم، ولم يردوها إلي بعد. وزملائي ليست لديهم ذخيرة ليمارسوا الصيد. ولكن هذا ليس هو المهم. اعلمي يا عرافتنا، أطال الله عمرك، أن النمادي أغنياء بلحوم الوحوش والإبل التي يسرقونها! تصوري ما أخذنا منهم زكاة! هل فهمت يا مرابطتي؟

– كلامك يبدو لي معقولا يا ديلول. وأنا إذ أعارض تصرفكم اليوم، يحدوني دافع الخوف عليكم والتعلق بسلامتكم وعافيتكم، في الدنيا والآخرة. و« الظلم ظلمات يوم القيامة ».

– اصبري يا مرابطتي. لم أتمم بعد كلامي.

– ايه. تابع يا تلميذي.

- المهم في الأمر، والحقيقة الناصعة التي لم يتطرق إليها حتى الآن أحد منا، ولا أنت نفسك هي أن الغنيمة التي أتينا بها اليوم لم نجدها إلا بفضل ويمن ذلك الضريح المبارك الذي شكونا لله عنده من الجدب والمحل و...

- ثم ماذا يا ديلول؟!

- ثم إن هذا يشير إلى بداية تكاثر الخيرات والغيوث والبركات...!

وسكتت العرافة بعض الوقت والآخرون ينتظرون رأيها الآن. ثم تكلمت في تردد مباعدة بين مقاطع كلامها:

- يبدو لي.. أرى فعلا أن الحق معك... سبحان من ألهمك هذا!

- أنت التي علمتني إدراك الحقائق وملاحظتها.

- و«الرجوع إلى الحق حق». والآن سآكل قسطي من القديد. لعل فيه بركة!

ومدت المرأة يدها إلى قصعة بجانبها مليئة بقديد لحوم المها اللذيذة. وانهمكت في الأكل. عندها انفجرت الضحكات المكبوتة، واندفع الرجال في مرح جنوني. وتضاربوا بأكفهم على بعضها، ورفسوا الأرض بأرجلهم من شدة الانتشاء بالقهقهة. وسألت العرافة مرتاعة:

- لماذا تضحكون؟! ماذا حدث لكم؟! ولم يجبها أحد، وفكرت وهي تأكل قائلة في نفسها: - لأنكم جهلة وزناقة سافلون...

ونجح أحدهم بصعوبة في أن يجيبها:

- لا شيء! إطلاقا! نحن نضحك من أنفسنا، ونتندر بكوننا زناقة يغزون ويشنون الغارات!

- ها ها ها...!

ـ ها ها ها . . . !

وأضاف أحدهم:

ـ هذه أول غزوة في تاريخ قبيلتنا، دفعنا إليها هذا الحمار الذي يزعم أنه رئيسنا، أعني ديلول الملعون ها ها ها! ها ها ها!

وتكلمت العرافة كأنها تحدثهم، ولكنها تمتمت فقط بصوت غير مسموع:

ـ كلكم حمير وجهلة . . . رب الطف بي! فقد حكم علي بمساكنة هؤلاء الرعاة. وأنا زاوية من قبيلة زاوية! لطفك يا الله!

* * *

وتمشت زوجة ديلول: سراحة بنت العوكادي، حتى بلغت طنب خيمة العرافة القريبة من خيمتها، ونادت زوجها:

ـ ديلول! ديلول! يكفي عبثا ولعبا.

ـ ماذا؟!

ـ قوموا يا رجال واستعدوا لاستقبال النوء.

ـ آه! ها هو! بروق صلوانية. جاء الخير وذهب الشر. وانفض الجمع لتنظيم الأحوال في وجه البروق المتخافقة في الشمال الشرقي البعيد. وقال ديلول:

ـ سيأتي الخريف مبكرا في بداية الثلث الأخير من فصل الصيف. لقد هبت "ريح القبلة" منذ يومين، ومرت الغيوم الجهامية الخفيفة مشرقة لتشرب من "بحر النيل" وتعود إلينا بالخير. أليس كذلك يا فاطمة العرافة؟!

– لا أدري! اذكروا ربكم وتصدقوا في وجه الغيوم القادمة إن شئتم.

– سنحمل غدا هدايا من الأخشاب إلى الضريح الميمون، بعد نزول الأمطار.

– افعلوا ما تريدون، فلن يكون إلا ما يريد الله بمشيئته.

* * *

ومرت سبع سنوات، مملة طويلة ومحزنة، على الحاج سلامي ولد الهادي. كافح فيها الغربة وآلامها ومعضلاتها. وعرف أشياء كثيرة جديدة عليه. ولكن فكرة واحدة بقيت ملحة عليه، ماثلة في وجدانه، تغذيها كوامنه النفسية التائقة دوما إلى العودة إلى أرض الرقيطة، حيث حبيبته وزوجته العزيزة التي لا يعرف ماذا صنعت بها الأقدار، عقب اختفائه عنها وعدم وفائه بعهدها.

ووصل المغترب في النهاية إلى مدينة القاهرة، بعدما اشتغل مدة من الزمن معلما للصبيان أو مؤذنا في مساجد بعض مدن الحجاز. وما إن اتصل بالفقهاء المالكيين في جامع الأزهر، حتى أكرموه أجل الإكرام، وتهافتوا حوله مشدوهين من سعة معلوماته وقوة ذاكرته وحضور بديهته، وسرعة ارتجاله الخطب والمحاضرات.

* * *

وقضى سلامي سنته الثامنة في مصر، وأصبح يدعى بين معارفه بالشيخ الحاج سلام الشنقيطي. واجتمع ليلة باثنين من أصدقائه الأزهريين، ودار بين الثلاثة نقاش مطول:

- ألا تزال معتزما على السفر؟
- بإذن الله.
- ولكن الشريعة ترفض لك هذا السفر الذي لا تقوى على تحمله بدنيا!
- إن لي في بلادي عهودا وحقوقا. «وعد الحر دين عليه».
- ولماذا لا تمعن النظر في المسألة حتى لا تركب أجنحة الرغبة النفسية، وتكون قد خالفت الشرع.

وأضاف الأزهري الثاني:

- إنك ضعيف البنية. والطريق أمامك شاقة وربما غير آمنة. ونحن قطعنا عهدا لطلابنا أن نعينك مدرسا لهم في مواد: السيرة النبوية، وأيام العرب، والأدب، واللغة!

وكان سلامي قد ألقى محاضرات عن أيام العرب، قبل ذلك بأيام تناول فيها أخبار حروب: البسوس والرهان والفجار، وحروب العدنانية والقحطانية، ووفق فيها وجلبت له الإعجاب والتقدير من جانب الكثيرين من أساتذة وطلاب الأزهر. ولكنه لا يريد شهرة ولا مكاسب مادية تعضله عن التوجه إلى الرقيطة. هكذا فكر ثم قال:

- لا مراء في صحة قولكما إنني ضعيف، رغم تحسن صحتي في المدة الأخيرة. ولكن شقي الأيسر شبه ميت، ويدي ترتجف كما لو كنت مصابا بفالج متحكم. إن ذلك من مضاعفات ضربة سيف أصابتني في ناحية ينبع. ولكن...
- ولكن عليك أن تنبذ فكرة سفر تعجز طاقتك عن تحمل أتعابه.
- لا مندوحة لي من مغادرتكم وترككم في رعاية الله وحفظه.

- وأية طريق ستسلك؟

- أمامي ثلاثة محاور للعودة: فإما أن أشتري جمالا وأذهب إلى شمال السودان، وأمر بعد ذلك شمال بحيرة اتشاد، ومن ثم أتوجه إلى السودان الغربي، ومنه إلى بلاد شنقيط، وأقربها من هناك مدينة والاته.

- طريق مخيف! إن لم يهلكك لصوصه، أودى بك العطش في الصحاري!

- الله لطيف بعباده. وإما أن أتجه من الصحراء الغربية في مصر إلى بنغازي أو فزان، ومن هناك إلى جنوب صحراء الجزائر، وبلادي من ثم غير بعيدة.

- مسلك خطير، لا يقل صعوبة عن السابق!

- وإما أن أنتظر سفن الحجاج المغاربة في العام القادم بالإسكندرية..

- هذا أقرب إلى الصواب. وتبقي هنا سنة تنال فيها من أوقاف الأزهر ما يزيد ذات يدك، وتتمكن من جمع الزاد اللازم لسفر طويل يا أخانا.

- ولو رجحت الاحتمال الأخير فإنني سأتمكن من زيارة ضريح أبي العباس المرسي الذي تتوق روحي إلى موافاته. ولكن لا أظن أن باستطاعتي التأخر عن أرض أهلي أكثر مما مضى.

* * *

وهكذا ودع الحاج سلامي أصدقاءه وواصل سفر العودة، وقلبه نابض بالحنين وجفنه ساهر لوخزات مؤلمة في ضميره وشوق شاب معه. ذهب إلى

المح وعمره في حوالي الأربعين. ويبدو لناظره حالا شيخا هرما لكثرة ما عانى. ويزيد منظرَه غرابة شقُّه المشلول ويدُه المرتجفة ووجهُه المغضن.

ولو أن للرجل اطلاعا على الغيب، أو على أحوال حبيبته التي أصبحت نمداوية بالدم واللحم والمشاعر، لآثر البقاء حيث هو الآن: أستاذ أزهري بين زملائه المالكيين المبجلين له، المعجبين بشيمه ومواهبه!

- 20 -

وطوال المدة التي قضاها سلامي ولد الهادي في حجه واغترابه، توالت على أرض الرقيطة وما يليها من المناطق الموريتانية سنوات عجاف غبراء جدباء. وتخللها خريفان جيدان فقط.

وبقيت حرب "البيسوس" كما كانت روتينية مملة، وفظيعة مأساوية. «ولكنها الآن ستنتهي!» هكذا قال ابهيدل ولد فراح ولد الكيحل مخاطبا الفارس الأسود: معتوق ولد بلال. ثم أضاف:

- سنضع النهاية الأبدية لهذه الحرب التي طالت أزيد من مائة سنة في هذا الخريف لا محالة... أتفهم ما أقول لك يا معتوق؟

- أصغي إليك يا سيدي وأنت صادق فيما تقول. وإنما لم أفهم بعد ما تريد. وكيف سننهي الحرب؟

وتابع رئيس أولاد اعميرة يخاطب معتوقه وفرساهما تذهبان بهما بعيدا عن الحي:

- استمع إلي جيدا.

- قلبي وأذناي معك يا رئيسي.

- نعم. إنني سأطلعك دون غيرك على خطة سرية خطيرة جدا. ولكنها ستحقق لنا الهدف المنشود!

- وكيف هي؟

- سأقول لك.. ولا تنس أنني اخترتك من بين معاتيقنا أمينا على أسراري، وحاملا لبندقيتي في أوقات السلم.

- حقا، وهذا شرف لي.

- ولم ألاحظ قط، ولا مرة واحدة، إلا أنك الخادم الأمين والصديق الذكي الفطن. ولم أكلفك قط بمهمة جلت أو صغرت إلا وأتقنت إنجازها.

- وسأبقى كذلك ما عشت.

- والآن تريد أن تعرف الخطة؟

- أجل يا سيدي.

- ولا تنس أن جانبا منها سيبقى سرا مكتوما عن الناس، خاصة أبناء عمي وكل القبيلة، حتى بعد التنفيذ.

- لن أفشي لك سرا يا ابهيدل.

- ذلك ظني بك. إنني يا معتوق طموح وتواق إلى أن يكون لي شرف تحقيق النصر وتحطيم أولاد اسويلم. أريد أن يتغنى المطربون بـ"كرزات"[1] طويلة تتحدث عن فضلي وقطف النصر في عهد رئاستي.

- هذا ما أرجوه لك ولنا جميعا!

- لهذا عليك الآن الانتباه إلى التفاصيل.

- حاضر يا مولاي.

---

1 - ملاحم شعرية عامية، تروي بطولات قبيلة أو بطل من أبطالها، أو تصف معركة. وتغنى في مقام "فاقو" المخصص للحماسة.

- سآمر حينا بالرحيل شمالا بالخيم والنساء والأطفال والمواشي...

- إلى أين يا سيدي؟!

- إلى أرض الرقيطة...

- حيث الأعداء!

- بالضبط. ومثلنا الحساني يقول: «من كرهك كن في أرضه»!

- خطة جريئة ولا شك! لعلك تريد لرجالنا أن يقاتلوا قريبا من زوجاتهم وبنات عمهم، فيزداد إقدامهم، ولا يفكرون أبدا في الفرار أو الانسحاب، وإلا لحاقت بهم الفضيحة؟

- هذا جانب من الخطة. وليس هو المهم، ولن يكون سرا، لا عن أهلنا الذين سآمرهم بتنفيذه غدا، ولا عن أولاد اسويلم أنفسهم!

- وما هو الجانب المهم منها؟

- جانبها السري الذي لن يتجاوزنا نحن الاثنين.

- إيه. قل لي...

- ببساطة، أنوي عندما يتقابل الجمعان في المعركة الفاصلة، حين يستمع الفرسان إلى أصوات الزغاريد والأناشيد والطبول في كل من القبيلتين، في هذا الوقت بالذات سأدعو الشيطان شكرود ولد ببكر ولد عثمان للمبارزة...

- الله يحفظك ويوليك حظا طيبا!

- هذا ما أسعى لتحقيقه... القبائل الأخرى تقول منذ بعض الوقت إنني وشكرود، كل منا يخاف صاحبه! لأننا لم نتبارز قط.

وقال معتوق ولد بلال:

ـ لا أظن واحدا منكما يهاب الآخر. وإنما يحرص كل منكما على البقاء حيا لقيادة قومه، لأن قتل الرؤساء يسبب صدمة نفسية وفوضى في جانب المصابين.

ـ صدقت، ولكني سأحطم هذا الصنم، وأطلب المواجهة هذه المرة ولن يرفض طلبي.

ـ سيوافق لأنه مارد شرير وابن مارد..!

ـ وماذا تظن الآن عن دورك الخاص في الخطة. أو ما هو الجانب السري؟

ـ مرني وسأفعل ما أكلف به، لست أدري...!

ـ أريدك أن تكمن في مكان بعيد من موقع رجالنا يوم المعركة الحاسمة. وإذا تقدم شكرود إلي، سأتظاهر بالفرار أمامه مراوغا، وسيتبعني مغرورا، حتى يمر بجانب مكمنك، فتصفي معه الحساب ببندقيتك هذه...

ـ طابت نفسي! آه لها من تدابير! فهمت مجمل الخطة وسأقوم بدوري فيها أحسن قيام.

ـ ولا تنس حفظ السر.

ـ أبدا...

ـ وسيقول بعض القبائل إننا غدرنا به، ونصبنا له شركا في أثناء المبارزة، إلا أن العيب الذي سيلحق بنا جراء ذلك لا يستحق الذكر مع شرف النصر المبين.

ـ بل سأدعي أنا أنني فعلت ذلك بمبادرة ذاتية من جانبي...

- أنت إذن تفهم خطتي فهما جيدا! وسترى كيف سنسدل الستار الأخير على حرب "البيسوس" منتصرين!

* * *

بعد أسبوع رأى أولاد اسويلم فارسا يقترب من خيامهم قادما من الجنوب. واستقبله بعض الرجال مستطلعين أمره. وأحاطوا به قدام خيمة الرئيس شكرود:

- من أين قدمت؟ إن هذا الفرس نعرفه من خيول أعدائنا!

- طبعا منها، ولكنني لست عدوا لكم ولا لغيركم.

- ومن أنت؟!

- رسول من أولاد اعميرة إليكم.

- وماذا تريد تبليغه؟! لعنهم الله وحرق أجدادهم!

- أنا واحد من زناقتهم. كلفني ابهيدل أن أقول لكم: «إنهم راحلون إليكم هنا بخيامهم وأطفالهم ونسائهم وحيواناتهم. وأنه فضل إبلاغكم الأمر لأنه سينزل ضيفا عليكم». هذا كل ما قال لي.

- حرق الله أباه الأعور. سيرانا وسيجدنا كما يعرفنا!

- ووقف الرئيس المهيب مشيرا إلى رجاله بالسكوت. ثم قال:

- استمع إلي أيها الرسول:

أولا: مرحبا بك، بإمكانك أن تنزل عندنا وتبيت هنا مكرما. نحن لا نغدر بالرسل ولا بالعزل...

- جزيتم خيرا، ولكنني أفضل العودة حالا للعناية بحيواناتي والبحث عن ضوالها التي تشتت في الصيف السابق. وزادي معي.

- ثانيا: سلم لي على ابهيدل، وقل له حرفيا هذه الوصية: «إننا نرحب بهم جيرانا لنا أعزاء. ومنازلهم ممهدة. والأرض خصبة. وأنني سأتولى ضيافته وخدمته بنفسي». نستودعك الله.

* * *

دغدغت الزهرة بنت طالبنا ولد العتيق رضيعها: الولد الثاني لشكرود منها، غامزة خدي الطفل السعيد بأصابعها اللينة، ضاحكة في وجهه. وحرك الرضيع الممتلىء الهادي جفنيه مسرورا. ثم ضحك من مداعبة أمه له. وأصغت هي إلى حديث الرجال أمام خيمتها يناقشون رئيسهم في أمور طارئة:

- تسرعت في طلب المبارزة، قبل المعركة. وكان عليك أن تستشيرنا، لن نوافق إذن...

- قضي الأمر الآن. وأرجو أن أتبعه لأبيه الذي قطعت رأسه في أولى تجاربي القتالية. وهو لا شك أشرس من ولده...

- نخشى أن يكون قرارهم الجديد ناتجا عن كسبهم لحلفاء جدد زادوا بهم مقاتليهم؟

- هذا ما خطر ببالي وأنا أصغي لرسولهم، وأفكر في الرد على تحديهم لنا بالرحيل إلى جوارنا، ووجدت أن وصيتي إليهم كانت الإجابة المناسبة.

- إن هناك سرا غامضا وراء قرارهم. . .! وقال شكرود:

- هم أذل وأحقر من أن يفكروا على هذا النحو! يجب أن نرسل عيونا منا الليلة لاستجلاء الأمر.

- سيما أنهم يعلمون أن أحوالنا جيدة، وأسلحتنا هذا العام أحسن مما كانت عليه كمّاً وكيفاً!

- صحيح يا شكرود، وإن وراء إرادتهم لغزا ما؟

أثناء هذا كان الفارس اللامع والمقاتل الشجاع، شكار ولد الفائز يوجد غير بعيد من شكرود الذي تحلق به شيوخ القبيلة أمام الخيمة. وفكر وهو يستمع إلى المداولات الدائرة حوله بين الرئيس وجماعته: - يجب أن لا نغامر بحياة قائدنا شكرود! علينا أن نحبط عزيمته تلك، ولكن ذلك لن يصح إلا إذا وجدت طريقة مشرفة له. إنه ليس الرجل الذي ينساق وراء آراء الآخرين بسهولة.

وعلا صوت شكرود قاصدا إنهاء الكلام، والدخول في تنفيذ الإجراءات المستعجلة التي يتطلبها الموقف في نظره:

- يكفي حديثا. سينجلي كل شيء مع الأيام! أعدوا أنفسكم جيدا. أين شكار ولد الفائز؟

- موجود. ها أنا هنا حاضر يا ابن عمي. وتقدم الفتى الوسيم، الذي كسب مبارزات عديدة في السنوات الماضية، وهو الآن الساعد الأيمن للرئيس ابن عمه الذي رفض يوما ما الزواج من أخته الجميلة منمانة بنت الفائز، مؤثرا عليها تلك المرابطة: الزهرة بنت طالبنا.

- ماذا تريد يا شكرود؟ أنا جاهز لكل مهمة تنتدبونني لها.

- لن أبعثك هذه المرة إلى الجنوب، في مهمة استقصاء الحقائق الكامنة خلف قرار أعدائنا الحاسم.

- ولم لا؟!

- لأنك معروف. ويصعب عليك التخفي أو تمويه شخصيتك في مثل هذه المهمة. سأرسل غيرك.

- وبماذا ستكلفني من...

- لتذهب حالا مع بعض الفرسان. وجمعوا أحياء أولاد احميدان المتفرقة، وأولاد عبد الرحمن. ومروا الجميع بالنزل هنا قريبا منا، لنوفر لهم الحماية.

- سأفعل...

- ويجب أيضا أن يساهموا في عبء الحرب، ويدفعوا مواشي لتزود المقاتلين في معركة قد تطول أكثر من المعتاد.

وتكلمت الزهرة، ووجهها ثابت إلى ناحية ابنها تضاحكه:

- تتزودون من أموال أولاد احميدان والزوايا أيضا؟! رمت تلك العبارات غير مبالية، وفكرت: - عجبا لك يا شكرود العزيز! كيف تجرؤ على إلحاق ضرر بأصهارك وزواياك؟! ولكن الزوج لم يترك تدخلها يمر بسلام. وزجرها بقسوة:

- اسكتي أيتها المرأة. واعلمي إذا كنت جاهلة لحقيقتي، أنني لست من الرجال الذين تتدخل النساء في شؤونهم. ورفعت وجهها إليه مبتسمة وعلى نظراتها مسحة خجل، ولكنه أردف:

- الزمي حياءك وقدرك. ثم أشار بمؤخرة عينه إشارة خفيفة لم

يلاحظها غيرها. وبإمكانها أن تقرأ منها بصدق قوله الذي لا يبدو عليه الآن أنه يفكر فيه: - «وجودي أمام رجالي يفرض علي القسوة في جوابي لك، حفاظا على هيبتي. ولكنني أحبك، بل أعبدك!».

* * *

وبعد أسبوعين قابل شكرود في بيته، وقت الظهر، وفدا من النمادي. وأهدوا إليه خمسة قراقيز وجؤذرين مدجنين. وودعهم قائلا:

- انظروا هناك. أولئك الفرسان عائدون لإخبارنا باقتراب أعدائنا، ليس لدي مزيد من الوقت للتحدث معكم.

- ولكننا نريد منك أن تأخذ لنا حقنا من أتباعكم.

- سأنتقم لكم من الزناقة الأوغاد.

- لقد قتلوا رئيسنا ظلما وعدوانا، ونهبوا محصولنا.

- سأجلد كل المشتركين في قتل صاحبكم، وألزمهم غرامات تنسيهم روح الاعتداء في المستقبل، طبعا بعد نهاية المعركة.

* * *

وحشرت مئات من الخيم والأسر والحيوانات، من قبيلتي الزوايا والزناقة. وبقي ديلول حزينا مفكرا بين مجموعة من رجال قبيلته، يتحدثون ساهرين في ليلة الانتظار المحموم والسكون الذي يسبق العاصفة.

وقد منعوا منعا باتا من تهريب حيواناتهم، هذه المرة خارج أرض المعركة:

- لقد حبسنا شكرود يا ديلول، ومنعنا من التمتع بفصل الخريف!

- بل أخشى أن تطول مدة المعركة بين تلك الكلاب المسعورة، فتذهب بقية أموالنا التي خلفها لنا الجدب وسنوات المحل، ضحية لشره العربان الذين تقسو أخلاقهم وتتغير طباعهم في مثل هذه الحالات!

- اسمع! اسمع! جنوبا ...!

- نعم. سمعت! أصوات طبول أولاد اعميرة الذين نزلوا مساء اليوم على بعد نصف ساعة جنوب أعدائهم! يضربون البارود، ويرقصون بالبنادق تحت نور القمر، ليقنعوا شكرود أنهم مستعدون.

- غدا يتفانون!

- غدا تفقد الدنيا بعض السباع الضارية، وليس كلها مع الأسف!

- لما رجعت هذا المساء من عند شكرود وأنت حزين، مغموم يا ديلول؟!

- فاوضته وناقشته مطولا. ورفض بعناد أن يأخذ منا غدا أقل من عشر بُدْن للنحر! وودعني بالشتائم البذيئة وعبارات الاحتقار التي لا يصبر الحمير على تحملها!

- يريدون عشرا!.. يا إلهي؟!

- ويشترطون أن تكون كبيرة! وتابع ديلول: - هذا وضع لا يطاق! إنهم يحاربوننا نحن أيضا!

- وحربهم ضدنا مستمرة على مدار فصول السنة الأربعة!

- وأبشركم أيضا...

- بماذا؟!

- إن الرئيس قال لي: «سأجلدكم أمام الناس عندما أجد وقتا لذلك، أنتم المسؤولين عن قتل النمداوي لا غيركم».

- سيخلق لنا وضعا سيئا!

- لن تسوء أحوالنا عما هي عليه الآن! إننا يا إخواني نسير إلى الافتقار بسرعة مدهشة! تسوقنا إليه الأعوام الجافة والمسلحون الأشرار.

- وهل سيجلدنا هذا الحساني كما قال؟!

- أبدا. لا تخافوا هذه الناحية. يريد منا أن نضاعف الغرامات التي ندفعها إليه.

- ولكنه رئيس عود الناس على تنفيذه لوعوده وأقواله!

- لا لا... أنا أعرفه وأعرف أباه قبله. يمكن إسكاته بقليل من الرشوة، شريطة أن يكون أعظم قيمة طبعا من رشوة النمادي له.

- ولكن المصيبة...

- المصيبة والكارثة هي كوننا سنصبح معدمين متسولين عما قريب! فكروا معي في هذا الوضع!

- الويل لنا من هذه الحياة!

– 21 –

وتقابل الجيشان في اليوم الأول والثاني، في مناوشات ومبارزات متقطعة. وكل من الفريقين يستمع إلى الزغاريد وأناشيد "فاقو" الحماسية في حيه القريب. ورفرفت راية أولاد اعميرة الحمراء قبالة الراية الخضراء لأولاد اسويلم.

«لقد آن لهذه الحرب أن تعرف نهايتها . . . » . أعاد ابهيدل ولد فراح تكرير الجانب السري من خطته على مسامع الفارس الأسود: معتوق ولد بلال. ولكن المقاتل الصلب ذا ا الوجه الوسيم: شكار ولد الفائز قد أفشل - من حيث لا يدري - خطة ابهيدل في اليومين الأولين، ومن حيث يدري ويعي، خطة شكرود القاضية بطلبه للمبارزة من غريمه الخطير.

لقد قرر شكار للوهلة الأولى ومعه كوكبة من فرسان عشيرته، أن يتخذوا مبادرات متتالية، بطلب مبارزات من نظرائهم، لتفويت أو تأخير الفرصة على شكرود. لتحقيق عزيمته. وبارز شكار ثلاثة من أعدائه قتل اثنين منهم وجرح الثالث. ونجح أصحابه في مبارزات أخرى ومات أحدهم. ونالت هذه الخطوة أعجاب شيوخ أولاد اسويلم وثناء النساء والمطربين. ولهجت الألسن بعبارات المدح العطر لشكار ومجموعته

الصدامية. واستمر الحال على هذه الصورة ستة أيام، يتوقف القتال بحلول الظلام، وتبدأ المناوشات مع طلوع الشمس.

* * *

وانبزغ ضوء اليوم السابع. وقال ابهيدل في نفسه: «يجب أن أنهي هذه الحرب». وخفقت الخرقة الحمراء في يده وهو يصرخ متقدما عن صفوف قومه في مواجهة أعدائه:

– لا أريدك يا شكار ولا زملاءك. أريد نظيري أن يتقدم إلي. لم أنس يا شكرود الوصية التي بعثت بها إلي! تقدم لخدمتي فأنا ضيفك!

وثار الدم في رأس الرئيس الآخر. ولوح برايته قائلا:

– ها أنا آتيك يا ابن الأعَيْوِر...

وكأن جبلين سقطا من السماء على جانبي المتحاربين، وساد الصمت المطبق وسكنت الضوضاء. ووقف كل فرد من الفريقين وكأن على رأسه الطير، ساكنا في انتظار رؤية النتائج المرتقبة لمبارزة مخيفة بين فارسين فاتكين، يخاف كل منهما خصمه ويطمح إلى قتله!

وما إن دنا الاثنان من بعضهما، ليكاد كل منهما يبلغ مدى رصاص بندقية الآخر، حتى فر ابهيدل هاربا. وتبعه خصمه بفرسه السريع، سهما مارقا في إثر آخر، أو كشهابين منفجرين من سديم واحد في نفس الاتجاه!

ومرت لحظات، ولعلع الرصاص من بندقية معتوق ولد بلال في مكمنه، وأصاب شكرود في خاصرته اليمنى ونفذ من اليسرى. وسقط

مجندلا على قفاه بعيدا من فرسه، وأعفاج بطنه المرتمية على مسافة عشرة أمتار من نقطة مصرعه!

* * *

وانضم معتوق وابهيدل إلى صفوف جيشهما، في لمح البصر، أمام ضربات شكار وزملائه الذين نادوا:

ـ غدارون! أنذال! ليسوا عربانا ولا أهل شهامة! شددوا عليهم الخناق! وانتشلوا راية قومهم وسلاح شكرود الجيد وفرسه. ثم شددوا الهجوم على ميسرة أعدائهم الذين لم يدركوا خطر الضرب حتى سقط بعض أفرادهم، وذلك لشدة نشوتهم بالفرح لقتل الأفعى السامة كما قالوا.

وظهر ابهيدل بين جنوده ممسكا بتلابيب معتوق يصفعه على خديه:

ـ لماذا؟! أتحتقرني؟! وتضرب فارسا في حالة مبارزته لي!

- سامحني يا سيدي! ما كنت على علم. رأيته فقط وأطلقت عليه النار، وهو من أعدائنا!

* * *

وامتزجت الزغاريد والأناشيد في حي أولاد اعميرة، بعويل بعض نساء أولاد اسويلم ـ على غير عادتهن ـ ولم ينجح الحياء ولا الرزانة الموروثة، أو المفروض على الزهرة التحلي بها، أن يحول دون عويلها الفظيع

وبكائها المؤلم. وفزع رضيعها الجميل وأخوه الذي يكبره بسنتين، فبكيا مثلها، وإن كانا لم يعرفا بعد حقيقة الجمرة التي نزلت بغتة على فؤادها! وانهمرت مآقيها بدموع غزيرة ساخنة بقية ذلك اليوم.

* * *

والتحم الجانبان في قتال شامل. وتقاربت صفوفهم الأمامية أكثر من اللازم. واستمع مقاتلو أولاد اعميرة إلى أحد شيوخهم ينادي، بحماسة تغلي:

– اضربوا! اهجموا بلا هوادة! بادروهم ودمكم مازال ساخنا! واضربوا الحديد قبل أن يبرد! لا يغرنكم عنادهم المستميت! دونكم الأعداء فإنهم منهزمون وحق الله! تبع ذلك صوت جهوري لمطرب يدنو من ساقة جيش الجنوب:

– «نحن أبناء الملوك والحرب قد نزل لاباس بالموت إذا حان الأجل!»... لا بأس... ليلا لا لا لا... لو لو لو أواوا إذا حان نانا الأجل... بالموت بالموت.. إذا لي لي لي لو لو... حان الأجل أواه آه... آه أواه!

* * *

وراقب سير المعركة من مكان بعيد نسبيا ثلاثة رجال. أولهم ديلول ولد الديلال، والآخران صديقان من عشيرته لم يمسكا عن النقاش والتعليق على ما يدور أمامهما. وكان ديلول صامتا طول الوقت مفكرا، أو يستمع إلى ما يقولانه:

ـ آه! لقد أنقذ الفرسان من أولاد اسويلم رايتهم!

ـ لا شك أن الذي تداركها هو شكار قائد الفرسان.

ـ دعونا نقترب قليلا لنرى ما يجري عن كثب...

وتدخل ديلول لأول مرة في الحديث الدائر بجانبه:

ـ يكفينا هنا. إننا نشاهد كل شيء.

ـ آه! هل لاحظت؟!

ـ ماذا هناك...؟

ـ صف من رجال أولاد اعميرة، يرمون بنادقهم على الأرض، واقتحموا صفوف أعدائهم وبأيديهم الخناجر!

ـ رأيتهم. سقط منهم الكثير! ولكنهم تابعوا التقدم بالسكاكين! يالهم من وحوش!

وقال ديلول:

ـ نعم: إنهم الآن مشتبكون بالسلاح الأبيض!

ـ يبدو لي أن الراية الخضراء تتقهقر، والحمراء تتقدم!

ـ من الصعب أن نحكم بذلك الآن.

ـ لماذا؟

ـ لأنها في يد شكار وهو بدون موقع ثابت.

ـ صدقت. ها هو يراوح بين الهجوم والمناورة والمراوغة. والفرسان خلفه!

ـ إنه يناوشهم من كل الجهات!

– لأنه شيطان رجيم!

– وربما ينجح في صد الهجوم الذي يتعرض له أولاد اسويلم، وينصبونه رئيسا لهم في المستقبل؟

– كان صديقا وفيا لابن عمه شكرود!

– وهما من أسرة واحدة وهي بيت الزعامة في القبيلة.

– لو صار رئيسهم فإنه سيقسوا علينا أكثر من أي رئيس سابق.

وقال ديلول ونظره مشدود إلى القتال:

– كلهم سواسية. كان يأتينا فقط لتنفيذ أوامر شكرود. وجميعهم أشرار. و« خيرهم من مات ورعت الإبل فوق ضريحه ».

– وهو كذلك!

– آه...! انظر بعيدا. هل ترى هنالك؟!

– ... أولاد اعميرة يتابعون زحفهم إلى الأمام! يهجمون كالحريق لا يذر شيئا إلا وتركه رمادا!

– يا له من مراوغ! هل ترى الفارس شكار؟

– لقد صد الهجوم وأوقف زحفهم!

– قلت لك إنه سيصبح رئيسا!

– ولكن أولاد اعميرة يتقدمون كلما غير الفرسان موقعهم، إن موجتهم تجرف كل شيء!

– آه... ها هو عاد لضربهم وتراجعوا...!

– مؤقتا...! مقاومة أولاد اسويلم تنحصر الآن في مجهود عشرة فرسان!

- لأن مقاتليهم أكلتهم السيوف والخناجر. يا لهؤلاء العربان من وحوش مفترسة!

- لقد دام القتال بينهم من شروق الشمس إلى هذا الحين الذي جاوز وقت الظهر!

- ولكنهم لا يملون القتل والفتك والبطش!

* * *

وتدخل ديلول الذي ظل طوال الوقت صامتا، تقريبا وقال:

- لقد حسمت المعركة، بل الحرب لصالح أولاد اعميرة الملاعين، ضد أولاد اسويلم الملاعين أيضا.

- لا ريب في ذلك!

- انظروا...!

- لقد سحق جيش أولاد اسويلم هل ترونهم؟

- نعم: ثلاثة فرسان يهربون إلى جهة الشمال الغربي...

- ذلك شكار واثنان معه يحملون أمتعة كثيرة! لماذا؟

- قد تكون طبلهم وأشياء أخرى مهمة معه!

- أو أسلحة وذخائر على أمل معاودة الهجوم ضد أعدائهم؟

- لم يبق من رجالهم العدد الكافي لمتابعة الحرب. لقد بادوا وهلكوا لا رحمهم الله!

وسأل ديلول زميليه:

- والآن والحالة هذه: هل ترون من الحكمة أن نحاول تهريب مواشينا عن جيش أولاد اعميرة المنتصر؟ ورد عليه الرجلان قائلين:

– وما رأيك أنت؟ وأجاب :

– سنرى. هيا بنا إلى أهلنا. لو حل الظلام قبل أن يصلوا إلى إبلنا سنسعى إلى الهروب بها، والرحيل بعيدا عن هذه السباع المنتشية بروح النصر. أسرعوا.

– نعم. هيا بنا...

* * *

دخل ابهيدل، قبل غروب الشمس بنصف ساعة خيام أولاد اسويلم، وأحاسيس النصر تكاد ترفعه إلى السماء السابعة. هكذا شعر وهو يقف أمام خيمة الرئيس شكرود بين المقاتلين الظافرين المتحفزين لسحق كل من يتعرض طريقهم. ولكن هيهات! لقد دارت الدائرة على جيش أولاد اسويلم، واختفى مقاتلوهم من الحياة، إلا ما قل وندر! فلا مسلح واحد يبدو في خيامهم. وعويل النساء والأطفال يعلو أمام عشرين رجلا مكتفين بالحبال!

* * *

أمر ابهيدل ولد فراح الفارس الأسود بإطلاق الرصاص على طبل أعدائهم، وتطايرت شظاياه مع دوي البارود الذي زاد النساء والصبيان خوفا وبكاء.

ونظر الرئيس المنتصر مليا إلى وجه وصدر الأرملة: الزهرة بنت طالبنا منتحبة. واقترب منها وغمز منكبها برأس مأسورة بندقيته، فتضاعف عويلها مرتجفة.

وقال مطرب مسن يركب فرسا قريبا من ابهيدل. وكان في الأصل من مطربي أولاد اسويلم:

ـ مروءتك يا عربي! وشهامتك يا رئيس! وأجابه هذا متعجبا:

ـ ماذا تعني يا عجوز المطربين؟

ـ ليس من عادة العربان أن يمسوا النساء والأطفال بسوء!

ـ أهذا ما تعنيه؟! قاتلك الله! اطمئن إلى أنني لن أضايق أحدا غير المقاتلين المسلحين.

ـ ولماذا مست بندقيتك منكب المرأة؟!

ـ لأن البكاء ـ يا بليد ـ يكشف أسنانها البديعة هل هي حقا من أصل زاوي مرابطي؟!

- بالتأكيد، ولكنها درة نادرة! هكذا خلقها الله!

- بودي أن أجلدها بالسياط، لتكشر عن أنيابها، فأتفرج على هذا السحر، وتلك القطع القمرية المقولبة أسنانا بديعة!

- توجد طرق أخرى أكثر لباقة، للتفرج على جمال الحسناوات!

- وكيف؟ وهل بإمكاني أن أعرف ذلك؟

- نعم. أستطيع أن أوضح لك الطريق.

- متى؟

- ربما بعد اندمال الجراح التي سيخلفها هذا اليوم.

- جراح هذا اليوم ستبقى عصورا قبل نسيانها!

- إذا مرت سنة أو سنتان، يمكننا أن نفكر في المسألة.

– وخلال هذه المدة من الانتظار، تعود المرابطة إلى أهلها، وتتزوج زاويا منهم، وتصبح بالنسبة إلي كالجيفة لا أرب لي فيها!

– سأعطيك الإرشادات الضرورية في الموضوع.

– وليكن هذا قبل عودتنا إلى (اقان).

– سيكون...

- 22 -

وجثم على أرض المعركة ليل ثقيل الأنفاس. وسكن كل شيء إلا أفراد جماعة مسجد أولاد عبد الرحمن، الذين أوقدوا نارا عظيمة، يجمعون حول ضوئها في ليلة خريفية غائمة، مائتي جثة، ثلاثة أرباع منها من قتلى أولاد اسويلم، ويدفنونها واحدة بعد الأخرى.

وتحلقت بديلول عشرات وعشرات من رجال قبيلته، منجذبين إليه كعادتهم في طلب آرائه في الأوقات الحرجة:

- لقد قلت لكم أمس والبارحة أننا على حافة الافتقار...

- لقد حلت بنا الكارثة. لن يتركوا لنا فصيلا واحدا من إبلنا!

- هل دفنتم أخانا؟

- تركنا جثته مع جماعة أولاد عبد الرحمن، وسيدفنونه مع القتلى...

- لم نكد نقترب من الإبل لتهريبها، وقت غروب الشمس، حتى داهمتنا كوكبة من فرسان أولاد اعميرة، يقودهم الفارس الأسود الذي قتل شكرود.

- وأمطرونا بوابل من النار! وقال ديلول، وهو يحكك إحدى راحتيه بالأخرى غضبا:

- مرت رصاصة قريبا من أذني، فانبطحت عن بقية الطلقات و« من لم يحن أجله لن يموت ».

- مسكين صاحبنا الذي قتلوه!

- أمرناه بالارتماء على الأرض. ولكنه فزع وآثر الهرب جريا على قدميه. ولهذا أصيب.

- لقد ساقوا عنا مئات من الإبل التليدة، ولم يبق معنا إلا هذه الأغنام!

- وربما جاؤوا غدا لتذبيح أكثرها، قيل إنهم قرروا البقاء هنا أسبوعين، لضرب الطبول والبارود للاحتفال بنصرهم المؤزر...

- مدة كافية لأكل أغنامنا!

- وقد يقتلون بعض رجالنا.

- لأنهم أشرار! ما نزلوا أرضا إلا صبغوها بدماء الأبرياء.

* * *

وفيما انساق القوم في حديثهم، مهمومين، مستسلمين للواقع المرير، دخل حيهم الكبير راكب يسوق خمسة رؤوس من الإبل ويحمل على كفل جمله غزالين مقتولين:

- من أنت أيها الراكب: سأل ديلول واقفا:

- أنا سيلاك.

- لقد عاد بضوال إبله أو بعضها

- ويحمل...! ها هو يأتي بغزالين اصطادهما!

ـ لأن بندقيته هي الوحيدة من بنادقنا التي لم يصادرها أولاد اسويلم، بسبب غيابه وقت نزولنا هنا

واقترب سيلاك بعدما نزل عن ظهر جمله إلى تجمع أبناء عمه وخاطبهم قائلا:

ـ السلام عليكم يا إخواني. كيف أحوالكم؟ ديلول هذا أنت؟ كنت أظنك بعيدا الآن مع الإبل المهربة! وأين هي؟ لماذا لا أرى شيئا منها، وكأنكم حي من الفلاحين!

وأجاب الرئيس وقد أثارت تساؤلات ابن عمه حسرة متقدمة في نفسه:

– حالنا: «حال الفار في النار». وحالك أنت لا يقل سوء!

– لماذا يا ديلول؟!

– لأنك أتيت بضوال إبلك في هذه الليلة لتمكن الأعداء من رقابها...! أعني أولاد اعميرة...

– هل انتصروا؟! هذا ما خمنت هذا المساء ورأيت دلائله!

– وأخذوا كل كسبنا، وقتلوا شقيقك احماده..!

– رحمه الله! قتلوه؟ ويلي من هذه الدينا! اللهم لا تمهلهم بدمه! كلاب! يقتلون الزناقة العزل!

– والزوايا وكل من يصادفون..! وتكلم سيلاك بعد صمت للصدمة العنيفة التي حملها إليه خبر قتل أخيه:

– اللهم ارحمه! قتل مظلوما! ولكنني يا ديلول لم آت لحسن الحظ إلا بالقليل من الضوال.

وقال آخر:

- ونحن كما ترون كضفادع انحسر عنها ماء غديرها، وهبت عليها ريح السموم، لا تدري متى تموت عطشا!

- ولا مدافع عنا الآن، ولا أسلحة لدينا باستثناء بندقية سيلاك التي يقال إنها:

- «بنادق الزناقة لا تصيب إلا الغزلان».

وعلق سيلاك الذي كان قد عاد إلى جمله ليحط عنه الغزالين آمرا بشي لحمهما للرجال المجتمعين:

- الأسلحة على كل حال ليست مشكلة: وسأل ديلول منفعلا:

- ماذا تقول؟!

- قلت إن السلاح موجود بكثرة، إذا كان هنا من يحتاج إليه أو يحلم بحمله.

- أين هو؟ أم أنك تمزح؟!

- ليست الساعة التي أسمع فيها بقتل أخي احمادة، ساعة للهزل والمجون!

- وما شأن السلاح الذي ذكرت؟

- سأروي لك الأمر ببساطة، فاستمع إلي: قبل غروب الشمس بلحظات كنت أخاتل غزلانا ترعى غافلة، وكمنت تحت شجرة ملتفة الأغصان. وقبل أن أضغط على زناد بندقيتي، شاهدت بعيني هاتين اللتين في رأسي، الفارس شكار ولد والفايز وفارسين معه، يقفون قريبا من المكان. وحفروا بيرا عميقة في السهل الرملي الذي كنت فيه. ورموا على عجل في ذلك البير ست عياب مليئة...

ـ بالسلاح؟

ـ طبعا! استطعت أن أرى بنادق وسيوفا وخناجر وذخيرة كثيرة...

ـ وأين ذهب الفرسان بعد ذلك..؟

ـ فروا جهة الغرب مباشرة بعد دفن العياب.

ـ أحقا ما تقول؟

ـ حق. ولكن ماذا يترتب لكم على السلاح..؟ هل...

وانتصب ديلول واقفا، بقامته الطويلة النحيفة، مفكرا، ثم قال:

ـ أيها الرجال! يا أولاد احميدان! هذه فرصتكم! تفرقوا ونادوا إلي جميع رجالكم الغائبين عن هذا المكان! سنرى ماذا سنفعل؟

ـ ها ها ها! إنه يحلم هذا الوغد الذي أفقره العربان! فما كان من ديلول إلا أن طبع بيده مبسوطة الأصابع صفعة قوية على وجه الرجل الذي مازحه ضاحكا. وهو من أصدقائه الحميمين! ودهش القوم مما رأوا، وعلموا أن رئيسهم يفكر في عمل خطير وجديد عليهم!

وانحنى الرجل المصفوع على رعافه المتدفق من أنفه وفكر: -- ... إنه يحلم هذا القرد الأحمق ويتخيل حمل السلاح للقتال أمرا سهلا! ولطالما راوده هذا الهاجس! ولكن مواجهة ابهيدل ولد الفارس الأعور، ورجاله الأشداء من أولاد اعميرة، ليس بمثابة شن الغارات على النمادي بالفؤوس لاستلاب قراقيزهم!

* * *

وبعد ساعة واحدة تجمع زهاء مائة وستين من رجال أولاد احميدان. جاؤوا من حيهم المتفرق في مجموعات من الخيم في التلال الواقعة شمال شرقي منازل أولاد اسويلم. وهبت من الشرق رياح سريعة الهبوب. وانقشع ستار الغيوم من الأفق، ليضيء نور القمر الوجوه المتسائلة، في وهدة عميقة شمال كل الأحياء.

وبدأ ديلول يخطب من جديد، وعند منكبه الأيمن وقف صديقه سيلاك حاملا البندقية الوحيدة في هذا الحشد الكبير.

– هذه فرصتكم يا أهلي! إن انتهزتموها سلمتم وأموالكم، وإن ضيعتموها ضعتم وضاعت! من الذي سيحمينا إن لم نحم أنفسنا؟ أنفضوا من قلوبكم غبار الخوف والخمول والاستسلام! لا تقولوا: «إننا زناقة ورصاصنا لا يصيب إلا الغزلان» ولا أننا لا نصلح إلا «تحت كتاب أو تحت ركاب»! إننا بشر. ولسنا مقتطعين من شجرة غير شجرة بني آدم!

وتعالت صيحات التأييد. ولكن أحد القوم قال:

– وإذا كان رصاصنا يصيب غير الغزلان، فأين هو يا ديلول؟

– ستجدونه، إن لم يكن سيلاك كاذبا وما عهدته كذلك.

– لست كاذبا السلاح موجود، أستطيع إيصالكم إلى مكانه بعد أقل من ساعة.

– وما شأنه؟ وعاد الرئيس إلى الكلام:

– ستعرفون كل شيء، لا تضيعوا الوقت علينا. إنه رزق لكم يناديكم، فهيا بنا جميعا، هيا بنا.. الموت مع شيء من الانتقام خير لنا من موت كموت الحمير باركة مستسلمة.

* * *

وسار القوم سيرا حثيثا، خلف سيلاك ، الذي قادهم مستدلا بأثر أخفاف الجمل الذي كان يركبه، يساعده ضوء القمر وغريزة في الدلالة ورثها جَدا عن جَد، وخبرته في الأرض ومعالمها.

ووصلوا إلى المخزن ونبشوا التراب بسرعة، واستخرجوا العياب. وعاد الرئيس إلى الخطابة قائلا:

- هذه خمسون بندقية، قسموها فقط على المتعودين منكم على الصيد.

- والباقون؟

- سيحملون الفؤوس والسيوف والعصي الغليظة و...

في هذا الوقت وضع رجل مسن من الحاضرين يده على منكب ديلول يريد تكليمه: وسأله الرئيس:

- ماذا تريد يا والدي؟

- أريد أن تذكر الله.. وتتذكر أصلك وأصلنا جميعا! إننا زناقة لم نخلق للسلاح والقتال. لا تهلكنا...

وحمي الدم في شرايين ديلول الغضبان المتحمس. وجرد خنجرا في يده من غمده، وهوى به ليطعن الشيخ. وبادر أفراد من القوم للحيولة بينهما:

- لا تفعل يا ديلول! هذا عجوز خائف...

- ولكن دعوني أصفي الحساب مع هذا المنهزم الحقير، يريد أن تضيع علينا الفرصة السانحة...

- لا... لا تقتل المسكين، إنه صهرك، والد زوجتك، ولا قيمة إطلاقا لاعتراضاته.

– إن لم أقتله قتلتني الحسرة. أريد رؤية الدماء سائلة ولو من جسمي أو منكم أو مما لا أعرف...!

– اتركه لئلا يضيع علينا الوقت. لقد عاد إلى حينا، وسيقبع في بيته خائفا مرتجفا، يظنك مصابا بالجنون!

– سيرى أينا المجنون، وأينا الأحمق؟ لن أنسى أبدا ضرب بل تذبيح أمثاله من الأنذال الذين يتمنون لنا موت الحمير جوعا وإهانة وفقرا وندامة! هذه فرصتكم يا أولاد احميدان، لا تتركوها تفلت...

وقال سيلاك: الرجل القصير القامة السريع الحركة، وقد تنكب بندقية جديدة، وعلق على خاصرته اليمنى كنانة رصاص بادنة، وقصبتين للبارود وخنجرين:

– لن تفلت منا أبدا... هيا بنا يا رجال! ورد عليه الرئيس:

– يجب أولا أن نرسم خطة.

– كيف تتصورها؟ وأردف آخر:

– إيه.. فنحن مستعجلون...

– اعلموا أن أولاد اعميرة، سينامون الليلة ملء جفونهم نوما عميقا... وهذه هي فرصتنا بعد حصولنا على السلاح...

– طبعا! بعد أرق مائة سنة!

– وأعداؤهم قد أبيدوا...!

– إلى أبد الآبدين...

– واحد منا أنا أو أنت: قال ديلول: – سيطلع على وضع الأعداء. هل ناموا في مكان جيشهم القريب من أولاد اسويلم، أم تفرقوا في

حيهم؟ وفي مثل الحالة الأولى سيكون وضعنا أحسن.

ـ لن يعودوا إلى أهلهم قبل الغد، عقب إنهاء التفتيش عن الأسلحة والذخائر في خيام أعدائهم...

وأردف آخر:

ـ بعد حلول الظلام بسويعة، رأيتهم يستريحون غربي أرض المعركة. هناك أبركوا إبلنا ونحروا منها، وحولهم الأسرى المكبلين بالحبال...

* * *

وسرت في نفوس رجال أولاد احميدان حمى الحماسة، وهم يتواجدون في وهدة رملية تقع في مسافة ربع ساعة من مصرع شكرود إلى جهة الشرق.

- هل أنتم مستعدون؟ تكلم سيلاك مخفضا صوته، عائدا من مهمة الاستكشاف.

- نعم كلنا جاهزون، ونزداد تصميما على اغتنام الفرصة.

وبدأ ديلول في إلقاء خطبته الأخيرة، قبل الدخول في المرحلة الحاسمة من تنفيذ الانتفاضة:

- لم يبق من الليل إلا ساعة واحدة. والأعداء كما سمعتم من سيلاك منهكون بالتعب وغارقون في نوم عميق اللجج! انتزعوا من رؤسكم غبار الخوف الموروث والخمول الذي فرض على جدودنا من بين

سائر الناس! هذه الأرض كما رأينا أهلَها وسمعنا أخبارها من أجدادنا عن أجدادهم: كل من هب فيها ودب والسلاح بيده، خافه الناس وهابوه، وملك مصير نفسه بنفسه! وكل من عاش فيها بلا سلاح صار رعية محتقرة، وعالة على ذوي الشوكة.

ونطق عدة رجال في آن واحد:

- كلامك معقول وحكيم. لولاك ما فكرنا في مصلحتنا! هيا بنا!

وانطلق الجمع حذرين في مشيهم، وكل منهم يستعد لأداء الدور الذي أسنده له الرئيس في تفاصيل خطته. واندفعوا إلى نوع من الهجوم، يعتبر غدرا وخسيسة وعيبا لا يمحى في أعراف عربان الصحراء وعاداتهم القتالية المحاطة بهالة من القواعد والشعارات الفروسية التي لا يشذ عنها إلا الساقطون. أما أولاد احميدان فيرون الآن أنهم أجبروا على السير فوق أشواك الجحيم، ليعبروا من عدوة الهلاك المحقق، إلى عدوة النجاة المأمولة!

- 23 -

وعاد الشيخ سلامي ولد الهادي، في نفس الخريف إلى شمال (تقانت) بعد أن استراح من عناء سفره شهرا في مدينة تيتشت. وقد رجع من مصر بالطريق الصحراوي الجنوبي، يركب جملا ويجنب آخر، عليهما متاع أغلبه من الكتب.

ولما وصل إلى مرابع أهله التي تركهم فيها قبل تغربه، لم يجدهم ولا خبرا عنهم. ولقي في الأخير راكبا عرفه، وكان أهله جيرانا لأهل الهادي.

- ... ومتى رجعت إذن من حجك المبارك؟

- هذا أول قدومي.

- وهل سألت ربنا أمام ضريح الرسول ﷺ تفريج كرب المسلمين، بانزال الرحمة المطرية على هذه البلاد، التي سلخها بعد ك الجفاف المحرق!

- سألته أن يحقق لأمة محمد ﷺ كل ما فيه صالحها في الدنيا والآخرة.

- وهل وجدت أخبار أسرتك؟

- لا والله؟

- سأفصلها لك. و«الصبر جميل». ﴿وما صبرك إلا بالله﴾!

– هل حل بهم مكروه؟ لا حول ولا قوة إلا بالله!

– في الدنيا يا سيدي الحاج: برق خلب، وأحداث متقلبة، وحياة فانية!

– ولكن عجل علي الأخبار. إنني مؤمن بالله صابر على قضائه ولو كان قاسيا. علمتني الأسفار والتغرب ومعضلاتهما أن أفتح صدري متقبلا لمشيئة خالقنا، بنفس راضية.

– وهكذا كان أجدادك الطيبون.

– بارك الله فيك. ما هي أخبار أهلي؟

– اعلم يا أخي أن اختفاءك وانقطاع أخبارك، قد خلق لأبويك وضعا صعبا. خاصة أنك بلا إخوة ولا أخوات. وسكت المتكلم، فقال الحاج:

– سفري كان خيرا لي. أديت فريضة الحج. ولم أزد على قطع خطى مكتوبة علي في أزل علم الله.

– والداك رحمهما الله! توفيا في السنة الرابعة بعد فقدهما لك.

– اللهم اجعل جنتك مأواهما، وحوض رسولك ﷺ مشربهما!

– وتتالت تلك السنوات العجاف، قبل هذا الخريف. وهلك أغلب حيواناتكم من الإبل والغنم، خاصة أنها لم تجد من يعتني بها العناية الضرورية كحفظها وجمع ضوالها.

– لن نملك غير ما يرزقنا ربنا. وأين بقية مواشينا؟

– تناقش أبناء عمومتك في شأنها ورعايتها وأخذ غلتها...

– وماذا قرروا؟

- أصدر لهم أحد القضاة فتوى تجيز لهم توزيع مالك على ورثته. وقالوا: «إن الجلاء أخو الموت»! أي أن ذلك الفقيه اعتبر فقدك من النوع الذي يجيز له ذلك...

- الحياة نفسها يا أخي أخت الموت، ولو كان صاحبها حاضرا، لأنها قصيرة ومؤقتة! وكل الأمور مقدرة من لدن حاكم خبير. سبحانه من واحد لا شريك له! وأين يوجد حالا حي أبناء عمي؟

- رحلوا جميعا إلي أرض (آفطوط) القريبة من النهر حيث الأمطار شبه منتظمة...

- تلك مشيئة الله! وكيف صبروا على لذع البعوض بين الغابات والمستنقعات، وما هناك من ذباب مضر بالإبل؟

- باعوا كل ما عندهم منها، واشتروا الأبقار، واشتغلوا أيضا بالزراعة مستخدمين عبيدهم ومواليهم، وتعودوا تلك الحياة!

- إنها إرادة قادر لا مرد لها!

- إلا أن محاضرهم قد ازدهرت منذ استقروا هناك.

- بشرك الله بالخير! حسنا فعلوا «الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا عالم أو متعلم أو معين لهما».

- والأراضي الصحراوية شمال وغرب (تقانت) أصبحت صعبة المراس! ألم تلاحظ السهوب الميتة إلى الجنوب؟!

- لاحظت! قدرة الله لا يعجزها شيء: ﴿كل من عليها فان ويبقى وجه ربك..!﴾.

* * *

واتجه الحاج سلامي من شمال (تقانت) إلى أرض (الرقيطة)، آملا اللقاء بزوجته وابنة عمه الحبيبة . وفكر على نفس المنوال المألوف عنده : - هل سأجدها؟ أم أنها تزوجت بعدي؟! وتمنى أحسن الأماني وتفاءل طاردا الوساوس، والهواجس المتشائمة وهو مسافر وحده بمركوبيه الهزيلين : - وهل رزقت مولودا مباركا وانتظرت عودتي؟ إنها من أسرة عريقة بقيمها ونبل أخلاقها... ولكنني اليوم قد قضيت أزيد من ثماني سنوات بعد فراقنا! ﴿ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن﴾! سينكشف الغيب قريبا. وسأستقبل قضاء الله، شاكرا لحلوه صابرا لمره. ﴿قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا...﴾.

* * *

ومازال سائق الأقدار يسوقه وقائدها يقوده، حتى دخل حي أولاد احميدان، بالضبط ضحوة انتفاضتهم ضد جيش أولاد اعميرة المنتصر! واستفهم الحاج أطفالا في طرف الحي عن مكان خيمة ديلول. وسار إليها بعد أن ترجل وقاد جمليه. غير أنه رأى في الخيمة المقصودة ما دعاه إلى تجافيها : كانت زوجة ديلول تبكي وتتمرغ على الأرض، متجردة من ثيابها تماما، وترفس الصعيد برجليها، صارخة بعبارات الويل والثبور!

واقترب سلامي من الخيمة المجاورة وألقى السلام على العرافة :

- السلام عليكم ورحمة الله.

- وعليك السلام! أظن أنني عرفتك. أأنت سلامي؟!

- أنا هو. كيف أحوال المسلمين؟

- بخير. ولكن السنين الغبراء والحروب تمعسهم بعنف لا هوادة فيه... يا إلهي! صرخت العرافة فجأة متأوهة: إنني عاجزة عن الكلام...!

- ما بالك يا أختاه؟!

- قلبي يؤلمني منذ عامين، ويشتد علي الآن آه...! هل لديك دواء أو حجاب لآلام القلب؟!

- الدواء. لا. أما الحجاب فهو في حوزة كل مسلم مؤ من بالله.

- كيف ذلك؟

- «خذ من القرآن ما شئت لما شئت». هذا هو الحجاب الموافق للشرع. اقرئي بعض الآيات القرآنية للتداوي بها.

- ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾. اللهم خفف آلامي. واشف أسقامي!

- أين ديلول يا فاطمة؟

- آه...! عجبا لك! تسأل عنه قبل ميمونة!

- لست ناسيا لها، لو تعلمين ما عانيت من مضض في نفسي وتعب جسمي لأرجع إلى هنا! وأين هي الآن؟

- ادع لها ربك بالرحمة.

- توفيت؟! متى؟!

- بعد ذهابك بعشرة شهور. نعم عشرة أو تسعة!

- رحمها الله وأسكنها فسيح جناته ﴿ كل نفس ذائقة الموت﴾! وماذا كان سبب وفاتها؟

- يقال أنه أنت. والله أعلم!

- أنا؟ أنا؟ ماذا تقولين يا...؟

- أدركها المخاض وعذبها الخجل، أمام أخوالها اللامبالين بها، فأسلمت نفسها للموت عطشا بين الصحاري في أيام "ردم النجوم" اللافحة.

وسكت الحاج سلامي مفكرا، مستغفرا. وحوقل وبسمل ثم قال:

- اللهم لا تقدمنا إلا لخير، ولا تؤخرنا إلا له. وحدثته نفسه، وقد طفا على مفكرته خاطر سلوى صادقة: - هذا أمر سيء. ولكن أسوأ منه أن أجدها حية متزوجة بغيري، تراها عيناي ولا تصل إليها يداي.

وتكلمت العرافة مظهرة التألم وعيناها متوترتان بشكل واضح، وخاطبت الرجل الصامت:

- أستغفرُ الله العظيم، لا أعرف أسباب غيابك عنها، وأنت عالم أدرى بأحكام الشريعة منا.

- كل ما أخشاه، أن تكون ابنة عمي قدمت على ربها غاضبا عليها، بسبب مساهمتها في قتل نفسها. «النفس وديعة»، اللهم تجاوز عن أخطائها بعفوك ورحمتك الواسعة يا أرحم الراحمين.

- تقول هذا لأنك لم تتصور حالتها النفسية حين هربت! هكذا الرجال!.. يا إلهي.. آه!

- ما بالك؟

- آلام قلبي تخنقني...

- شفاك الله! ولكن قولي لي لماذا السيدة سراحة بتلك الحالة...؟

ـ قتل أبوها الطيب، وجُن زوجها في وقت واحد...

ـ وهل حقا أصيب ديلول بالجنون؟ مسكين...!

ـ ليس مسكينا على الإطلاق. يحمل السلاح، ويقتل بني آدم كما يشاء!

ـ يحمل السلاح؟! ماذا تقولين؟!

ـ ألم تسمع أصوات إطلاق الرصاص في الجنوب وأنت قادم؟

ـ سمعته!

ـ تلك بنادق أولاد احميدان! الدنيا تتقلب ظهرا على عقب، يقتلون آخر رجال أولاد اعميرة، ويذبحون أسرى أولاد اسويلم، أمام أمهاتهم، وأخواتهم وزوجاتهم وأطفالهم! آه! يا إلهي قلبي يكاد يخرج من فمي!

ـ لا أصدق حمل أولاد احميدان للسلاح، وفتكهم بالعربان. لعلك تهذين.. عافاك الله وشفاك.

ـ ستراهم الآن إن كنت تكذبني. لا أعرف هل نجحوا تماما في انتفاضتهم التي بدؤوها في الظلام. ولكن قيل لي وثبت عندي أنهم قتلوا كثيرا وكثيرا جدا من الرجال!

* * *

تحكم التعجب والحيرة في نفس الضيف سلامي. ثم قال، وهو ينظر بعيدا إلى رجال ديلول يقومون بعمليات التطهير النهائية، في اندفاع جهنمي لم يعرف له مثيل في تاريخ حروب أرض الرقيطة:

– لا حول ولا قوة إلا بالله! «تحككت العقرب بالأفعى، واستنت الفصلان حتى القرعا»!

وارتمت العرافة على الحصير مصفرة الوجه، متأوهة وظن سلامي أنها علي وشك نوبة من الصرع الذي ينتابها، ولكنها خاطبته بصوت متهدج:

– هل تعلم كيف مات والد زوجة ديلول المسكينة؟

– لا علم لي بغير ما علمني ربي. كيف إذن وافاه أجله المحتوم؟

– إنه رجل محسن رقيق القلب مثل ديلول في أول معرفتي له، ولكن هذا ظل قلبه يقسو سنة بعد سنة.

وسكتت المرأة، وسأل سلامي:

– ثم ماذا؟

– نعم. كان ذلك الشيخ الضعيف قد سار في الصباح يسوق أربعين من حلائب غنمه، ليوزعها على أرامل وأيتام أولاد اسويلم معزيا مواسيا لهم، ورآه صاحبك صهره فأطلق عليه النار وهو يقول «– خذها، وأنا ديلول! لن أسامح بعد اليوم من يحاول إنبات شجرة أعدائنا». هكذا حكى لي بعض الشهود الذين كانوا هناك! إن ديلول مصاب بهستيريا جنونية غريبة .

وعاد سلامي إلى الصمت، ناظرا ناحية حي أولاد اسويلم، وترنم معتبرا:

– لا إله إلا الله، محمد رسول الله. سبحان مقلب القلوب، ومدور الأفلاك. سبحان مقدر الآجال، القادر على ما يشاء! «تحككت العقرب بالأفعى، واستنت الفصلان حتى القرعا».

وقالت العرافة وهي تتضور ألما، منقبضة على شقها الأيسر، وبدا جليا أنها تهذي هذيانا كالنائمة:

- ... إذا انتصر... د... ديلول الزناقي... سيكون .... يكون بإمكاني القول... بفضل أنه بسبب إهدائه الأخشاب للقبر... نعم القبر المبارك... وإذا عاد الفارون و... رجع شكار... يقتل... د... د... ديلول ويذبح جنوده... أقول: ... إن الله عاقبه .. و... على قتل النمداوي... نهيته عن القتل... وانتقاما أيضا من ربنا لذلك الشيخ المحسن... صهره... قتل والد زوجته... الذي د... دفع لي الزكاة... نعم... كان... وكما نزل المطر بـ... بركة القبر المبارك... الجفاف لأنهم قتـ... لوا حيوانات الضـ..ريح...

* * *

تابعت المرأة هذيانها سويعة. وبعدها انقلبت على قفاها. وأدار لها سلامي ظهره حتى لا يرى جسمها المكشوف. وقد سقطت ملحفتها عن صدرها وجنبيها.

وظنت نساء قدمن لإسعافها أن ما بها صرعة عادية من صرعاتها. وبعد هنيهة خاطبت إحداهن الأخريات:

- ماتت المسكينة! ووضعت أخرى يدها على صدرها فأكدت:

- لقد لفظت المرابطة أنفاسها الأخيرة!

- «الموت حق والله أنها لحق»! إن تجهيزها ودفنها فرض كفاية. إلا أنه قبل أن تتكفل به جماعة من المسلمين، يبقى واجبا على جميع الحاضرين.

وتكلمت إحدى النساء الحاضرات :

- المشكلة هي انعدام الماء، لغسلها. إذ روايانا لم تذهب اليوم لاستجلابه لانشغال الرجال بـ. . . وقالت أخرى :

- والكفن أيضا. ينبغي أن نبحث عن قماش جديد، ومن أين لنا أن نجده؟ وتدخل الضيف :

- لدي أنا قماش أبيض نظيف، أتصدق به عليها . وأسر في ذاته :

- ليكن ثوابه لوالدي وميمونة رحمهم الله.

* * *

وبعد وقت الظهيرة، كان الشيوخ والشبان من أولاد عبد الرحمن يقتربون بحذر مرتبكين، من أرضية المذبحة لتدبير أمور الدفن. وضربت قلوبُهم صدورَهم خوفا من هذا الجيش الجديد الذ ي رمته قدرة قادر، من جوالي المجهول إلى ساحة ما كان أفراده يفكرون بالاقتراب منها.

وفي الوقت ذاته، كان الحاج سلامي ولد الهادي يؤدي صلاة الجنازة على جثمان العرافة، وقد انتظم خلفه صف طويل من نساء أولاد احميدان، يلقنهنَّ صيغة الدعاء للميت بالرحمة. ولم يكن هناك أحد من جنس الرجال.

- 24 -

وعقب الانتفاضة بأربعة أيام، رأى رجل من أولاد احميدان، لم ير أهله منذ شهر، خمسة فرسان يتجهون إليه مسرعين. وزجر الرجل أباعره لئلا تنفر من الخيول. ثم خيل إليه أن الفارس الأمامي منهم هو ابن عمه سيلاك. ولكنه لم يصدق عينيه:

- هل هذا أنت؟! ما شأنك وهذا الجواد الأبلق؟ هل أصبحتم حسانيين؟

- غبت عنا طويلا. وكل شيء تغير بعدك.

- ولكن... آه...! لا أقبل أن هذا...! رغم أني عرفتكم جميعا ولست نائما! ما الأمر يا سيلاك؟!

- نجحت الانتفاضة...

- أية انتفاضة؟! يا للهول! وما الحكاية؟

- لقد طوقنا أولاد اعميرة قبل الصباح، ووضعنا أعناقهم في أنشوطة نارية لا ترحم. فعلنا ذلك بعد أن بتنا ليلة كاملة لا نملك دابة واحدة من الإبل!

- وماذا فعلتم كأنني في حلم!

- طوقناهم من ثلاث جهات، وأطلقنا عليهم طلقة بارودية خالية من الرصاص كما أمرنا الرئيس، فاستيقظوا مذعورين. وعندها...

- عندها ماذا حدث؟

- سحقناهم سحقا.. وفر بعضهم بدون أسلحة، واعترضهم كمين من رجالنا المسلحين بالسيوف والفؤوس ومزقوهم في لحظات..!

- وهل أبيدوا؟

- كلهم الآن تحت التراب، وتدخل فارس آخر:

- بقي منهم فارسان، ولكنهما هربا بغير بنادق. ومن بينهما الفارس الأسود.

- من هو الفارس الأسود؟

- مولى لابهيدل ولد فراح كان قائدا لفرسانه، وساعَده في قتل شكرود.

- هل مات شكرود؟ وماذا حدث لأولاد اسويلم؟

- سنحكي لك كل شيء. والمهم من أمرهم أن فارسهم شكار فر مع اثنين آخرين. ونحن مكلفون من جهة قائدنا بالبحث عنهم وقتلهم.
وقال آخر:

- ولو علموا بما جرى، سيعودون ليتركونا غبارا تذروه الرياح!

- عجبا لهذه الدنيا وهذه الأخبار! إن شعر رأسي يقشعر! وقلبي يكاد يطير بجسمي! وتابع منشد ضوال الإبل واضعا يديه على رأسه، وقد أسكرته أنباء الانتفاضة: - دعوني أفكر. لقد أنسيتموني كل ما في ذاكرتي من أشياء! ربما هم الذين رأيتهم اليوم في الصباح؟

- طيب صف لنا من رأيتهم.

- بعد طلوع شمس هذا النهار: مررت قريبا من عدة رجال، وكنت سمعت قبل رؤيتي لهم صوت طلقة نارية، ومر حولي قطيع نافر من المها،

فهمت أنهم اصطادوا بعضه. ولم أعرف عددهم. ولكنني متأكد أنني شاهدت ثلاثة جياد ضامرة ظامئة، تقف بجانبهم، عليها سروجها!

- إنهم هم ولا ريب! شكار مولع بالصيد كما عرفته.

- وكم يبعدون من هنا؟

- حوالي ساعة ونصف للراكب.

- لنتشاور إذن في تنفيذ المهمة الصعبة:

- لنترك الخيول هنا، ونذهب إليهم كما قال ديلول حين أوصانا:

«حاولوا قتل الشياطين إن وجدتموهم بالحيلة. وحاذروا مواجهتهم على ظهور خيولهم، فإنهم أهل مهارة ودربة، وواحد منهم يستطيع قتل عدة آلاف من أمثالكم ما دام حرا طليقا على متن فرسه».

وعلق أحد الفرسان قائلا:

- صدق فيما قال! فأنا مثلا أشعر بالدوار في رأسي كلما جرى بي هذا الفرس!

- إن أمامنا زمنا طويلا لنجيد أعمال الفروسية، كما يعرفها العربان الذين تربوا عليها. وعاد الكلام إلى سيلاك:

- سيبقى اثنان منكم هنا، مع الخيول والأباعر. أما أنت يا صاحبها فستذهب معي والآخرين لتدلنا على مكان "ضالتنا"! سنمشي في زي صيادين عاديين، يلبسون مرقعات الصيد.

* * *

سار الرجال الثلاثة مشيا على أقدامهم بقيادة سيلاك يصاحبهم الدليل الذي لم تنقطع تساؤلاته:

- وهل حقا مات جميع مقاتلي أولاد اسويلم إلا...؟ لعنهم الله وحرق آباءهم!

- صفينا عشرين أسيرا كانوا مع أولاد اعميرة.

- ومن بقي منهم؟

- الشيوخ العجزة والنساء والأطفال فقط ولكن...

- ولكن ماذا؟!

- أصر رئيسنا على قتل كل من تجاوز العاشرة من أطفالهم الذكور ولكن...

- ماذا؟ هل قتلوا؟

- لا مع الأسف!

- لأي سبب؟

- أنقذتهم الزهرة!

- ومن هي...؟

بنت طالبنا.

- أرملة شكرود؟

- نعم هي. جمعنا الأطفال وأوقفناهم صفا طويلا أمام خيام أهلهم. وفجأة هرعت تلك المرأة الغريبة العجيبة، إلى ديلول وسألته مرتاعة: - ما شأنك مع الأطفال؟ وهل لهم ذنب يعاقبون عليه؟! وأجابها قائلا:

- سأحلق لهم قرونهم في نهاية هذا الاحتفال الذي تشاهدينه. وفهمت ما يريده رئيسنا. كنت ساعتها مع رجالنا، وكل منا يضع أصبعه على الزناد في انتظار أوامر ديلول...

- وما الذي منعكم؟

طوقت الزهرة بذراعيها الطويلتين الناعمتين عنق صاحبنا، سكبت دموعها على صدره قائلة له: - أرجوك! أرجوك! لا تخيب أملي فيك!

وعندها تراخت عزيمة رئيسنا، أمام المرأة الساحرة الجمال! وظلت تكرر له باكية قولها: - اتركهم لي ولوجه الله، وسأبقى أمَةً خادمة لك طول حياتي!

- هكذا سلموا إذن من القتل!

- لقد ذاب ديلول أمام الزهرة، كما تذوب الشحمة بمجرد ما توضع على جمر ملتهب!

- وماذا كان مصير ابهيدل ولد فراح؟ وكيف مات؟

- لا أدري بالضبط، إلا أنه قتل في اللحظات الأولى للانتفاضة. و«لم يسمع صوت الطلقة التي أهلكته»!

- وأين حي أهله الآن؟

- رحلوا عائدين إلى الجنوب، ليلتجؤوا هناك عند قبيلة زواياهم.

- وسيتوبون الآن «توبة الذيب عن الخرفان» بعد أن تقطع أظافره، وتنتزع أسنانه ويبقى أدرد! وابتسم أحد الذين حضروا الانتفاضة وأضاف مكملا:

- وتركنا لهم من حلائب إبلهم ومراكبهم وعبيدهم، ما مكنهم من الرحيل. حبذا لو كنت شاهدت ذلك الجيش الضخم من النساء والأطفال والشيوخ، وليس معهم مسلح واحد!

وانقطعت الأسئلة والأجوبة عليها بتدخل الدليل:

– انتبهوا! شكار وصاحباه ليسوا بعيدين من هنا. وقال سلاك:

– انظروا: أظن أنني أرى شيئا هناك، قد يكون خيولهم؟

– لندرسْ إذن الحيلة التي ستظهرنا عليهم بدون أن نستفزهم ضدنا.

* * *

وفي أوائل الأسبوع الثالث بعد نجاح الانتفاضة، خرج ديلول صباحا بين تسعة فرسان من قبيلته في مهمة تدريب على الرماية والأعمال الفروسية، وأيضا لتفتيش حي أولاد اسويلم وتحذيرهم المستمر الذي دأب على تكريره في صيغة ثابتة: «لو رأيت أي فرد منكم يحمل من السلاح أضعفه، ولو سكينا، فقد أحل لي دم رقبته».

وفي الطرف الشرقي من خيام الحي الذي رحل ونزل بجانب أولاد عبد الرحمن، ثنى ديلول عنق فرسه، ونزل عنها ممسكا اللجام في يده، وسلم على الزهرة بنت طالبنا التي كانت على ربوة قريبة من خيمتها. وحولها ظهر رضيعها يحبو على الرمل، يلاعبه شقيقه الأكبر منه. وكانت المرأة ساهمة تُدَوِّرُ بأصابعها اللدنة حبات سبحة صغيرة.

– السلام عليكِ يا مرابطة. كيف حالك يا حاملة السبحة؟!

– بخير أحمد ربي. وكيف حالك أنت... وقالت في نفسها (يا زناقي) ولكنها نطقت: يا جابر؟!

– نعم. ذلك هو اسمي الصحيح الذي اختاره لي والدي رحمه الله، يوم ذبح شاة عقيقتي. وديلول لقب ألصقه بي أترابي في الصغر.

وقال فارس آخر لم ينزل عن ظهر جواده :

- لأنك كنت تخدع أصحابك في اللعب، وتقص عليهم الأقاصيص الغريبة، فسموك ديلول، تشبيها لك بديلول الحكيم.

وابتسمت الزهرة ابتسامتها المشرقة، تعلوها مسحة حزن من جراح قلبها، وخاطبت الرئيس الجديد :

- يقول إنك كنت تخدع أصحابك!

ورد ديلول بابتسامة ماكرة ثم قال :

- ولكنك أكثر مني قدرة على تنفيذ الخدائع! أشار بهذا إلى نجاحها في منعه من قتل أطفال ويافعي أولاد اسويلم. ولم تفهم هي ما قصده فعلقت :

- ما لي وللخدائع؟ لعلك تعني إنسانا غيري؟! ولم يرد شرح الأمر لها. وبدل هذا سألها :

- من الجالسون في خيمتكم؟

- ليسوا من حملة السلاح، على كل حال : عجوزان مقعدتان معتلتان! إحداهما عائشة أمي، والأخرى والدة... وابتلعت ريقها مفكرة : (المرحوم شكرود) وقالت بلسانها : - والد هذين الصبيين!

- مررت هنا يا مرابطتي لأسلم عليك، وأتفقد أحوالك. وأنا في عونك، ومستعد لتلبية أي طلب معقول تتقدمين به إلي.

- جزيت خيرا وعوفيت وكوفيت يا د... بل يا جابر!

- ولا أخفي عنكِ أنني معجب بسلوكك وقوتك!

- أي سلوك وأية قوة تعني؟!

- لولاك ما استقرت الأحوال بهذه السرعة! ولولاك كان رجالي قد نهبوا إبل أولاد اسويلم. ثم إني علمت أنك تتفقدين حالة كل أسرة منهم. وأنك جمعت لهم العون والحلائب من قبيلتك ووزعتها على المحتاجين منهم...

- هذا واجبي.

- يقال إنك مزجت القبيلتين، وأصبحت رئيستهما؟!

- ما لي وللرئاسة؟ الرئيس الآن لهذه الناحية، هو أنت! وإن كنت قد قمت ببعض المساعي الحميدة، فليس ذلك إلا بفضل تلبيتكَ لبعض مطالبي واقتراحاتي!

- ولن أخيب لك أملا إذا كنتِ... وسكت الرئيس عند هذا الحد. وتعجبت الزهرة سائلة:

- إذا كنتُ؟! ماذا تعني؟

- فقط إذا كانت مطالبك منطقية، كما سبق وأوضحت لك.

وسكن روع المرأة التي كان روَّعها قوله: «إذا كنتِ»، ثم سكت سكوتا متعمدا.

- لن أتعلق بطلب غير منصف يا جابر.

- حسنا يا رئيسة!

- لست رئيسة. إنما أنا مسلمة متواضعة، ترجو من الله التوفيق وحسن الخاتمة.

- ولكن هل لك قبل حسن الخاتمة... وتابع ضاحكا: - أن تحلي لي مشكلة في رأسي عذبني التفكير فيها..؟

ـ مشكلة في رأسك؟

ـ أجل: لقد تمنيت لك "حسن السعد" بزواج طيب موفق. مثلا: قد تختارين أعز وأنبل وألمع فتيان أولاد عبد الرحمن الذين لم تنقص الحروب عددهم. بارك الله فيهم!

ـ لا أريد الزواج ولا أفكر فيه بتاتا! أريد التوفيق من الله إلى فعل الخير، والسعادة في الدار الآخرة.

– التوفيق والسعادة في الدار الآخرة: ... انتظري. لم أتمم بعد ما أردت قوله...

– تابع.

– نعم: يمكنك اختيار أي زوج يلائم "مزاجك" من قبائل هذه الأرض أو غيرها. هذا رهن رغبتك لأنك... ها ها ها لأنك زعيمة! ولكن كيف سيصح ذلك. ومهرك سبق أن دفعه بالفعل إنسان آخر وأخذته بيديك منه؟!

– أي مهر؟

– آه! تسألين عما تعرفين! وهل هناك صد اق أعز وأثمن في رأيك من قتل ابهيدل ولد فراح، وإمهال ناشئي أولاد اسويلم وحيواناتهم من أجلك؟

– لم أفهم ما تعني! وسكت الاثنان. وفكرت الزهرة: – هل هذا الوغد يعرض علي نفسه؟ إن الموت أحسن لي من مجرد تصور مثل هذا الاحتمال! هل سيستخدم علي الضغوط بسبب قبوله لبعض المطالب؟

أما الرئيس فقد ظل ناظرا إلى وجه المرأة. وذاكرته تستظهر بإلحاح

كلمتها يوم الانتفاضة، حين تعلقت بعنقه متضرعة: «... سأكون خادمة لك...».

وانعقد لسان الزهرة، كأنما جثم عليها كابوس فظيع. ولاذت بالصمت، وتكلم الرئيس مودعا:

- أنا الآن ذاهب لشؤوني.. تلك هي مشكلتي التي أردت رأيك فيها. وإذا شئت أن أعبر عنها بصيغة أخرى، فسأقول: - هل توافقين على أن أكون خادمك إلى الأبد؟ سأراك غدا. وأرجو أن لا تدفعيني للقول: - إنني لست مستعدا لتلبية المطالب مجانا وجزافا...

- 25 -

وبقيت الزهرة مفكرة في هذا الحادث الذي أرقها، وجلب إليها هواجس مرعبة: - هذا الزناقي يطلب يدي لأكون زوجة له؟! ربَّ القتل أحب إلي مما يدعو إليه هذا الوغد الذي تلطخت يده بدماء أهل مودتي! إن تصوري لنفسي على قرب منه يبعث في جسدي قشعريرة اشمئزاز عاصفة، وفي نفسي قرفا، وفي قلبي آلاما غير تلك التي سكنته، منذ مات زوجي الحبيب: شكرود ولد بوبكر ولد عثمان، تغمده الله برحمته الواسعة.

وفي آخر الليلة التالية، تذكرت حين غادرها ديلول قائلا: - «سأراك غدا»! يريد أن أهيىء له أجابتي؟ أن أكون زوجته في المستقبل؟ أو أرفض ويمارس أعمالا إجرامية ضدنا؟ إلهي ماذا سيفعل؟! يسوق الإبل أم يقتل الأطفال؟ اللهم الطف بنا في قضائك وقدرك! هل أبيع نفسي لهذا الوغد مقابل ضمان حسن معاملة أهلي وأصهاري المساكين، أوحقن دماء أطفالهم؟! هذا بالنسبة إلي نوع من الموت أمر وأسوأ من الموت الذي تمنيته بدل الزواج من هذا المتجبر! .. لا.. لا لن أكون في بيته، ولو قتل جميع أبناء البشرية، واستولى على كل ما على وجه الأرض من حيوانات! رباه! ماذا أعمل والحالة هذه؟ اللهم وفقني للرشاد، ونجني من شر هذا الخبيث الطامع!

* * *

وحال الحول الأول على تحطيم قبيلتي "البيسوس". وجاء خريف جيد على غير ما كان منتظرا. وظهرت خيام حي الزوايا الكبير بقسميه المسمى أحدهما: أولاد عبد الرحمن، والثاني: "تياب" أولاد اسويلم. وبينهما تنتصب خيمةٌ كبيرة يسكن فيها الحاج سلامي ولد الهادي، العالم المتفنن الذي بدأ منذ عشرة شهور تأسيس "محضرة" مزدهرة يؤمها شباب وأطفال الحيين الممتزجين. وتحلق ضحوة أحد الأيام عشرات من الطلاب بأستاذهم ممسكين ألواحهم، يدرسون مواد: السيرة النبوية، والتوحيد والفقه المالكي، والشعر الجاهلي، إلى جانب القرآن تجويدا ورسما... وخاطب المرابط تلامذته:

- «اطلبوا العلم من المهد إلى اللحد». وأخلصوا النية لله. لا جهاد أعظم وأشرف من تعلم العلم وتعليمه بنية صادقة. لا تقولوا: سنقرأ ليحترمنا حملة السلاح. ولكن: لنتقرب إلى ربنا بمعرفة أحكامه. والتقوى خير زاد يا أبنائي، وإنما مع الجهل لا يتقبل الله الأعمال الصالحة...

ومر فارسان من أولاد احميدان قرب الخيمة، وواصلا سيرهما. وأحدهما يقول لصاحبه:

- هل رأيت مراهقي أولاد اسويلم يمسكون الألواح خاشعين قدام شيخهم؟!

- نعم. تابوا إلى الأبد وأصبحوا زوايا!

- وغير المراهقون طريقة حلاقة شعورهم، ونزعوها بدون احتفالات!

- ولا ضجة وطبول وألعاب فروسية!

- وشيخهم هذا عالم جليل كما يقال؟

- ولو لم تحطم قوة أولاد اسويلم لما وجد مجالا لتأسيس محضرته!

- طبعا لأن أولاد عبد الرحمن، ما كانوا مهتمين بالتعلم قبله!

- وهو الآن سعيد ـ ولا شك ـ وقد نسي على الأرجح ابنة عمه ميمونة...

- ولم لا؟ وقد ماتت منذ ما يقارب عشر سنوات! وهو حالا... ها ها ها!

- أعرف يا صاحبي ما يضحك...

- نعم... هو كما تعلم تزوج أرملة جميلة من أولاد اسويلم و...

- أعرفها شخصيا. إنها العالية بنت عثمان عمة شكرود...

- ولكنه لم يكتف بها! تزوج ثلاثا غيرها زواجا سريا!

- إنه يتخير من نسائهم كما يشاء! ها ها ها!

- ها ها ها! هذا حظه!

- وواجبه أيضا...!

- أن يبث العلم و... ها ها ها!

- وقد أصبح غنيا في مدة وجيزة!

- أغدقت عليه الهدايا والعطايا. حتى رئيسنا قدم له بعض المواشي!

- لأنه يريد منه مدجنا للجيل الناشيء من أولاد اسويلم!

- أنت إذن تدرك مدى دهاء زعيمنا، ذلك بالضبط هو الدافع الذي حمله على تمليكه بعض المال. إنه صاحب حكمة وحنكة فذة في تدبير الأمور وتخطيطها!

- حدثني بعض نسائنا، أن ذلك المرابط سيرزق بعد شهرين أربعة مواليد في وقت واحد!

ـ ها ها ها!

ـ ليعوض بهم ابنه الذي مات مع أمه عام الريح الحمراء! ها ها ها!

ـ ها ها ها!

ـ إنه معلم جيد! وأيضا.. جَيِّد ها ها ها!

وغرق الفارسان في الضحك ساخرين من المرابط العالم، وشامتين بأولاد اسويلم الذين قبلت نساؤهم مبدأ الظئار ضمنيا. وهذا شيء مرفوض بتاتا من جانب نساء الصحراء. ثم قال أحد الرجلين لزميله:

ـ انظر هناك!

ـ أرأيت؟ إنه جيشنا عائد لا محالة. إنه هو!

ـ هيا بنا نسرع.

* * *

ورجع جابر ولد الدلال، كما يدعى ديلول منذ سنة مضت، إلى أهله قادما من جهة (اقان)، حيث تأكد أن أولاد اعميرة قد "تابوا" توبة لا رجعة فيها. والتحقوا بطلبتهم كما هي حال أولاد اسويلم الآن مع أولاد عبد الرحمن. ومر الرئيس الجديد على زناقة عربان (اقان) المنهزمين، وجمع الغرامات وصادر بنادق الصيد، ولم تسلم من ذلك أسر من أولاد اعميرة آثرت الالتحاق بالزناقة على دخول حياة الزوايا. والغريب أنه جنح إلي منطقة الخط لزيارة حي صغير ينتمي في أصله إلى أولاد عبد الرحمن، إلا أن عهده بالتعلم قد تقادم، فأغلظ عليهم في المطالب، وعاملهم كما كان هو يعامل في سابق حياته من طرف الحسانيين المتغلبين!

* * *

جلس الرئيس المهيب في خيمته الكبيرة، وتفرق رجاله في الحي. وزاد القوم فرحة وابتهاجا، أن وصلت بعد ساعة من عودة الجيش، قافلة أرسلها ديلول قبل ثمانية شهور لاستجلاب الأسلحة والذخيرة والحوائج الأخرى بمحاولة شرائها من السفن الرومية الراسية على ضفاف نهر السنغال.

* * *

وضرب الطبل الكبير، المغنوم أصلا من خيمة ابهيدل ولد فراح، ضربات الفرح. ونحرت بدن من الإبل التي جاءت مع الجيش. وظل الاحتفال عظيما، والفرحة غامرة صاخبة، تهدهد كل قلب في عشيرة أولاد احميدان المسلحة الحسانية الآن!

وقدم المرابط العالم لتحية الرئيس وتهنأته بسلامته وظفره، وربما أيضا ليتسلم منه بعض الهدايا التي تعودها خلال العام السابق. وبعد أن سلم الأستاذ على الزعيم، جلس قريبا منه. ولم يبد صاحب السيف أي بشر وحفاوة بصاحب القلم!

ورفع سلامي نظره إلى الوجوه الضاحكة الفرحة، المتحلقة بالرئيس المبجل، وعندها وقع نظر الشيخ على وجه المرابطة الحسناء: الزهرة بنت طالبنا ولد العتيق مبتسمة، يخيل لمن يراها أنها سعيدة. وقال سلامي في باطنه: - سبحا ن مقسم الأقسام والأرزاق! لقد وافقت قبل شهور على الزواج منه باكية متألمة. وها هي الآن ضاحكة، وكأن عودته عيد لها! ولكنها امرأة صالحة، والحق يقال. لم ينس سلامي يوم وافقت الزهرة على أن تصير زوجة لديلول، على كره من نفسها، وكان الأستاذ هو الذي

أقنعها بذلك بحجة ضرورة كسب عطف الرئيس ومسامحته لأهاليها، بل ولحقن دماء المراهقين من أولاد اسويلم.

وواصل العالم حديثه مع نفسه: -- لقد بنت سعادتها في الحاضر على أنقاض سعادتها في الماضي! كانت تشمئز منه وألفته! «سمي الإنسان إنسانا لكثرة نسيانه»! اختفى شكرود من ذاكرتها وأصبح ديلول فيما يبدو حبيبها وهو زوجها! ولكنها سيدة طيبة. كنت أريدها لنفسي عوضا عن أختها المرحومة. ولكنني أقلعت عن تلك النية حين دس لي ديلول رغبته في أن أساعده في الضغط عليها لتقبل عرضه! سبحانك يا إلهي من رب قادر على ما تشاء!

* * *

وأدار الرئيس جابر وجهه إلى أفراد القافلة العائدة وسأل:

– لأي سبب تأخر رجوعكم إلى هذا الوقت؟!

– البحث عن السلاح صعب وطرق استيراده معقدة...

– هل حصلتم عليه من سفن التجار الروم؟

– أبدا. إنها محمية ومحتكرة من جانب أمراء الترارزة في غرب النهر، والبراكنة في وسطه، والإيدوعيشيين في شرقه البعيد.

– وكيف اشتريتم ما جلبتم؟

– جمعناه جمعا بالشراء من الأفراد ومن بعض التجار، وطبعا بأثمان خيالية...

وأضاف آخر من أفراد القافلة:

- واشترينا البارود وبعض الرصاص في الوديان القريبة من جبل (العصابة).

- هل هناك سوق للسلاح؟

- كلا. وإنما الصناع هناك يشترون سبائك الرصاص ويذيبونها لإعادة قولبتها وبيعها، ثم إنهم يستخرجون البارود من معدن عندهم في الجبل...

- لم تأتوا إذن ببارود الروم الجيد!

- ولكننا جربناه، وهو ممتاز، لا يختلف عن غيره من البارود الرومي. يسمونه "المليحة" يمكن أن تراه بعينك وتتأكد من جودته.

- وما هو أغرب ما رأيتم أو سمعتم في تجوالكم وأسفاركم؟

وضحك أفراد القافلة كلهم ضحكا مفاجئا وتغامزوا فيما بينهم. ونظر إليهم الرئيس وقطب حاجبيه:

- لماذا القهقهة؟ وهل في سؤالي ما يدعو إليها؟!

- فقط، سؤالك ذكرنا بأمر عجيب...!

- وما هو؟

- رأينا في حوض النهر (شمامة) رجلين مع الفلاحين هناك، يدعون أحدهما: الشريف الأبيض، وصاحبه: الشريف الأكحل!

- وليسا سوى فارس أولاد اعميرة الأسود: معتوق ولد بلال، وواحد معه من أسياده! ها ها ها!

- ها ها ها!

وابتسم الرئيس وقال:

- يا لهما من شريفين! وماذا عملتم معهما؟ ألم تحاولوا قتلهما لعنهما الله؟

- بل فرا قبل أن نتخذ قرارنا بشأنهما. والعجيب أيضا أن أسرة هناك من الشرفاء الحقيقيين لم تقتنع قط بصدق ادعائهما للشرف.

- سينتحلانه في أرض أخرى إذن!

- وكانت مع كل واحد منهما سبحة كبيرة، ولا يفتر عن تدوير حباتها متظاهرا بأنه يذكر ربه!

وتابع الرئيس تحقيقه بالأسئلة عن نتائج سفر القافلة:

- يبدو لي أن خيولكم نقص عددها بعدنا: هل بعتم بعضها مقابل السلاح والذخيرة؟

- لا والله. ولكننا فقدنا أربعة جياد ماتت بمرض "باروش". وهو داء يفتك بخيول الصحراء إذا مسها بعوض تلك الأراضي.

* * *

وظل سلامي جالسا في مكانه من المجلس، وقورا في مظهره، غاضا لطرفه في الغالب، مرخيا دراعته على يده اليسرى المرتجفة. وتمنى أن توجه إليه أسئلة بدوره، ليروي ما رأى من عجائب وغرائب في سفره الطويل إلى الديار المقدسة. إلا أن أحدا لم يلتفت إليه، ولم يستفهمه عن شيء. وعاد إلى التفكير في الزهرة وزواجها: - لقد قالت لي يوم قبلت الزواج من رجل تعتبر أصله غريبا عليها: «إنها تضحي تضحية مرة. وتتقدم على زواج مصلحة لا زواج محبة». على أنها اليوم تبدو مرتاحة لمصيرها! هكذا يوحي وجهها المشرق وابتسامتها المرحة!

* * *

وحان وقت صلاة الظهر، لينهض سلامي منصرفا، بعد استئذان الرئيس ووداعه. وفي الطرف الغربي من خيام أولاد احميدان تجافى المرور قريبا من شجرة تربط بجذعها زوجة ديلول السابقة، مقيدة بسلسلة من حديد.

وتلا العالم بعض الآيات القرآنية متحصنا بها من شر الجان، مستعيذا مما ابتلى الله به هذه البائسة التي يقال عنها الآن دائما: إنها شبيهة بوضع مجذوب أولاد عبد الرحمن قبل قتله. وذلك أن انتصار أهلها وعشيرتها بدأ بقتل أبيها العزيز المحسن، وانتهى بطردها من خيمتها مطلقة، لتترك مكانها لامرأة وافرة الجمال يتحدث عن روعتها كل أبناء المنطقة!

* * *

تابع أولاد احميدان احتفالاتهم وأفراحهم الصاخبة، تصحبها طلقات البارود والرقص بالبنادق، وأناشيد المطربين الحماسية في مقام "فاقو": «نحن أبناء الملوك.. لا بأس بالموت إذا حان الأجل...».

وقبل غروب الشمس بساعة، دخل حي أولاد احميدان وفد من قبيلة النمادي قادما من جهة الشمال. وصافح أسنهم الرئيس جابر ولد الدلال قائلا له:

– هذه هدية لك يا قائد عربان أرضنا. هذه القربة مليئة بزخم النعام. وتلك القراقيز الستة: اثنان منها من قديد الزراف. واثنان من قديد المها. والآخران من لحوم الغزلان. وأضاف نمداوي مرافق:

- وهذه الجآذر الخمسة مدجنة جيدا وأليفة. وهذا بيض النعام الكبير جلبناه إليكم لأن الأطفال يحبون اللعب به. ونحن لا نريد إلا العافية والمسالمة.

- إذا كنتم كذلك حقا: فعليكم الالتزام الجاد بتنفيذ شرطين اثنين مهمين عندي:

- وما هما يا سيدنا؟

- أولا: أن لا تمسوا مواشي هذه الناحية بسوء بعد اليوم...

- نلتزم بهذا ونقسم عليه: والله لن نفعل ما لا تحبون..!

- ثانيا: لا تصطادوا قريبا منا. أنتم آفة على الوحوش أيضا. بل ستفنى على أيديكم ما دمتم مع كلابكم تطاردونها حيث ما ذهبت أو سرحت!

- سنبتعد عن هذه الناحية. وأرض الله واسعة. ونحن لا نقترب من هنا إلا في آخر فصل الصيف وأوائل الخريف...

- سيمكنني مستقبلا، مقابلة وفود منكم، مثل ما جئتم اليوم. وسأعرف مع الأيام ما إذا كنتم تفون بعهودكم...؟

- سنفعل...

- وإذا رضيت عنكم فسأحميكم من كل ظالم أو متحرش بكم. وسيتم هذا فقط في حالة تصديق سلوككم لما قلتم الآن بألسنتكم.

- هذا ما نرجوه منكم. نحن مسالمون على الدوام يا رئيسنا!

* * *

جلس سلامي ولد الهادي حذو شجرة المسجد المجاورة لخيمته. وأمامه سَخَّان فيه ماء ينوي التوضأ منه قبل صلاة المغرب. ومرر الإمام مسواكا في يده اليمنى على أسنانه، وبصق على الأرض، ثم وارى بصاقه بالتراب. ونظر إلى السماء بعينين حالمتين. متعجبا من صنع الله وقدرته. وقارن في ذهنه بين منظر مراهقي أولاد اسويلم، يتلون ما في ألواحهم، بعناية واجتهاد وخشوع، لحفظه حفظا جيدا، وبين صورة شبان أولاد احميدان التي لا تزال عالقة برأسه منذ رآهم في زوال نفس اليوم: يطلقون قرونهم، ويركبون الخيول العربية العتيقة، يجرونها في سبيل التمرن على الأعمال الفروسية وتعلمها. وازداد تعجب الرجل وهو يتذكر ماضيه هو، وماضي وحاضر المحيطين به . ومد يده إلى إناء الوضوء، وانفجر صوته بذكر الله مترنما:

– لا إله إلا الله! محمد رسول الله! الله. الله! الله، الله! محمد رسول الله!...

«ومن صحب الأيام أنأين جاره وأدنت له من ليس بالمتداني»[2]

---

1 – من قطعة للشاعر الموريتاني القديم: سيدي عبد الله بن احمد دام الحسني.

- 26 -

وحال الحول الثاني على الحيين الكبيرين، في أحوال سياسية هادئة، حسب مفهوم كل منهما للهدوء والاستقرار. غير أن السماء ضنت في ذلك العام بمائها، في خريف جاء خصبه دون درجة المتوسط.

واستقبل الرئيس جابر، وفدا من أصهاره:

- كيف أحوالكم يا طلبتنا؟

- نحن بخير وعافية. ولكن القحط المنتظر في فصول: الشتاء والربيع والصيف القادمة، يقلق بالنا، ويدفعنا إلى التفكير في أمره...

- حق أن ما نبت من الأعشاب لا يكفي المواشي إلا مدة بقية هذا الخريف فقط.

- ونحن ننوي الرحيل جنوبا إلى (اقان). هناك الخصب عميم، والغدران طافحة بزلالها...

- نعم. من الملاحظ أن كل خطوة جنوب أخرى تبدو أكثر ماء، وأوفر كلأ!

- والرمال الميتة، تقترب إلى جهة الجنوب سنة بعد سنة! هذه مشيئة ربنا القادر على ما يشاء!

وفكر الرئيس هنيهة، بعد الاستماع إلى أقوال زائريه: - لا بأس برحيلنا نحن أيضا إلى هناك. فسنكون قريبا من الزناقة الذين ورثناهم من أولاد اعميرة. وأسرهم التي لم تتب، ويجب أن أستفيد منهم ما أمكن... هناك أيضا الأرض الخصبة لمواشينا.

- طيب يا زوايانا: نحن نفضل الرحيل معكم إلى جهة الجنوب، إن لم نبق جميعا هنا.

- لا إقامة ممكنة مع الجدب والمحل المتزايد.

- سأرى المسألة مع جماعتي، انتظروا. ستسمعون ما سنقرره في المسألة.

* * *

ولم يشأ سلامي ولد الهادي، أن يغادر منطقة الرقيطة، وقد قررت الأحياء الآن الرحيل عنها إلى الجنوب في يومين قابلين، إلا أن يجرب حظه في زيارة القبر المبارك، الذي تكثر الحكايات وتتشعب الروايات، حول استجابة الدعاء عنه، لما لصاحبه المجهول من جاه عظيم عند الله. وركب الأستاذ جملا له أهداه إليه أحد شيوخ أولاد عبد الرحمن قبل مدة، مقابل التزامه بتحفيظ القرآن لولده. وسار الشيخ وحيدا متجها إلى الشمال، في صباح يوم جمعة: اليوم المفضل لزيارة المقابر. وأخذ في تلاوة بعض الآيات القرآنية مفكرا: - لعل الله يكتب لي الشفاء من ارتعاش يدي إذا استجيبت دعوتي، أمام ذلك الضريح؟ قد يكون لعبد صالح من عباد الله المؤمنين. ومهما يكن من شيء فإنني لن أهدي له أخشابا، ولن أطلب من

صاحبه شيئا، كما يفعل العوام من الناس والجهلة، وإنما سأتضرع لربي بالرحمة لساكن القبر، وبالشفاء ليدي، إن ربي على كل شيء قدير!

* * *

وعاين سلامي بعد خروجه من الأحياء فرسانا من أولاد احميدان وعلى رأسهم سيلاك: الرجل القوي، قائد الفرسان والساعد الأيمن للرئيس جابر ولد الدلال. وكانوا عائدين من مهمة تدريب صباحية، ولقوا عبيدا لهم، وأخذوا في جلدهم بالسياط، بذريعة أنهم تأخروا عن اللحاق بالمواشي التي يرعونها. وأزعج المنظر الفقيه فصرخ في وجه القوم:

– حسبنا الله ونعم الوكيل! لا تفعلوا! حرام عليكم: «... أنفقوهم مما تنفقون واكسوهم مما تكتسون، ولا تكلفوهم من العمل ما لا يطيقون». الله! الله! في حقوق خولكم...

ولم يعر الفرسان اهتماما للواعظ الذي تجاوزهم. وقال سيلاك:

– إلى أين يذهب هذا المرابط. وماذا كان يقول؟

– ربما يعود إلى الحج؟ لا رده الله! غمغم لنا بكلمات من عربية الكتب، وذكر النفقة والكسوة...!

– ها ها ها! لأنه بحاجة إليهما...!

– ها ها ها! لزوجاته وأولاده الأربعة الذ ين جاؤوا في شهر واحد!

– وهل علمتم بزواجه الأخير، قبل أيام؟

– لا أبدا...! ومع من؟!

- طلق زوجته العالية بنت عثمان، بل هي على الأصح طلقته، وأقسمت له أيمانا مغلظة لا يجمعها معه ظل بعد اليوم الذي انكشف فيه أمر زوجاته السراري للجميع.

- ومن هي زوجته الجديدة؟

- منمانة بنت الفائز..!

- أوه...!

- صارت رزقا له! عجبا لهذه الأيام ودورانها والدنيا وأحوالها!

- نعم. هي الحسناء الرائعة، كان أهلها يوما ما يعدونها لتكون زوجة لشكرود!

- وفضل عليها المرابطة القابعة اليوم في خيمة رئيسنا. ويقال إنها كانت غير راغبة في الزواج بعد فشلها في أن يكون شكرود من حظها...!

- وسيتابع، ولا شك، عقد الصفقات السرية! ها ها ها!

- ها ها ها! وما الذي يمنعه من ذلك؟

- انظر هناك! هل تراه؟

- نعم. إنه ذاهب إلى القبر الغريب!

- هذا غير ممكن...! ولكنه يتجه إليه بالفعل! محال!

- لقد زجر الناس في العام الماضي عن زيارة القبور وتعظيمها، بصورة لا توافق الشرع! ورغم هذا يذهب بنفسه للزيارة قبل رحيلنا إلى الجنوب!

- ويدعو للزهد في الدنيا وشؤونها..! ها ها ها! ويتزوج ثمان نساء في أقل من سنتين!

- ها ها ها! وهكذا أبناء الزوايا: لا تسلك أفعالهم مجري أقوالهم ووعظهم...!

* * *

اقترب الفقيه من موضع القبر، تحت الشجرة المعمرة المائلة الغصون والفروع، وأناخ جمله، قارئا بصوت مسموع: ﴿قل إن الموت الذي تفرون منه فإنه ملاقيكم... إنك ميت وإنهم ميتون...﴾.

وصلى الزائر ركعتي الضحى قبالة رأس الضريح. ورفع يديه وشخصت عيناه إلى السماء، متوسلا لربه، داعيا بالخير لأمة محمد ﷺ سالفها وحاضرها. وخصص عشيرته وأهليه، ثم نفسه: - اللهم إنك تعلم أن اعتلال يدي هذه، حدث لها أثناء فريضة الحج! اللهم اشفها بقدرتك وحقق لي أملي في الدنيا والآخرة. يا شافي يا معافي يا كافي! اللهم أنني أشكو إليك لا سواك هذا الداء المشين لذراعي، الذي تبدي زوجاتي نوعا من الاشمئزاز عند رؤيتهن له! يا رب العالمين أسألك الشفاء المبارك!

وحملقت عينا سلامي في الفضاء، غارقا في التوسل، خاشع النفس، ولسانه مرسل بالطلب والدعاء، ولاحظ فجأة بمؤخوة عينه اليسرى هيكل إنسان يقف غير بعيد منه:

- "السلام عليكُ"! إنك تذكرني برجل سبق أن تعرفت عليه في الماضي! والتفت سلامي إلي حيث الصوت المخاطب له. ورأى وجه ميمونة بنت الهادي زوجته الحبيبة "الفقيدة". ولم يخامره شك في أنها هي هي بعينها. لأن الجان - وهذا رسخ في دهنه ومعتقداته - لا تستطيع أن تتجسد أو تتظاهر له على غير هيئتها، لأنه طردها عن جوار القبر بالآية

القرآنية حال قدومه. ولهذا فقد اقتنع بأن ابنة عمه مازالت على قيد الحياة، وشاءت لهما الأقدار أن يتلاقيا في هذا المكان! فكر الرجل على هذا المنوال بسرعة وهو يلتفت إليها عندما خاطبته بلفظ التحية، متعجبا من صيغة سلامها. وقال مكررا قولها:

- السلام عليكُ: (بضم الكاف وحذف الميم)؟! وعليكم السلام يا أختاه! الحمد لله على سلامتك! ومد يده اليمنى لمصافحتها فقالت:

- اردد يدك إليك يا مفلوج! لن أصافحك. أنت بالفعل هو سلامي الخائن، الكذاب، المخادع...

- لماذا تتكلمين على هذا النحو؟! لا إله إلا الله!

- ... محمد رسول الله... وهل بإمكانك أن تنتظر مني غير هذه النعوت المنطبقة عليك تماما؟

- إن لساني ينعـ... ينعقد... يا ابنة عمي وزوجتي الغالية لشدة دهشتي! فهل تلطفين أقوالك ريثما أتماسك وأعرف ما أقول؟ لا حول ولا قوة إلا بالله!

- وأنا ينعقد قلبي وروحي وكل بدني بمجرد رؤيتك، لشدة غضبي. ما كنت أعرف أنك ستكون هنا عند هذا القبر الذي لن أزوره بعد اليوم، أيها الخسيس المتحايل النصاب!

- الله! الله! يا ميمونة. كنت ذاهبا إلى الحج. سامحيني. سأحكي لك أسباب تأخري عن العودة إليك في ذلك العام...

- الله! الله! يا منافق! لا قبل الله لك حجا ولا صوما ولا صلاة..! وتطلب الشفاء من ربنا لعلتك القبيحة أمام هذا القبر الذي لا تعرف عنه

شيئا؟! ولن يستجاب دعاؤك لأن الله عاقبك بالداء على جريمتك النكراء...

– أية جريمة تعنين يا زوجتي؟! الله حسبي وهو نعم الوكيل!

– اخسأ يا غدار. لست زوجتك، ولن أكون، وتعلم أيها العابث...

قالت هذا وعضت على أضراسها، وتغير لون وجهها، مغالبة نفسها الجامحة إلى ضرب الرجل على رأسه بعمود في يدها من الأخشاب التي جلبتها إلى الضريح. ولكنها تذكرت أنها نمداوية، وأن أهلها الصيادين مسالمون، ولا تريد أن تشذ عن روح المسالمة المعهودة عنهم. ولولا ذلك لهجمت عليه ومزقته إربا إربا.. ولو بأظافرها وأسنانها!

لهذا عادت إلى الكلام محاولة إبراد غُلة حنقها وحقدها على ابن عمها بالعبارات الجارحة:

– ... تعرف أنني لا يمكن أن أكون لك زوجة أيها النذل الحقير!

وارتبك الحاج سلامي أمام ثورة المرأة، وقد ظهرت له بأخلاق غريبة لم يعهدها فيها! ولم يعرف ما سيقول لها في هذا الحال. وقرر مشاغلتها ببعض الأسئلة الهامشية، راجيا أن تسكن فورتها النفسية بعد حين، فيطيب لها خاطرها بالحديث المفصل عن أسباب تأخره عنها عام زواجهما:

– وما شأنكِ وهذا الكلب المرافق لك؟! يقال والله اعلم: «إن بيتا تدخله الكلاب لا تدخله ملائكة الرحمة»!

– تسأل عنه لأنك لا تعرفه يا جاهل.. إنه...

ـ لا علم لي بغير ما علمني ربي...

ـ إنه عرقاب الصغير. وأبوه عرقاب الكبير الذي أنقذ حياتي!

ـ ماذا تقولين؟ لا أفهم كلامك... صدقيني.

ـ قلت فقط، وأقول إنه عرقاب الصغير، كلبي العزيز الذ ي وهبه لي المرحوم سناد. يبلغ عمره الآن عشر سنوات. ولو لم يمت هذا الدفين الذي يزوره الناس ولا يعرفون من أمره شيئا، لكان يجري معه في صحاري الله الواسعة! إنهما مولودان في عام واحد.

ـ ومن هو صاحب هذا الضريح؟ لا أفهم..!

ـ لأنك جاهل... وبليد ومغفل.. وعضت ميمونة شفتها، بقوة و تابعت: إن المدفون هنا هو ولدك.. فضحتني وكنت وحدك المسؤول عن قتله يا مجرم...

ولن أزوره بعد اليوم. لأنني لا أريد الإتيان فيما بعد إلى موضع لوثته قدماك الحقيرتان.. أوه! خذه...! خذ هذا القبر! أوه! ليتني...

وكزت المرأة ببعض أسنانها على بعض ثم سكتت.

أجابها سلامي منفعلا، متأثرا، تكاد دموعه تنحدر من جفنيه:

ـ الآن... فهمت... عرفت كل شيء! ولكن هل لك يا ميمونة أن تذكري الله وتهدئي غضبك حتى يقص كل منا حكايته على الآخر؟

ـ اخسأ يا غدار! لن أقص عليك، ولن أستمع إلى أساطيرك...

* * *

وبقي سلامي لبعض الوقت واجما مشدوها. على أنه لم يساوره

شك في أنه سيعود في النهاية بزوجته وابنة عمه التي يفضلها على سائر نساء الدنيا. وكيف لا؟ وقلبه رق لها في الماضي ويرق الآن أكثر لحالها الناتجة أصلا في نظره من بعدها عن الأهل والقبيلة.

– ميمونتي! تعالي إلى الصواب، واستمعي لنصحي ليتب كل منا لربه مما سبق. ولنفتح صفحة جديدة من حياتنا. إنني أخوك وأنت أختي قبل كل شيء...

– اسكت! لا تضفني إلى نفسك بأية صيغة، وإلا فسأغضب أكثر من هذا، أو يفلت مني زمام ضبط النفس! أو...

– ليس أمامك من سبيل إلا العودة إلى أهلي وأهلك، تعالي معي..

– الموت أهون على مما تبغي! ميمونتك ماتت ودفنتها العوصف الحمراء في "ردم النجوم" منذ زمان... وبعثت ميمونة غيرها، نمداوية وفية مسالمة، لا شأن ولا رابطة لها مع الناكثين عهودهم، الغادرين إذا عاهدوا، الخداعين إذا استؤمنوا، من أمثالك أيها الشيطان الرجيم.

– لا تقولي هذا حتى لا أخرج عن صوابي! هيا فقط إلى زوجك وابن عمك الوكيل شرعا على أمورك. وستريك الأيام الأسباب المعقولة جدا لما حدث. وعفا الله عما سلف.

– خاب رجاؤك! تدعوني لخيانة زوجي الحبيب. وأنا النمداوية الوفية!

– يا إلهي! بسم الله، ولا حول ولا قوة إلا به... هل أنت متزوجة بغيري؟! لم أطلقك أبدا!

– نعم. متزوجة بغيرك... يا صاحب اليد المرتجفة والصورة الشوهاء

الكريهة.

- بمن؟ بمن؟ هذا لا يصح! سأفسخ هذا العقد الباطل الفاسد بحكم الشرع والفقه.

- لن تقدر على شيء من ذلك. وهل تعرف يا جاهل، فارس أولاد اسويلم المحبوب: شكار ولد الفائز؟

- شكار؟ نعم. سمعت عنه أشياء. لا أعرفه شخصيا، وإنما أعرف بعض أهله. وما علاقتك به؟

- هو حبيبي وزوجي، والرجل النمداوي الأصيل..!

- يقال أنه مات؟!

- وقيل أيضا بموتي أنا! صحيح، لأنني الآن إنسان آخر..! لتبق معك قناعتك بكوني ميتة منذ عام الريح الحمراء!

- لا تقولي غير الحقيقة...

- سأقول ما أريد، لا ما تبغي أنت... بلغ عربانك الجدد: الزناقة، الذين صاروا حسانيين، وقل لديلول الذي يسمى الآن جابرا، خَبِّرهم جميعا: أن شكار باع فرسه وبندقيته في مدينة تيشيت، واشترى من ثمنها زوج كلاب من أسرة بَطَّاحات النبيلة...

- ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن!

- واعلموا أنه الآن بعيد منكم ولن تروه... إنه في أراضي: المرية، والحنك، وجنوب الحمادة! ولن يقع زوجي العزيز أبدا في أيدي الزناقة الحاقدين... لقد قتلوا زميليه بالمكر والخديعة، والغدر. والحمد لله على فراره! ظنهم وقتها طليعة من جيش أولاد اعميرة. لو كان عرفهم في ذلك

اليوم لما نجح أولاد احميدان في شيء، ولسلكت الأمور مجرى آخر!

* * *

فكر سلامي فيما يفعل، وهو يستمع إلى كلام ميمونة: - إن هذه المرأة مصابة بالخبل والجنون! وعلي أن أمسكها بالقوة لأعيدها إلى رشدها وحياتها العادية، قبل أن أرحل بها إلي أهلي. إنها قريبة لي نسبا، وليس على وجه الأرض امرأة أحب إلي منها!

ونظر الشيخ إلى حيث ترك فرسان أولاد احميدان ليطلب منهم العون في حالة الضرورة لإجبارها على مرافقته. ولكنه لاحظ أنهم اختفوا من المكان عائدين إلى حلتهم. وعاد إلى الإنصات لما تقوله ابنة عمه، التي غيرت نبرة صوتها إلى وتيرة يطبعها الحزن والغضب معا:

- ... وداعا أيها المقتول بالغدر والخيانة! وداعا أيها الفقيد الدفين الذي مات قبل أن يحمل اسما من الأسماء! لن أرجع إليك بعد اليوم، وقد عرف مكانك والدك المسؤول عن كل ما حدث. وداعا إلى الأبد! فأنا ذاهبة لقضاء عمري الثاني في السهوب الرحبة، والصحاري المترامية!

واستجمع الأمام العالم قوته وعزيمته، وقرر أن يدخل مع المرأة في معركة لإرغامها على الرضوخ لرأيه:

- ميمونة! ميمونة! استمعي إلي: لا تجبريني على معاملتك بالقسوة! هيا معي، وإلا: فسيحدث مالا تحمد عقباه! أرجوك تعالي...

وردت النمداوية على تهديد الرجل لها:

ـ هل تتوعدني بشر يا معتوه؟! إنني قادرة على صرعك وتعفيرك، تقدم إلى هنا لتجرب، بل على ردمك هنا في التراب جنب ولدك المظلوم! وهذا الكلب الوفي الشجاع: هل تظنه حاضرا معي هنا عبثا أيها النذل المشوه؟!

وفي هذا الحين فتح عرقاب الصغير فمه، بإشارة من مولاته، مكشرا عن أنياب عصل، وزمجر محاولا الاقتراب من جهة سلامي. وخاف الأستاذ على نفسه، وتراجع منهزما بعدما كان قد شمر ثيابه للوثوب على ابنة عمه لإمساكها وإنقاذها من حياة التوحش التي ابتليت بها في أعوام ذهابه إلى الحج. وواصل خطوه إلى الوراء، وعرقاب يواصل إطلاق هريره المخيف.

* * *

وقف العالم قريبا من جمله البارك، وأرسل نظراته إلى ابنة عمه التي أطلقت ساقيها للريح، تجري إلى جهة الشمال. وكانت أذناه تؤزران وقلبه يخفق بعنف بسبب التعجب والخوف. وآخر ما رأى ولاحظ بعناية ضفائر رأس ميمونة الكثيف الشعر، تتضارب مستنّة على كتفيها وظهرها وعجزها، وكأنها ـ في نفسه ـ شلالات هادرة تتجاوب تياراتها المتعانقة بدوي هائل، يملأ الدنيا صخبا ورعبا! ثم رأى للمرة الأخيرة عرقاب الصغير، يجري وراءها، مبصبصا ذنبه العقربي الأصهب!

وقال الشيخ في حسرة شديدة:

- إنا لله وإنا إليه راجعون! اللهم إن الأمر أمرك، والقضاء قضاؤك!

وركب جمله آئبا إلى حظوظه الأخرى. وانكسر قلبه متعظا، وترنم:

- سبحان خالق الأصول ومغيرها! سبحان من قسم الأقدار والأقسام وحددها! سبحانك الله! يا من أرجعتني من مجاورة علماء الأزهر المالكيين الطيبين، لأنتشل أولاد عبد الرحمن من مصيرهم الذي كان محققا! فقد كادوا يصبحون زناقة محتقرين لو لم آخذ شبابهم وأطفالهم للدراسة! سبحان من حول أولاد احميدان إلى عربان حسانيين متجبرين!

واندفع الشيخ في الذكر:

- لا إله إلا الله! الله! الله! وما برح هكذا مهموما منكسر الخاطر، حتى دخل خيام الحيين الكبيرين المتجاورين، المستعدين للرحيل جنوبا، أمام القحط وزحف الرمال. وأنشد لنفسه وهو قريب من خيمته قبل أن ينيخ مركوبه:

- «**ومن صحب الأيام أنأين جـــاره**

وأدنت لـــه من ليس بالمتدانـــي»[1].

---

3 - من قطعة للشاعر الموريتاني القديم: سيدي عبد الله بن أحمد دام الحسني.

منشورات المؤسسة

صدر حتى الآن :

١- جوانب وحدوية من ثقافة الصحراء المغربية (أعمال الموسم الثقافي الذي أقيم بمدينة العيون وتافودارت).

٢- الرحلة المعينية، للعلامة ماء العينين بن العتيق. تحقيق د. محمد الظريف.

٣- شدو الواحة (ديوان شعر). الشاعرة خديجة أبي بكر ماء العينين.

٤- هداية من حارا في أمر النصارى للشيخ ماء العينين. إعداد مربيه ربه ماء العينين.

٥- تبيين الغموض على نعت العروض للشيخ ماء العينين. إعداد ذ. محمد عيناق.

٦- إسماعيل ولد الباردي. تأليف ذ. محمد دحمان.

٧- مفيد الراوي على أني مخاوي، للشيخ ماء العينين.تحقيق د. محمد الظريف.

٨- سوس والصحراء : تواصل ثقافي وحضاري. أعمال يوم دراسي نُظم بتعاون مع المجلس البلدي لمدينة تزنيت.

٩- الإيضاح لبعض الاصطلاح، للشيخ ماء العينين. إعداد د. محمد الظريف.

١٠- نفثة عاشق (شعر). خديجة أبي بكر ماء العينين.

١١- القبر المجهول. أحمد ولد عبد القادر.

١٢- كوابيس (شعر). أحمد ولد عبد القادر.

